

عادات القرآن الأسلوبية

دراسة تطبيقية

تأليف

د. راشد بن حمود بن راشد الثنيان

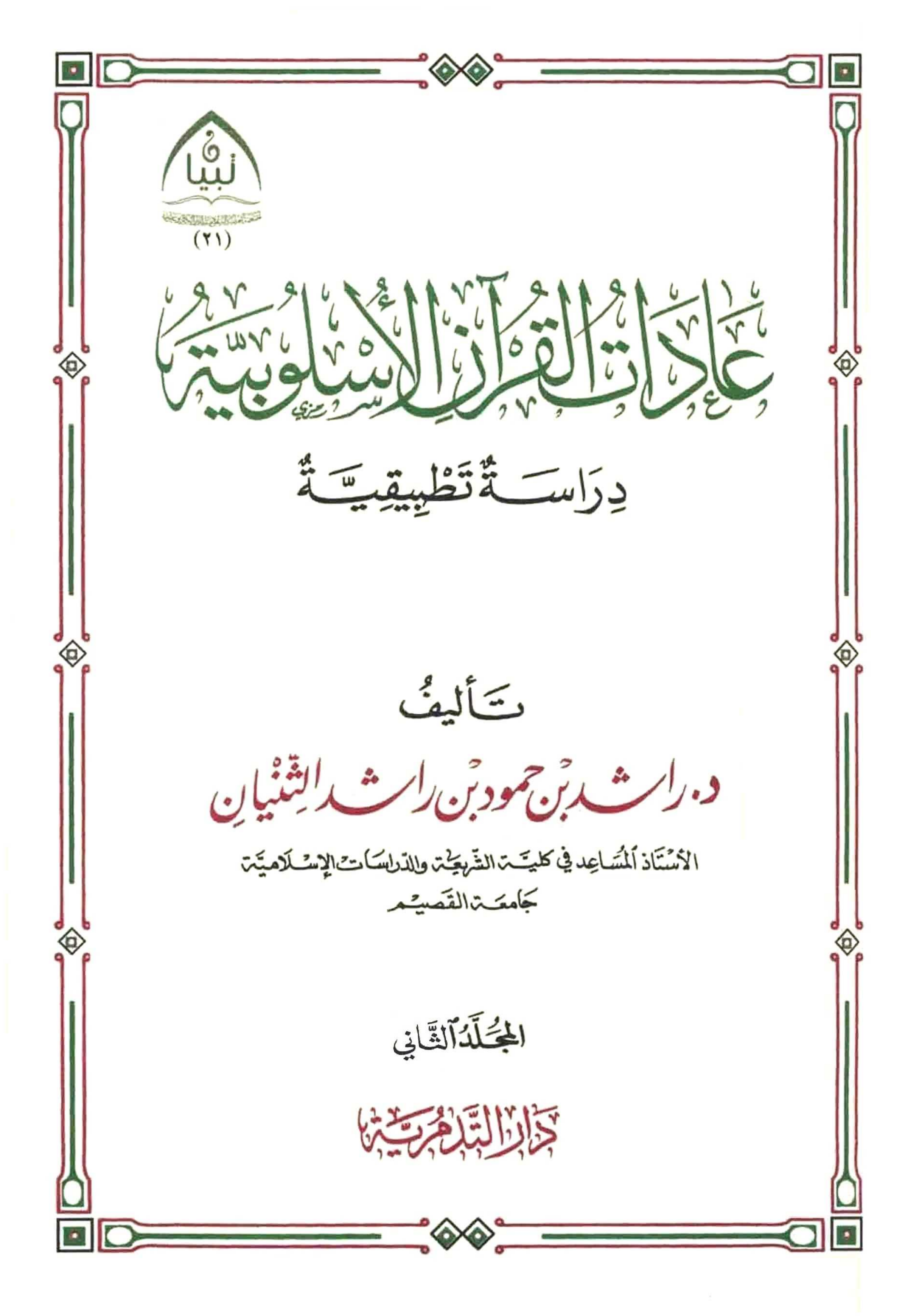
الأستاذ المساعد في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة القصيم

المجلد الثاني

دار التدمرية

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ــ ٢٠١١م



عادات القرآن الأسلوبية

دراسة تطبيقية

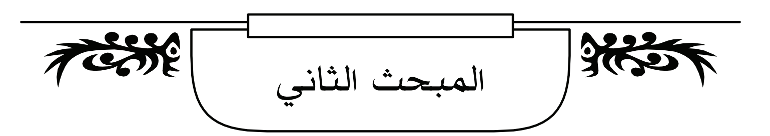
تأليف

د. راشد بن حمود بن راشد الثنيان

الأستاذ المساعد في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة القصيم

المجلد الثاني

دار التدمرية



المبحث الثاني

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.**
- **المطلب الثاني: قرن دلائل الأنفس بدلائل الآفاق.**

المطلب الأول

قرن بعض الآيات الكونية ببعض

تنوع الحديث في كتاب الله تعالى عن الآيات الكونية، والحثِّ على التفكر فيها؛ لأن هذا مما يزيد الإيمان بالله وقدرته وعظمته سبحانه، فيعمل العبدُ لرضاه ويبتعد عن سخطه.

ومن ذلك السماوات والأرض وما فيهما من آيات، والليل والنهار، والشمس والقمر والكواكب، والجبال والأنهار، وغير ذلك[(١)].

قال ابن جزي: «فكل ما جاء في القرآن من التنبيه على المخلوقات والاعتبار في خلقه الأرض والسماوات، والحيوان والنبات، والريح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغير ذلك من الموجودات؛ فهو دليل على خالقه، ومنه إثبات الوحدانية، والرد على المشركين، والتعريف بصفات الله من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وغير ذلك من أسمائه وصفاته، والتنزيه عما لا يليق به»[(٢)].

وقد حثَّ العلماء على التفكر في هذه الآيات، والتأمل فيها.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥.
(٢) التسهيل ١/ ٨.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ»[١].

وعن محمد بن كعب القرظي قال: «لأن أقرأ ليلتي حتى الصبح بإذا زلزلت، والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إليَّ من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذّاً، أو قال: أنثره نثراً»[٢].

ومن عادات القرآن اقتران بعض الآيات الكونية فيه ببعض، والتي هي محلٌّ للتأمل والتفكر، والجمعِ والدراسة، **ومن أمثلة ذلك**:

❐ أولاً: اقتران الشمس والقمر:

الشمس والقمر من آيات الله العظام، بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتُضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما لما عَرَف ذلك عامةُ الناس، بل كان لا يعرفه إلا أفرادٌ من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت[٣].

وقد اقترنا في مواضع كثيرة من القرآن، **ومنها**:

ـ قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾؛ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً»[٤].

وقال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٨). ينظر: كنز العمال ٨/ ٣٣٤ (٢٢٥٤٤).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٩٧ (٢٨٧)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٤١ (٣٠١٦٠).
(٣) تفسير السعدي ٢٦٥. (٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

والحيوان، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية؛ وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظمُ في القلوب، وأكثرُ وقعاً من الأحوال الأرضية»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وفي هذه الآية اقترن مع الشمس والقمر: النجوم، وجاء هذه الاقتران في أربع مواضع من القرآن، وكلُّها من الآيات العلوية العظيمة.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

قال السعدي: «أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة»(٣).

---

(١) تفسير الرازي ١٣/٧٧.
(٢) تفسير السعدي ٤٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/٤٠٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء].

جاءت هذه الآيات في سياق واحد إشارة إلى ما به منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، وبها يعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، إلى غير ذلك، مما يدل على عظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده، وإذا تفكر العاقل فيها عرف أن هذه الدار مزرعةٌ لدار القرار[(١)].

قال ابن جزي: «أي: كلهم في فلك يسبحون؛ يعني: الشمس والقمر دون الليل والنهار، إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح في الفلك، فالجملة في موضع حال من الشمس والقمر، أو مستأنفاً، فإن قيل: لفظ كل ويسبحون جمع، فكيف يعني الشمس والقمر وهما اثنان؟ فالجواب: أنه أراد جنس مطالعها كل يوم وليلة وهي كثيرة»[(٢)].

وبدلالة اقتران النجوم والشمس والقمر في آيات من كتاب الله اختار الرازي أن يضمها في التفسير هنا مع الشمس والقمر حيث يقول: «لا يجوز أن يقول: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر: النجوم؛ ليثبت معنى الجمع، ومعنى الكل، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها، والله أعلم»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

سمَّى الله تعالى الشمس في هذه الآية سراجاً لما فيها من النور والحرارة، والقمر فيه النور دون حرارة، وهذا من أدلة عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح والمنافع للخلق دليل على كثرة خيراته.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٥٢٢.
(٢) التسهيل ٢/ ١٩٢.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٤، وينظر: تأويل مشكل القرآن ١٩٣.

لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصّلت].

قال ابن عطية: «ثم عدد آياته لتعبر فيها من صدق عن التوحيد بذكر الليل والنهار، وذكرهما يتضمن ما فيهما من القِصَر والطول والتداخل والاستواء في مواضع، وسائر عبرهما، وكذلك الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله فيهما ونفعه عباده بهما»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾﴾ [الرَّحمٰن].

هذا من أمثلة قَرْن الشمس والقمر لبيان الدِّقَّة في جريانهما وتعاقبهما بتقدير الصانع الحكيم.

قال ابن كثير: «أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة].

ونهاية هذا الاقتران اللفظي في كتاب الله تعالى اجتماعُ الشمس والقمر ذاتاً أو صفة في نهاية العالم يوم القيامة.

قال ابن الجوزي: «في معنى الآية قولان:

أحدهما: جمع بين ذاتيهما، وقال ابن مسعود: جُمعا كالبعيرين القرينين، وقال عطاء بن يسار: يجمعان ثم يقذفان في البحر، وقيل: يقذفان في النار، وقيل: يجمعان فيطلعان من المغرب.

والثاني: جُمع بينهما في ذهاب نورهما، قاله الفراء[(٣)]، والزجاج[(٤)]»[(٥)].

وهذا الاقتران بين آيتين من آيات الله الكونية، دليل على عظمة هاتين الآيتين، وأن بينهما من الاتصال شيءٌ كثير، ومن ذلك:

ـ أن الشمس والقمر مُتكامِلان، فإحداهما آية الليل، والآخر آية النهار.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/٤٨٩.
(٣) معاني القرآن ٣/٢٠٩.
(٤) معاني القرآن ٥/٢٥٢.
(٥) زاد المسير ٨/٤١٩.

ـ وبالشمس والقمر يتبين فضل الله على عباده، فبهما تقوم مصالح العباد في معاشهم ودنياهم.

وفي كل المواضع التي اقترن فيها الشمس والقمر قدمت الشمس إلا في موضع واحد فقد ذُكر القمر قبل الشمس.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ومن الحِكَم في تقديم الشمس على القمر:

ـ أن الشمس هي الأصل، ونور القمر جزء من نور الشمس.

وهذا مما يدل على أهمية الشمس للقمر وللأرض وللمخلوقات عامة، فبدون الشمس لا يُرى القمر، وبدون الشمس لا تقوم حياة على الأرض.

ـ أن تقديم الشمس تقديم للأفضل والأشرف.

ولذا تكررت كلمة الشمس في القرآن أكثر من كلمة القمر[١].

وأما تقديم القمر على الشمس:

فقد قال الزركشي: «وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

فيحتمل وجهين: مناسبة رؤوس الآي، أو أن انتفاع أهل السماوات به أكثر»[٢].

والملاحظ في هذه الآية التي قُدم فيها القمر أن بينه وبين الشمس فاصلاً لفظياً، وليس كأكثر المواضع في توالي لفظ الشمس والقمر، وهو دليل على دقةِ وإحكام ألفاظ القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

❐ ثانياً: اقتران الليل والنهار:

اقترن الليل والنهار في القرآن في مواضع كثيرة، وفيه بيان كمالِ نعمة الله على عباده، **ومن الآيات التي اجتمع فيها الليل والنهار:**

---

(١) وردت الشمس في القرآن ٣٣ مرة، والقمر ٢٧ مرة، واقترنا في ٢٣ موضعاً.
(٢) البرهان ٣/ ٢٥٩.

ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؛ أي: مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم»[1].

وقد امتنَّ الله بذلك على عباده فقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وقد تكرر اقتران الليل والنهار كثيراً في سياق التذكير بنعمة تعاقبهما، وما فيهما من رحمة الله تعالى، ومصالح للعباد، للدلالة على توحيد الله تعالى، ومن الآيات في هذا المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وتعاقب الليل والنهار عليكم أيها الناس.

(١) تفسير السعدي ٤٥٤.

وإنما الاختلاف في هذا الموضع: الافتعال، من خُلوف كل واحد منهما الآخر، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، بمعنى: أن كل واحد منهما يخلف مَكان صاحبه، إذا ذهب الليل جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خلفه»[١].

وقال السعدي: «أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة، آيات؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلٰهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي الجمع بين هذه المخلوقات العظيمة المتضادة بيان عظمة الله تعالى وعظيم قدرته.

قال ابن كثير: «يذهب الليل بدآدئه[٣] وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، فبيَّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه»[٤].

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٧٢. (٢) تفسير السعدي ٧٨.

(٣) الدآدئ: ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وكلّ إناءٍ قارَبَ أن يمتلئَ فقد تدأدأ، وكذلك هذه الليالي تكون إذا قارب الشهر أن يكمُل. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٦٢، الصحاح ٢/ ٥٢.
قال الخليل: «الدَّآدِئ: وهي ثلاث ليال، خمس وست وسبع وعشرون» العين، مادة: (داد) ٢٧٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٤.

وقال أبو السعود: «﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد].

قال الماوردي: «معناه: يُغشِي ظلمةَ الليل ضوءَ النهار، ويغشي ضوء النهار ظلمة الليل»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان].

ذكر المفسرون في معنى هذه الآية: أن الله جعل الليل والنهار يخلف كل واحد منهما صاحبه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وكل واحد منهما مخالفاً صاحبه، فجعل الليل أسوداً والنهار أبيضاً، وكل واحد منهما خلفاً من الآخر، فما فات أحدهما من عمل يعمل فيه لله، أدرك قضاؤه في الآخر(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥﴾ [الزُّمر: ٥].

قال الطبري: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يقول: يغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٤).

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٢٣٢. (٢) النكت والعيون ٣/ ٩٣.
(٣) ينظر: تفسير الطبري ١٩/ ٢٩٠، ٢٩١، والنكت والعيون ٤/ ١٥٣.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٥٣.

وقال البيضاوي: «﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية].

قال ابن كثير: «﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس]، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ [الحج: ٦١]؛ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا»[(٢)].

وكذلك تكرَّر كثيراً اقترانُ الليل والنهار لبيان أن الليل والنهار يزيدان وينقصان على حساب بعضهما، ومن الآيات التي أشارت لذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [آل عمران].

أي: تدخل ما نقصت من الليل في النهار، وكذا العكس.

قال الفراء: «نقصان الليل يولج في النهار، وكذلك النهار يولج في الليل، حتى يتناهى طول هذا وقصر هذا»[(٣)].

وقال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ تدخل ما نقصتَ من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، وتدخل ما نقصتَ من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار»[(٤)].

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/٥٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٧٤.
(٣) معاني القرآن ١/٢٠٥.
(٤) تفسير الطبري ٦/٣٠٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ بالساعات والأوقات»(١).

وقال ابن كثير: «﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾؛ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»(٢).

وبعد تأمل مواضع اقتران الليل والنهار تبين لي ما يلي:

١ ـ كثرة تكرار اقتران الليل والنهار عند الاستدلال على توحيد الله إما باختلافهما من الضياء والظلام، والطول والقصر، وإما بتعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، كل ذلك بإتقان وتدبير دقيق، ما يدل على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

٢ ـ أن كثرة اقتران الليل والنهار لما بينهما من التضاد الذي يتبين من خلاله فضل الآخر.

٣ ـ أن لفظ الليل يأتي قبل لفظ النهار في كل القرآن، وفيه إشارة إلى أن الليل هو الأصل، ولذا تكرر في القرآن أكثر من النهار.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٦٩٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/٢٥٨.

قــال تــعــالــى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ودليل لهم أيضاً على قدرة الله على فعل كل ما شاء ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ يقول: ننْزَعُ عنه النهار، ومعنى: ﴿مِنْهُ﴾ في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلخُ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهب بالنهار»(١).

وقال الماوردي: «أي: نخرج منه النهار؛ يعني: ضوءه؛ مأخوذ من سلخ الشاة إذا خرجت من جلدها»(٢).

وقال البغوي: «وقَدَّم الليل على النهار في الذِّكْر؛ لأنه أقدمُ منه، قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾»(٣).

٤ ـ الآيات التي ذُكر فيها خلق الليل والنهار، غالباً ما تُختم بصفات العزة والعلم للخالق سبحانه وتعالى، والحث على التفكر والتدبر.

قال ابن كثير: «كثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم»(٤).

٥ ـ أن الترتيب الأغلب للآيات الكونية في القرآن: الليل والنهار والشمس والقمر، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه بالنظر إلى القَدْر والأوَّلية للشمس على القمر، وإلا فكل الآيات رحمةٌ من الله، ولا يَستغني عنها العباد، فالآيات يكمِّل بعضها بعضاً، وقد وافق هذا الترتيبُ ترتيبَها حسب كثرة تَكرارها في القرآن الكريم، فقد جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥١٦.
(٢) النكت والعيون ٥/١٧.
(٣) تفسير البغوي ١/١٧٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٤، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

مرة، وجاء ذكر النهار سبعاً وخمسين مرة، وجاء ذكر الشمس ثلاثاً وثلاثين مرة، وجاء ذكر القمر سبعاً وعشرين مرة، فسبحان الحكيم العليم[(١)].

❐ ثالثاً: اقتران السماء والأرض:

السماوات والأرض من مخلوقات الله العظيمة، وقد قرن بينهما سبحانه في كتابه في مواضع كثيرة، وغالباً ما يأتي الاقتران في سياق آيات الله الدالة على وحدانيته وربوبيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الجاثية].

ففي السماوات آيات عظيمة منها: سعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وبروجها، وعلومها، واستغنائها عن عَمَد تُقِلُّها، إلى غير ذلك من عجائبها، ولهذا أمر سبحانه بأن يُرجِعَ الناظرُ البصرَ فيها كرةً بعد كرة، ويتأملَ استواءها واتِّسَاقها وبراءتها من الخلل والفطور[(٢)]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات].

قال ابن كثير: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذَرَأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه»[(٣)].

وقد اقترنت السماوات والأرض في كتاب الله تعالى في أكثر من مائة وثمانين موضعاً[(٤)].

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٣٨٧، ٥٥٣، ٦٥٦، ٧٢٠.
(٢) ينظر: بدائع الفوائد ١/ ٨٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٩.
(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٢٦، ٣٦٢.

قال ابن عاشور: «وفي القران معان لا تكاد تفترق مثل: السماء والأرض»[(١)].

ومن الآيات التي تدل على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

قال السعدي: «﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا؛ فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب؛ فالشهادة من باب أولى»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن قتيبة: «أي: مبدعها»[(٣)].

وقال السجستاني[(٤)]: «﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾؛ أي: مُبْتَدع؛ أي: مبتدئ»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

قال السعدي: «أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره، مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤، وينظر: البيان والتبيين ١/ ٢٧.

(٢) تفسير السعدي ٤٨. (٣) تأويل مشكل القرآن ١٨١.

(٤) هو: محمد بن عزير السجستاني، أبو بكر العزيري، من بني عزرة، مفسر، اشتهر بكتابه: «غريب القرآن»، وكان مقيماً ببغداد، مات سنة (٣٣٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٨، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢١٧، طبقات الأدنه وي ٤٢٥.

(٥) غريب القرآن ١١٧.

امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

أمر الله تعالى في هذه الآية بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، لا يعلمه إلا الله!.

قال القرطبي: «ونبَّه تعالى بالعرض على الطول لان الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ [آل عمران].

قال الطبري: «القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١]، يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم: لله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، فكيف يكون أيها المفترون على الله، من كان ملك ذلك له فقيراً؟»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل].

قال مكي: «قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المعنى: لله ما غاب عن أبصاركم في السماوات والأرض دون ما سواه»(٤).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء»(٥).

---

(١) تفسير السعدي ١٣٧.
(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/ ٤٧٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٠٥٤.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [النور].

قال أبو السعود: «ولله ملك السماوات والأرض لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

قال ابن عطية: «هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو بمسخر ومالك»(٢).

وبعد تأمل مواضع اقتران السماوات والأرض في القرآن، تبين لي ما يأتي:

١ ـ تقدُّم السماوات على الأرض في كتاب الله تعالى غالباً، وفيه: أن الآيات التي في السماوات أعظم منها في الأرض(٣).

وفي مواضع قليلة قُدمت الأرض، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة].

فتقديم الأرض لمناسبة السياق، وأن الأرض هنا هي منَّة الله تعالى على الخلق فكيف يكْفُر بالله من خلقه الله، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ومرجعُه إلى الله.

قال البقاعي: «ولما كانت السماء أشرف من جهة العلو الذي لا يرام، والجوهر البالغ في الأحكام، والزينة البديعة النظام، المبنية على المصالح

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٨٢.

الجسام، وكثرة المنافع والأعلام، عبَّر في أمرها بثم فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: وشرف على ذلك جهة العلو بنفس الجهة والحسن والطهارة وكثرة المنافع، وتقديم الأرض هنا؛ لأنها أدل لشدة الملابسة والمباشرة»(١).

ـ وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها، وتوسيط حرف النفي بينهما، للدلالة على الترقي من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

فتقديم الأرض هنا مناسب لسياق الكلام؛ لأن الكلام في حال أهلها.

قال البيضاوي: «وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها»(٣).

وقال أبو حيان: «ولما ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم الأرض الذي هي محل المخاطبين على السماء، بخلاف ما في سورة سبأ، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض»(٤).

وقال ابن القيم: «وأما تقديم الأرض في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبالرتبة أيضاً؛ لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس: ٦١]،

---

(١) نظم الدرر ١/ ٨٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٦.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٠٥.
(٤) البحر المحيط ٥/ ١٧٢.

فاقتضى حسن النظم تقديمها مرتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها»[(١)].

ـ وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم].

قال أبو السعود: «وتقديم الأرض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا»[(٢)].

فتقديم السماء على الأرض ـ والله أعلم ـ هو الأصل في كتاب الله؛ لاعتبار الرتبة والفضل والشرف، وما فيها من آيات هي أعظم من آيات الأرض.

وتقديم الأرض لأسرار في مواضعه تناسب السياق، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

قال ابن القيم: «وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي، ونحو: سميع عليم، ولم يجئ عليم سميع، وكذلك: عزيز حكيم، وغفور رحيم، وفي موضع واحد: الرحيم الغفور، إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة؛ فنقول: إن تقديم الألفاظ في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان؛ بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال»[(٣)].

٢ ـ أن اقتران السماء والأرض كثيراً ما يكون في مواضع الدلالة على وحدانية الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة؛ فتكرر في علم الله تعالى لغيب السماوات والأرض، وكذلك في ملك الله للسماوات والأرض، وفي خلق الله للسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وفي تسخير ما فيهما لعباده، وفي سعة رحمته الله تعالى بهم، ورجوع من فيهما إليه، ونحو ذلك.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٦٧، وينظر: ملاك التأويل ١/ ٣٤٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٣، روح المعاني ١٣/ ٢٤١.
(٣) بدائع الفوائد ١/ ٦٥.

٣ ـ أن اقترانهما تكرر مرتين في أعظم آية من كتاب الله، وهي: آية الكرسي؛ مما يدل على عظمتهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة].

٤ ـ أن اقتران السماء والأرض، والشمس والقمر، وغيرهما دليل على كمال خالقهما، حيث خلق الشيء وما يُقَابله ويُذْكَر معه.

قال الطبري: «عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر]، قال: كلّ خلق الله شفع، السماء والأرض، والبرّ والبحر، والجنّ والإنس، والشمس والقمر، والله الوَتر وحده»[(١)].

والحاصل: أن هذه آيات عظيمة من آيات الله تعالى، ولكن يغفل الإنسان عن تدبرها، ولذا كرَّر الله تعالى ذكرَ هذه الآيات في سورٍ من القرآن الكريم، فيجيء مرة ذِكرُ الشمس والقمر، وأخرى ذكر الليل والنهار، وثالثة خلق السماوات والأرض، وهكذا؛ لأجل أن يصطحب الإنسان ذكرها فلا يغْفَل ولا ينسى والله المستعان، وهو جل وعلا أعلم وأحكم.

المطلب الثاني

قرن بعض دلائل الأنفس بدلائل الآفاق

عادة القرآن في الاستدلال لتوحيد الله، وبيان عظمته، قرنُ دلائلِ الأنفُس بدلائل الآفاق، وهذه الدلائلُ لها أثرٌ عظيمٌ في النفوس، كما هي

(١) أخرجه الفريابي في التفسير. ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٤، والطبري ٢٤/ ٣٩٨، وذكره البخاري تعليقاً باختصار، قال ابن حجر: أراد مجاهد بهذا أن كل شيء له مقابل يقابله، ويذكر معه، فهو بالنسبة إليه شفع؛ كالسماء والأرض، والإنس والجن... إلخ، وبهذا زال الإشكال بأن السماوات سبع والسبع ليس بشفع، ينظر: فتح الباري ٦/ ٣٦٥.

مواعظُ القرآن صالحةٌ لكل زمان ومكان، كل ذلك لتثبيت الإيمان في القلوب.

والمراد بدلائل الأنفس: دلالة أحوال بدن الإنسان، ودلالة أحوال نفسه على توحيد الله تعالى، مثل: أطوار خلق الإنسان، وعلاقتُه بربه، وحاجتُه إليه.

قال ابن عطية: «﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، إحالة على النظر في شخص الإنسان؛ فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله فيه ـ مع كونه من تراب ـ من لطائف الحواس، ومن أمر النفس وجهاتها ونطقها واتصال هذا الجزء منها بالعقل ومن هيئة الأعضاء»[(١)].

ودلائل الآفاق: دلالةُ كلِّ شيءٍ غير الإنسان من هذا العالم على توحيد الله تعالى، وهي أقسام كثيرة؛ منها: أحوال الليل والنهار، والسماء والأرض[(٢)].

قال الراغب: «الآفاق؛ أي: في النواحي»[(٣)].

وللسماء آفاق، وللأرض آفاق[(٤)].

وعادة القرآن اقتران دلائل الأنفس ودلائل الآفاق.

قال الرازي: «واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق»[(٥)].

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصِّلت].

قال النحاس: «وقوله جل وعز: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٥٨.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٢٧/٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٧٩.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١/١١٤، لسان العرب ١٠/٥.
(٥) تفسير الرازي ٣١/٥٦.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: في آفاق الدنيا وتقلب أحوالها ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مثل ذلك»[(١)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾؛ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

في هذه الآية عطف جملة: وهو الذي يتوفاكم، على جملة، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، انتقالاً من بيان سعة علم الله تعالى إلى بيان عظيم قدرته، وإثبات البعث بعد الموت؛ لأن ذلك كلّه من دلائل الألوهية، تذكيراً للعارف، وتعليماً لغيره، فأعقب تعالى بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس بوفاتهم وبعثهم، ما ذكر من دلائلها في الآفاق ـ من سعة علمه وإحاطته بكل شيء ـ كما هي عادة القرآن.

قال الطبري: «فالذي يقبض أرواحكم بالليل، ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته، غير مُنكَرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردِّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير مُنكَرٍ لمن قدر على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تعاينوه، وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعاينتم»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ

---

(١) معاني القرآن ٦/ ٢٨٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ١٥٩.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٤٠٦.

مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ
ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر].

ففي هذه الآيات من دلائل الآفاق:

ذكر أحوال الليل والنهار، وخلق الأرض والسماء.

وفيها من دلائل الأنفس:

ابتداءُ تصوير الإنسان، وتحسين صورته من قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ورزقُه من الطيبات في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وكيفيةُ تكوُّن بدن الإنسان من كونهِ نطفة إلى موته؛ كلُّها مذكورة في هذه الآيات.

فقَرَن جلَّ وعلا بين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس لبيان الحق للخلق.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ
وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن
رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد

أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرارٍ وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت]؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ أي: يوم القيامة، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصِّلت]، وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطُّور]»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

في هذه الآية اقترانٌ لدلائل الآفاق بدلائل الأنفس، لِمَا بينهما من العلائق، والغايةُ: بيانُ أن هذه الآيات حقٌّ من عند الله(٢).

قال ابن عاشور: «بعد أن ذكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس التي هي من علائق الأرض عطف ذكر السماء للمناسبة، وتمهيداً للقسم الذي بعده في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٧٠.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥٤.

طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

أمَرَ الله تعالى في هذه الآية بتعظيمه وأعقبها بدلائل الأنفس والآفاق:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، هذا من دلائل الأنفس على توحيد الله.

قال ابن الجوزي: «﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده من خلقه إياكم من نطفة ثم من علقة شيئا بعد شيء إلى آخر الخلق»(١).

والثاني: دلائل الآفاق بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس]، الآيات.

فالآية الأولى: من دلائل الأنفس، والثانية: وما بعدها من دلائل الآفاق.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطَّارق]، هذه وما بعدها في دلائل الأنفس، إلى أن قال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطَّارق] وما بعدها في دلائل الآفاق؛ لإثبات البعث والجزاء، وأن القرآن حقّ.

وبعد التأمل في هذه النماذج تبين لي:

١ ـ أن اقتران دلائل الآفاق ودلائل الأنفس كثير مبثوث في القرآن.

٢ ـ أن من حِكَم اقترانهما: مراعاة حال المخاطب، وتنويع وسائل الاستدلال.

٣ ـ أن النظر في دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، مع فهم نصوص الكتاب والسُّنَّة والتدبر فيها كما أمر الله، يوصِل إلى الحق ومعرفة رب العالمين، وأنه هو المستحق للعبادة وحده.

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٧١.

كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصِّلت: ٥٣].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١]: «فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته»[٢].

٤ ـ أن القرآن يبدأ تارة بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إلى قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة].

وذلك لأن نفس الإنسان أقربُ الأشياء إليه، وهذا مسوغ معقول للبداية بالأقرب.

وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرُّوم].

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصِّلت: ٥٣].

أ ـ وذلك لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب.

---

(١) هو: الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، كان حافظاً ذكياً تعلَّم الكثير وانطلق للدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، ونفع الله به كثيراً وفي مصنفاته، ومنها: «الأصول الثلاثة»، وكتاب «التوحيد»، وغيرها، مات سنة (١٢٠٦هـ)، له تراجم في عدة مصادر، فلينظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه للأستاذ مسعود الندوي ص٣٧ وما بعدها.

(٢) الأصول الثلاثة ١٠.

كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

فإذا تأمل الإنسان في عظمة خلق الله أوصله ذلك إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى وربوبيته، وإذا تفكر الإنسان في دلائل نفسه، عرف قدرة القدير، وعجز عقله عن التحليل، فكيف إذا قاسها إلى السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض وما فيها من البحار والجبال والنبات والحيوان، وهنا يعرف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط بوصفه الواصفون، وأن كل ما خلقه الله ففيه الحكم البالغة، والأسرار العظيمة، مما لا سبيل إلى معرفته، وهنا يقول العبد: سبحانك![1].

ب ـ أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يَحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق؛ لأن الشُّبَه فيها أكثر، فهنا تقع البداية بها[2]، والله أعلم.

وعليه؛ فإن التقديم راجع لما يناسب السياق من حال المخاطب، فإذا لم يَفْهم بُيِّن له بوجه آخر.

فالدلائل المُتَنَوعةُ لا تخلو: أن يُبدأ بالأبْيَن ليُفهم ثم يرتقي إلى الأخفى لزيادة الدلالة، أو يُبدأ بالأعلى لأن له وجهٌ معتبر؛ فإن فهمَه المُستفيد فذلك، وإلا ينْزلُ درجةً فدرجة ليُفهَم ويزيد الفهم[3].

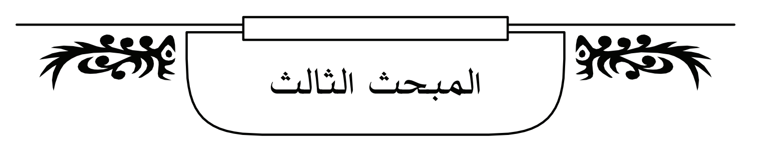
وقد يُجمَع بين الدلائل في جملةٍ واحدة.

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما ذَكَر دلائل الآفاق أولاً، ودلائل الأنفس ثانياً، ذكر لفظاً يتناول الكل فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾»[4]، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٩/ ١١٢.
(٢) ينظر: تفسير الرازي ٣٠/ ١٢٤.
(٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٥/ ٨٧، البحر المحيط ٧/ ١٥٩.
(٤) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ١٨٢.



المبحث الثالث

قرن بعض الأحكام ببعض

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: قرن بعض العبادات الشرعية ببعض.**
- **المطلب الثاني: قرن بعض الأحكام بما يحث على فعلها.**

المطلب الأول

قرن بعض العبادات الشرعية ببعض

مَن تدبر كتاب الله تعالى رأى اقتران بعض العبادات ببعض في آيات كثيرة، ومنها ما هو اقتران في آية واحدة، ومنها ما هو في سياق واحد من الآيات.

ومن أمثلة ذلك:

❐ أولاً: الصلاة والزكاة:

قرنت الصلاة بأعمال صالحة كثيرة.

قال ابن تيمية عن الصلاة: «وهي المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، إلى

قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]»[1].

وأكثر ما اقترنت عبادة الصلاة في كتاب الله تعالى بعبادة الزكاة.

قال الجاحظ: «وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل: الصلاة والزكاة»[2].

وقال الرازي: «كلما ذكر الصلاة في كتابه ذكر الزكاة بعدها»[3].

وقال ابن تيمية: «وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً»[4].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

قال ابن جزي: «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال: الزكاة؛ لاقترانها مع الصلاة، والثاني: أنه التطوع، والثالث: العموم، وهو الأرجح لأنه لا دليل على التخصيص»[5].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة].

فهذا الاقتران في الألفاظ يدل على الاقتران في الأهمية، حيث يقترنان في الأمر بهما تارة، وفي بيان جزائهما أخرى، وفي مدح من اتصف بهما ثالثة، إلى غير ذلك.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].

قال أبو السعود: «﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على فاعفوا[6]،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٧٠.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٧.
(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٢٤٧.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.
(٥) التسهيل ١/ ٧٠.
(٦) قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا =

أُمِروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: «كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة، وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

فجعل سبحانه سبيل العفو عنهم، وترك رصدهم في الطرق، بالتوبة عن الشرك، ويحصل بالإيمان، وتصديق هذا الإيمان بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فهما شرط في كف القتال عنهم إذا آمنوا؛ لأنهم صاروا إخواناً كما في الآية

= مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٧٣.

التالية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة: ١١][(١)].

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والأسر والحصر، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات؛ لكونهما رأسي العبادات البدنية والمالية»[(٢)].

وقال السعدي: «وفي هذه الآية، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج].

قال الطبري: «ويعني بقوله: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنْ وطَّنَّا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، يقول: إن نصرناهم على أعدائهم وقهروا مشركي مكة، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة بحدودها، وآتوا الزكاة؛ يقول: وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها الله له»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديدٍ لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ [الشورى].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/١٥٢، تفسير ابن كثير ٤/١١٢، التحرير والتنوير ١٠/١١٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/٤٤.
(٣) تفسير السعدي ٣٢٩.
(٤) تفسير الطبري ١٨/٦٥١.
(٥) التحرير والتنوير ١٧/٢٨٠.

في الآيات قبلها بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع قليل لهما، فإذا صارا إلى الآخرة كان ما عند الله خير للمؤمن؛ حيث يقول تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى].

ثم بيَّن تعالى أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته، ومنها: إقامة الصلاة، وعدم العجلة بالتشاور في الرأي، والقيام بالنفقة الواجبة والمستحبة[(١)].

وقال السعدي: «﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة].

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك، فأدّوا فرائض الله التي أوجبها عليكم، ولم يضعها عنكم من الصلاة والزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه»[(٣)].

وقال السعدي: «﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ١٩٧.
(٢) تفسير السعدي ٧٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٥١.

وهاتان العبادتان هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، ولهذا قال بعده: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

قال البيضاوي: «﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت، أو من متاع الدنيا»[2].

وبعدُ؛ فعند تأمل كَثْرة اقتران الصلاة والزكاة في كتاب الله تعالى؛ يظهر ـ والله أعلم ـ أن من أسباب ذلك:

١ ـ أن الصلاة والزكاة هما أُم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، فالصلاة عبادة جسدية، وفيها تطهير النفس، والزكاة عبادة مالية وفيها تطهير المال، والصلاة حق للمعبود على عبيده، والزكاة حق للفقراء على الأغنياء، ففيهما جِماع معاني العبادات، وكلُ إنسان يحتاج إليهما لتطهير نفسه بالصلاة، وماله بالزكاة، والصلاةُ واجبة على الجميع، والمال يحتاج إليه الجميع، ولذا وجبت زكاة المال، ومن لا يملك مالاً فله حقٌّ في مال غيره.

٢ ـ وأن من أقام الصلاة على الوجه الذي طُلب منه، فلا يمكن أن يمنع الزكاة.

٣ ـ وأن الصلاة فيها تكميل النفس، والزكاة فيها تكميل الغير.

وهما مما شرعه الله على من قبلنا كما قال تعالى في إسماعيل عليه السلام:

---

(١) تفسير السعدي ٨٤٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/٤٠٩.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم].

ومن لطائف قرن الزكاة بالصلاة ما جاء في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور]، مع أن الزكاة لا تفعل في المساجد، ولكن لكونها قرينة لا تفارق إقامة الصلاة في عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك خوفهم ليس مقصوراً على كونهم في المساجد(١).

ولفضل الصلاة والزكاة وشرفهما خصهما سبحانه بالذكر بعد أمره بعبادته في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة]، ولكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين(٢).

قال البيضاوي: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما(٣) على سائر الأعمال الصالحة»(٤).

❑ ثانياً: اقتران الصلاة والصبر:

جاء اقتران الصلاة بالصبر في مواضع كثيرة في كتاب الله.

قال ابن تيمية: «يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]،

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٨/ ١٧٨. (٢) ينظر: تفسير السعدي ٨٦١.

(٣) لعلها من اسْتَأنف الشيء وأْتَنَفَه إذا أخذ أوله وابتداءه، لسان العرب ٩/ ١٢، فالصلاة والزكاة هما أساس الأعمال وأولها.

(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٥٧٦.

وكذلك في سورة ق: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]»[١].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية حث على تحمل مصائب الدنيا والاستعانة على جميع المطالب بالصبر والصلاة، فبهما يسهل على العبد القيام بالطاعات، وترك المحرمات، وتخف الكريهات، وبيَّن سبحانه أنه لا يوفق إلى الاستعانة بهما إلا الخاشعون[٢].

قال ابن كثير: «لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «**عجباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له**»[٣].

وبيَّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]»[٤].

ـ وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦١.

(٢) ينظر: التسهيل ١/ ٩٠، القواعد الحسان ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ٤/ ٢٢٩٥، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، بلفظ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٦.

وهنا ختم الآية بغير ما ختم به الأولى، وفي كلٍّ مراعاة سياق الآية.

ففي الآية الأولى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، إشارة إلى التثاقل والتكاسل ممن قل عنده الإخلاص، وضعف لديه اليقين، وذلك مناسب لحال بني إسرائيل الذين تتحدث عنهم الآيات قبل، كما أخبر تعالى عن حال المنافقين وأكثرهم من يهود: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما الآية الثانية فالنداء فيها للمؤمنين، وحالهُم حالُ رِضَى واستقامة؛ فناسب وصفُهم بالصبر، إذ بالصبر على الطاعات حصول الدرجات.

فجاء ختام كل آية بما يناسب سياقها، والله أعلم بما أراد[(١)].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول: وأمر الناس بطاعة الله، واتباع أمره ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يقول: وانه الناس عن معاصي الله ومواقعة محارمه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقول: واصبر على ما أصابك من الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر»[(٢)].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

قال ابن تيمية: «وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

---

(١) ينظر: ملاك التأويل ١/ ٣٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٤٢، وينظر: تفسير القرطبي ١٤/ ٦٨، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٨.

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، فهذه مواضع قَرَنَ فيها الصلاة والصبر»[1].

ومن أوجه المناسبة لاقتران الصبر والصلاة:

١ ـ أن الصلاة وغيرها من العبادات تحتاج إلى صبر، كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، فاقترانهما لأن أحدهما يعين على الآخر.

قال ابن القيم: «قرن سبحانه الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها.

فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم: ٥]، وجعله قرين الحق كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وجعله قرين الرحمة كقوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وجعله سبب محبته ومعيته، ونصره وعونه، وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً، والله أعلم»[2].

٢ ـ أنه يكتنف إقامةَ الصلاة جميعُ أنواع الصبر، فمَن أقامها كاملةً فقد جمع الصبر بأنواعه، ولذا قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، فاستعمل القرآن صيغة

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٥.
(٢) عدة الصابرين ٦١.

المبالغة في الفعل، وزيادة المبنى في العادة تدل على زيادة المعنى.

وفي أمْر الرسول ﷺ بالاصطبار عليها أمر بالمداومة، وفيه أشارة إلى أن في رعاية العبادة حق الرعاية مشقة على النفس، وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ﴾ [طه: ١٣٢]، دفعٌ لما قد يخطر ببال أحدٍ من أن المداومة على الصلاة رُبما تضُر بالمعاش، فكأنه قيل: داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها إذ لا نكلفكم رزق أنفسكم نحن نرزقكم، وفيه إشعار بأن الصلاة سبب لزيادة الرزق وزوال الهم(١).

٣ ـ أن الصبر والصلاة مما يُستعان بهما على النوائب والمصائب وتحمُّل الشدائد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة].

٤ ـ أن الصلاة نور والصبر ضياء، فاجتمع فيهما معنى النور، كما قال ﷺ: «**والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء**»(٢).

قال ابن رجب: «فهذه الأنواع الثلاثة من الأعمال أنوار كلُّها، لكن منها ما يختص بنوع من أنواع النور، فالصلاة نور مطلق، وأما الصبر فإنه ضياء والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض، فيه إشراق بغير إحراق، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]»(٣).

وهذه المناسبة في الشمس والقمر جعلتهما متكاملين، وهكذا في الصلاة والصبر، فالصلاة نور مطلق، وفيها راحة النفس، وقرة العين، وأما الصبر فضياء فيه نوع حرارة، فهو نور لقلب المؤمن عند صبره على الطاعات وعن المحرمات وعلى البلايا والملمات، وفي الصبر عواقب حميدة في الدنيا

(١) ينظر: روح المعاني ١٦/ ٢٨٥.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣) ١/ ٢٠٣، كتاب الطهارة باب فضل الوضوء، من حديث أبي مالك الأشعري.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٦٥.

والآخرة لمن أخلص نيته لله تعالى، وفيه حرارة بسبب منع النفس عما ترغب، وحبسها على ما تكره، وحرارة الصبر تذهبه راحة الصلاة، فيحصل النور الكامل لمن صلى وصبر.

٥ ـ أنه باجتماع هذه العبادات صلاح الخلق أجمع.

قال ابن تيمية: «فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية؛ إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة.

يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج، وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر»(١).

❑ ثالثاً: اقتران عبادة الله وبر الوالدين:

قَرَن الله تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين في كتابه، ومن هذه الآيات ما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة].

فهنا قرن تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، وفيه التأكيد على أهميته ووجوبه.

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يدل على تأكيد حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما كافرين كانا أو مؤمنين؛ لأنه قرنه إلى الأمر بعبادته تعالى»(٢).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأمرناهم بالوالدين إحساناً، وقرن الله ﷿ في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد؛ لأن

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٦٢.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٤٧.

النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني ـ وهو التربية ـ من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]»[١].

وقال ابن كثير: «يُذكّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء] إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

في هذه الآية قرن تعالى الإحسان إلى الوالدين بأعظم أمر، وأعظم نهي، وهذا دليل على عِظَم هذا الحق.

قال السمرقندي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إلى الوالدين؛ يعني: براً بهما وعطفاً عليهما، وفي هذه الآية: بيان حُرْمَة الوالدين؛ لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه، ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث، لا يقبل

(١) تفسير القرطبي ٢/١٣.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣١٦.

إحداها بدون الأخرى، إحداها: قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، والثانية: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والثالثة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وغيرها»(١).

قال الجصاص: «قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقرن تعالى ذكره إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده، وأمر به كما أمر بهما، كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: ﴿اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، وكفى بذلك دلالة على تعظيم حقهما، ووجوب برهما والإحسان إليهما»(٢).

وقال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرنُ الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

قال القرطبي: «أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]»(٤).

وقال ابن كثير: «والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿...أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي

(١) تفسير السمرقندي ١/٩٦.
(٢) أحكام القرآن ٣/١٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/٢٣٨.

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]، والآيات في هذا كثيرة»(١).

وقال في تفسير آية لقمان: «ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن»(٢).

وهو كذلك فالأمثلة كثيرة، بل لا تكاد تجد الحث على بر الوالدين أو التحذير من عقوقهما إلا وقبلها أو بعدها الحديث عن عبادة الله وتوحيده أو النهي عن الشرك.

وعند التماس المناسبة في هذا الاقتران، تبين لي من الأوجه ما يلي:

١ ـ أن سبب وجود الإنسان الحقيقي هو إيجاد الله تعالى له، والسبب الظاهري لوجوده والداه، فأمر بتعظيم الموجد الأول، ثم قرنه بمن كان سبباً في وجوده ظاهراً، فالمناسبة في الإيجاد.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين، وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري»(٣).

٢ ـ أن الله أمر بتعظيم حقه تعالى، وأمر بتعظيم حقوق المخلوقين، وأحق الناس بذلك الوالدان، ففيه تأكيد الوجوب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٦.
(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٧.

قال القرطبي: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فقد قرن بين عبادته وبين الإحسان للوالدين في الوجوب»(١).

٣ ـ أن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى فوجب شكره عليها، وأعظم منعم على الإنسان بعد ربه والداه، ولذا جاء اقتران شكره تعالى بشكر الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]، وأحق الناس بالشكر بعد الله هما الوالدان.

قال الرازي: «ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإلٰه الخالق نعمة الوالدين»(٢).

٤ ـ تربية النفس على الوفاء بالحق لله تعالى، والوفاء بالحق لعموم الخلق، والتأكيد لأول وأولى الحقوق وهو حق الوالدين.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]؛ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين»(٣).

كما أوصى الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف].

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/١٤٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/٢٢٩.

وقبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة»(١).

❏ رابعاً: اقتران عبادة الله والتوكل:

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]»(٢).

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته فعليه توكلوا، يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه، ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا»(٣).

وقال السعدي: «﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٨.
(٣) تفسير الطبري ١٥/ ١٦٨.
(٤) تفسير السعدي ٣٧١.

تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة].

بيَّن تعالى أنه هو الكافي لعبده، لا معبود بحق إلا هو، وربط بهذه الشهادة التوكل عليه فهو الكافي، وختم الآية بأنه رب العرش العظيم، الذي يملك كلَّ ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده(١).

وقال السعدي: «﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله كافيَّ في جميع ما أهمني، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود].

أمر الله تعالى بعبادته ثم ذكر التوكل على وجه الخصوص؛ لتأكيده وبيان أهميته، وأن التوكل هو وظيفة الإيمان.

قال أبو السعود: «﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ فإنه كافيك، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل، على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار؛ لأنه لا ينفع دونها»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد].

أمر الله نبيه ﷺ بالتصريح بالدين والإفصاح في الدعوة في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، والمتاب: المرجع كالمآب لأن التوبة الرجوع(٤).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٤/٥٨٧، وتفسير ابن كثير ٤/٢٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٣٥٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٩.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٣/٣١٦.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلـٰهية، هو ربي لا إلـٰه إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: في جميع أموري»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

قال الطبري: «وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يقول: إلى الله أفوض أمري، فإنه ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾، وإليه أُقبِل بالطاعة، وأرْجِع بالتوبة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]؛ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إلـٰه إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٠.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٢٥٥.

ومن أوجه مناسبة اقتران التوكل بالعبادة:

١ ـ أنهما الجامعان للدين كله.

قال ابن تيمية: «فهو جَمَع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع؛ لأن هذين يجمعان الدين كله»(١).

٢ ـ أن المستحق للعبادة والتوكل هو الله وحده.

قال ابن كثير: «﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؛ أي: أطلب ربّاً سواه، وهو رب كل شيء، يَرُبّنِي ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري؛ أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل]، وأشباه ذلك من الآيات»(٢).

٣ ـ أن من أراد تحقيق العبودية لله تعالى، فلا يستغني عن التوكل على الله تعالى، فهو الموفق وهو المعين، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

٤ ـ أن اجتماعهما يفيد معنى زائداً على إفراد واحد منهما في موضع دون الآخر.

قال السعدي: «إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣.

ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها»[(١)].

فقد جاء التوكل على الله تعالى في القرآن أمراً للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وأمْراً للناس على ألسن الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ [يونس]، وجعله الله من صفات الرسل، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨]، وجعله من صفات المؤمنين الصادقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، وبيَّن فضائله وآثاره، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطَّلاق: ٣]، فصار التوكل عند الإطلاق دالاً على العبادة، وعند إطلاق العبادة دليل عليه، وعند اقترانهما تأكيد وزيادة كمال في العبادة.

قال الغزالي[(٢)]: «وكل ما ذُكِر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهَّار»[(٣)].

وأختِم بقول ابن القيم: «وهذان الأصلان وهما التوكل والعبادة قد ذُكرا

---

(١) القواعد الحسان ٣٨.

(٢) هو: محمد بن محمد الطوسي الغزالي الشافعي، أبو حامد، فقيه أصولي متكلم، له نحو ٢٠٠ مصنف، من أشهر مصنفاته: «إحياء علوم الدين»، «ياقوت التأويل في تفسير التنزيل»، و«المستصفى من علم الأصول»، و«الاقتصاد في العلوم»، و«المنقذ من الضلال»، مات سنة (٥٠٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٧٥، شذرات الذهب ٤/ ١٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٤.

في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها هذا أحدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: إياك نعبد وإياك نستعين»(١).

والله تعالى أعلم.

❑ خامساً: اقتران الإيمان والعمل الصالح:

قرَن الله تعالى في كتابه بين الإيمان والعمل الصالح في أكثر من ثمانين موضعاً؛ وذلك لأن الإيمان لا يكتمل بلا عمل صالح، والعمل لا يكون صالحاً بلا إيمان.

قال ابن عاشور: «وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم]»(٢).

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١١٧.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [فاطر].

ونستفيد من هذه العادة الواضحة في كتاب الله تعالى ما يلي:

١ ـ أن اقتران الإيمان والعمل الصالح كثيراً يدل على الأهمية الكبيرة التي يولِيها القرآن لهذه المسألة، والتي تعتبر القاعدة الأساسية في سعادة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

فأخبر جل وعلا ووعد من جَمَع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة، والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

٢ ـ التأكيد على تلازم الإيمان والعمل الصالح، فالعمل الصالح مصدق للإيمان، والإيمان لازم لقبول العمل الصالح.

فلأن الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، والعمل الصالح يؤكد الإيمان ويدعمه ويقويه، اقترنا في القرآن كثيراً.

ومن أقرب ما يدل على هذا التلازم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]؛ لأنها في سياق الرد على من تسمى بالإيمان بالقول، دون إصلاح العمل، حيث قال تعالى قبلها: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء]، وقال بعدها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[(١)].

٣ ـ أن اجتماع الإيمان والعمل الصالح هو الذي يترتب عليه الفوز الكبير والجزاء العظيم، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٨٠ (٦٦).

٤ ـ أن العمل الصالح جزء من الإيمان، وذكره مقترناً به؛ لزيادة البيان وكمال الإيمان.

قال السعدي: «والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية»[١].

٥ ـ أكثر مواضع اقتران الإيمان والعمل الصالح جاء بتقديم الإيمان على العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه]، لكن تقديم العمل الصالح في بعض المواضع أدل على التلازم، كما قال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه]، فهذا دليل على أنه لا يُقبل العمل الصالح بلا إيمان، ولا الإيمان بلا عمل صالح.

وتقديم الإيمان في أكثر المواضع؛ لأن المراد به قول القلب وعمله، وهو الأصل.

وإذا قُدم عملٌ على الإيمان دلَّ على أهميته من بين أعمال الإيمان حسب السياق، كما قدم الله سبحانه الشكر على الإيمان في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

قال البغوي: «﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾؛ أي: إن شكرتم نعماءه، ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به، فيه تقديم وتأخير؛ لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان»[٢].

قال البيضاوي: «وإنما قدم الشكر؛ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به»[٣].

وقدم جل وعلا الصلاة والزكاة على الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى

(١) القواعد الحسان ٣٧.
(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٠٣.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٢.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢].

قال أبو السعود: «وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ مع كونهما من الفروع المترتبة عليه ـ لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام»[(١)].

المطلب الثاني

قرن الأحكام بما يحث على فعلها

جاء في كتاب الله تعالى الاقتران بين الأمر بالشيء وما يحث على فعله، والنهي عن الشيء وما يحث على تركه.

قال السعدي: «قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [لقمان: ٢]، يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته»[(٢)].

وفي كل أوامر القرآن ونواهيه جَلْبُ الخير للخلق ودفع الشر عنهم، وذكر الفوائد العاجلة والآجلة للقيام بالأوامر، وذكر المحاذير من فعل النواهي، مما يحث على الفعل أو الترك، وقد أولى القرآن هذه المعاني عناية تامة، فقَرَن الله تعالى بين الحُكم ومعَان تَحُث على فعله أو تركه، والإنسان مأمورٌ بالامتثال المطلَق، سواء عرف الحِكْمة من الأوامر والنواهي أو خفيت عليه، ولكن عادةُ القرآن ذِكرُ بعضِ الحِكَم والثمرات لامتثال أحكام القرآن فعلاً أو تركاً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ١٥، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٧.
(٢) تفسير السعدي ٦٤٦.

ومن الأحكام التي اقترن بها ما يحث على فعلها:

❐ أولاً: قرن الأمر بإقامة الصلاة بما يحث على فعلها:

فقد أمر الله بإقامة الصلاة في مواضع كثيرة، وقرَن بها ما يحث على فعلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

قال ابن كثير: «الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]»[(١)].

وقال السعدي عن إقامة الصلاة: «فهده الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها»[(٢)].

- وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون]، إلى قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

قال البيضاوي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها[(٣)] حيث فوتوها على أنفسهم؛ لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٢. (٢) تفسير السعدي ٤٠.

(٣) هذا قول الفراء والسمرقندي. ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٣٠، تفسير السمرقندي ٢/ ٤٧٤.

في الجنة ومنزلاً في النار[(١)]»[(٢)].

وقال السعدي: «﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ سواءً.

ولهذا قال هناك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال هاهنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسار»[(٤)].

وجاء الوعيد على من تركها، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم].

ومعنى إضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وقيل: تركوها.

قال ابن جزي: «أضاعوا الصلاة، قيل: تركوها، وقيل: أخرجوها عن

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٥٣ (٤٣٤١) وهو آخر حديث فيه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة، وقال الألباني: صحيح، في صحيح سنن ابن ماجه ٣/٤١١ (٣٥١٩)، وينظر: السلسلة الصحيحة ٥/٣٤٨ (٢٢٧٩).

(٢) تفسير البيضاوي ٤/١٤٨، وينظر: تفسير الرازي ٢٣/٧٢، تفسير القرطبي ١٢/١٠٨، روح المعاني ١٨/١٢.

(٣) تفسير السعدي ٥٤٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٨/٢٢٧.

أوقاتها، ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ الغي: الخسران»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدَّثر].

فأول ما ذَكروا مما عُذِّبوا عليه ترك الصلاة.

قال الطبري: «﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ يقول: قال المجرمون لهم: لم نك في الدنيا من المصلين لله»[٢].

❏ ثانياً: قرن النفقة بما يحث عليها:

اقترن بالزكاة في القرآن ما يحث على فعلها، واجبها ونفلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف].

فجعل من ثمارها الفوز بالقرب من رحمة الله.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ [الحديد].

بيَّن سبحانه أن الصدقة تضاعف إلى أضعاف كثيرة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن].

قال ابن كثير: «﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه»[٣].

---

(١) التسهيل ٢/ ١٦١.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ١٤١.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل].

قال أبو السعود: «فسنُهَيئه للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة ومباديه»(١).

وقال السعدي: «من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً»(٢).

فمن نعم الله تعالى على الخلق أن يسر لهم سبل الخير، وبين لهم الأجر والثواب الكبير عليها؛ ليكون معيناً على فعلها.

ومن عادة القرآن أنه كلما جاء ذمُّ الربا كان قبله أو بعده ذكر فضل الصدقة.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة].

قال ابن عاشور: «﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ﴾ استطراد لبيان عاقبة الصدقة في الدنيا، أيضاً ببيان أن المتصدق يفوز بالخير في الدارين، كما باء المرابي بالشر فيهما، فهذا وعد ووعيد دنيويان»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم].

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/١٦٦.
(٢) القواعد الحسان ١١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٣/٩١.

❏ ثالثاً: قرن بالصيام بما يحث على فعله:

فقد قرنه الله تعالى بالحكمة من فرضه، وما يحث على فعله:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة].

ففي الآيتان عدد من الأمور التي تحث على الصيام، وترغب فيه:

١ ـ أن فَرْض الصيام عليكم، كما فُرِض على من قبلكم، وفي هذا تسهيل لهم.

٢ ـ أن من ثمرات الصيام: تحقيق التقوى.

٣ ـ أن الصيام أياماً معدودات.

٤ ـ الرخصة للمعذور، وجواز تأخير الصيام إلى أيام أخر.

وهذا مما يرغب المسلم بهذه العبادة العظيمة، ويسهلها عليه.

❏ رابعاً: قرن بالحج بمنافعه حثاً على فعله:

قرن الله تعالى الحج بما يحث على فعله.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح والتجارات.

وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة؛ كقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤.

فمن ثمرات الحج تقوى القلوب، وفيه مراعاة ذكر الفضل حثاً على العمل.

قال السعدي: «فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»(١).

□ خامساً: اقتران ذكر القرآن بما يحث على العمل بما فيه:

جاء اقتران القرآن بذكر ما يحث على تلاوته، والعمل بما فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

بيَّن تعالى أن القرآن هداية للخلق، وفي كل زمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها، ويبشر بالأجر الكبير للمؤمنين العاملين للصالحات.

قال ابن كثير: «يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل»(٢).

قال السعدي: «القاعدة التاسعة والخمسون، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصاً صريحاً على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر].

قال الفراء: «وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ جواب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»(٤).

---

(١) تفسير السعدي ٥٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨.
(٣) القواعد الحسان ١٢٦.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٣٦٩.

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه، ويؤمنون به، ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ۝٣٤﴾ للقليل من أعمالهم»[1].

وكثرةُ أوصاف القرآن تدل على فضله وشرفه، والحث على القرب منه، ولذا حث الله على تدبر آياته؛ لأنه يوصل إلى العلم والعمل.

ـ كما قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٢٩﴾ [ص].

فالاستفادة الحقَّة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً.

وتيسير القرآن للناس من وسائل الترغيب في القيام بحقه، وعدم هجره.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر].

قال ابن عطية: «يسر بما فيه من حسن النظر وشرف المعاني، فله لَوْطة[2] بالقلوب وامتزاج بالعقول السليمة، وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس»[3].

وقال ابن جزي: «﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ وإنما كرر هذه الآية البليغة، وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾ [القمر: ٣٩]؛ لينبه السامع

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٢) قال ابن منظور: «والولد أَلوطُ؛ أي: أَلصَقُ بالقلب، وكذلك كل شيء لَصِق بشيء فقد لاطَ به يَلوط لَوْطاً ويَليطُ لَيْطاً ولِياطاً: إذا لَصِق به؛ أي: الولد أَلصق بالقلب، والكلمة واوية ويائية، وإني لأَجِدُ له لَوْطاً ولَوْطةً ولُوطةً». لسان العرب ٧/ ٣٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦.

عند كل قصة فيعتبر بها، إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر]، ومن الملاطفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]»(١).

❐ سادساً: قرن الاستغفار بالخير وسعة الرزق:

ـ كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وقوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، يقول تعالى ذكره للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت، وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وقال السعدي: «ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه، ما تتمتعون به وتنتفعون»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

ذكر الله تعالى في كتابه أسباب الرزق، وأهمها طاعة الله ورسوله، ولزوم التقوى، ومن ذلك كثرة الاستغفار، كما في هذه الآيات.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

قال الماوردي: «﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ وهذا فيه

---

(١) التسهيل ٣/ ١٠٦.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٢٩.
(٣) تفسير السعدي ٣٧٦.

ترغيب في التوبة»[١].

وقال ابن جزي: «﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار»[٢].

وقال السعدي: «﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى»[٣].

وفي هذه الآيات من فضائل الاستغفار المرغبة فيه:

١ ـ أنه طاعة لله ورسوله.

٢ ـ وأنه سبب لمغفرة الذنوب، ونزول الأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، ودخول الجنات، وزيادة القوة بكل معانيها، والمتاع الحسن، وإيتاء كل ذي فضل فضله.

❑ سابعاً: قرن الصبر بالجزاء العظيم:

ذُكِر الصبر في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى؛ لأهميته وعظمته وعظمة الصابرين، ولذا قرن الله تعالى بالصبر جزاءه العظيم حثاً عليه وترغيباً فيه.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص].

فبيَّن تعالى أن أجرهم مضاعف، وفيه الآية التالية أن هذا الأجر لا يحد، ولا يعلم قدر إلا الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمر: ١٠].

قال السعدي: «فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠١.
(٢) التسهيل ٣/ ٢٣٠.
(٣) القواعد الحسان ٤١.
(٤) تفسير السعدي ٧٢٠.

ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد].

فمن فضائل الاستغفار أن جعل الله الملائكة تسلم على المؤمنين بسبب صبرهم، وعاقبتهم حميدة فضلاً من الله ومنة.

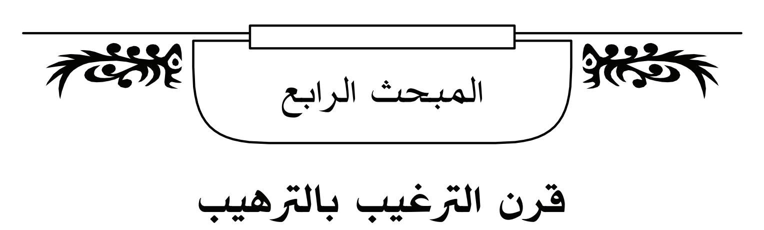
ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود].

فرتب سبحانه المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، مما يعين على القيام بها.

ـ وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون].

في هذه الآية جعَلَ الفوز يوم القيامة لمن صبر، وهذا فضل عظيم.

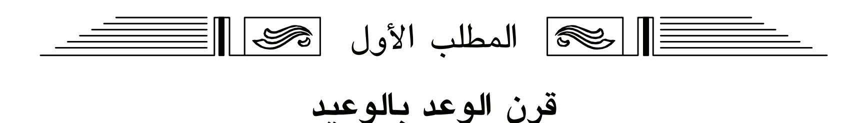
ومن هنا تظهر أهميةُ دراسة العلل الشرعية، والفضائل الإلٰهية، التي ذكرها الله تعالى في كتابه مقرونة بأوامره ونواهيه، ومعرفة طرائقها لإقناع النفس البشرية، واطمئنانها، وفيها إثبات إعجاز القرآن، وأنه من حكيم حميد.



قرن الترغيب بالترهيب

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: قرن الوعد بالوعيد.
- المطلب الثاني: تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله.



قرن الوعد بالوعيد

من عادات القرآن اقتران الوعد بالوعيد، فإذا جاءت آيةٌ في الوعيد، فإن قبلها أو بعدها آية في الوعد، وهذه قاعدة عظيمة في الوعظ، وهذا من أحسن ما تلين له القلوب، فالعاقل من يحدوه الخوف والطمع إلى الامتثال.

قال الرازي: «والحق أن القرآن بشارة ونذارة»[(١)].

وقال البيضاوي: «قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف] على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد»[(٢)].

وقال الشاطبي: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارَنَه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً؛ فهو راجع

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٨٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٢١.

إلى الترجية والتخويف»[١].

وقال أبو السعود: «جرت السُّنَّة الإلٰهية على شفع الوعد بالوعيد، مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد؛ من الترغيب تارة، والترهيب أخرى، والتبشير مرة، والإنذار أخرى»[٢].

وهذا هو منهج الرسل في دعوة أقوامهم.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾ [الكهف: ٥٦]، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام]»[٣].

ومن تتبع كتاب الله تعالى وجد هذا واضحاً من خلال آياته، ومن أمثلة ذلك:

❑ أولاً: قرن ذكر العذاب بذكر الرحمة:

- كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، لفظ عام في المال والقوة والجاه، وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك، وكل ذلك إنما هو ليختبر الله تعالى الخلق فيرى المحسن من المسيء، ولما أخبر ﷻ بهذا ففسح للناس ميدان العمل وحضهم على الاستباق إلى الخير توعد ووعد تخويفاً منه وترجية، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعُ﴾ لما كان متحققاً

(١) الموافقات ٤/ ١٦٧.
(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٢.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٠٦.

مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب، ويوصف به ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ ترجية لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله كثير: اقتران الوعيد بالوعد لطفاً من الله تعالى بعباده»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين إثر شرح حال الكفرة، حسبما جرت به سُنَّة التنزيل: من شفع الوعد بالوعيد، وإيراد الترغيب مع الترهيب»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام].

قال ابن كثير: «﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام]، يقول تعالى: فإن كذّبك ـ يا محمد ـ مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٨٧.

[الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج]، والآيات في هذا كثيرة جداً»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾، والغرض منه تأكيد الوعيد، ثم أتبع الوعيد بالوعد؛ فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾»(٢).

ثانياً: قرن ذكر الجنة بذكر النار.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة].

قال البيضاوي: «﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم، ووصف ثوابه على حال من كفر به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلٰهية: من أن يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٧.
(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٩.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٢٤١.

وقال أبو السعود: «عطف قصة المؤمنين بالقرآن، ووصف ثوابهم، على قصة الكافرين به، وكيفية عقابهم، جرياً على السُّنَّة الإلـٰهية: من شفع الترغيب بالترهيب، والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك؛ لتخييل كمال التباين بين حال الفريقين»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

قال ابن كثير: «وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

في هذه الآية قَرَن بين وصف الجنة ووصف النار، والتقدير: هل كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟[٣].

قال مكي: «﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ماكث أبداً في جهنم؛ أي: هل يستوي من هو في هذه الجنات والأنهار التي تقدم وصفها مع من هو ماكث في نار جهنم؟»[٤].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء؛ أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ١/٦٨، وينظر: روح المعاني ١/٢٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٦٦.
(٣) ينظر: تفسير البغوي ٧/٢٨٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/٦٨٩٩.

ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

بعد ذكر هذا العذاب الشديد في النار، أعقبه بذكر الرحمة والنعيم في الجنة حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج].

قال القرطبي: «لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد].

قال النحاس: «فلما أخبر بولايته المؤمنين، وخذلانه الكافرين، أعلم بما أعده للمؤمنين والكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: منْزِل لهم، ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾»[٣].

ومن الحكم في قرن الوعد بالوعيد:

١ ـ أن قرن الوعد بالوعيد أدعى للتأثر والقبول، وأعون على الطاعة، وترك المعصية.

٢ ـ أن هذا ما يوافق النفس البشرية، من الخوف من الوعيد، والرغبة في الوعد، فيجتمع في آن واحد: معالجة المسيء، ورده عن خطئه، وتثبيت المحسن، والزيادة في إحسانه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣١٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١.
(٣) معاني القرآن ٦/ ٤٧٠.

قال البيضاوي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢] اتبع الوعيد بالوعد: ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطاعة»(١).

٣ ـ أن اجتماع الوعد والوعيد مما يُلَيِّن القلوب، وهو الطريق للوعظ المفيد، فإذا جاءت هذه الموعظة بهذه الطريقة قبِلَت القلوب وامتَثَلت.

قال البقاعي: «ولِوصْف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث، ولوصف الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم، والحتم لعقابهم؛ ليعلم أن ما اتصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيُلزَم، وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيُترَك، . . فلما تم ذلك، وكان المقصود منه الدعاء إلى الله، انتهزت تلك الفرصة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، لما أسس لها من الترغيب بالترهيب»(٢).

٤ ـ أن الاقتصار على أحد الأسلوبين قد يحرف عن الطريق المستقيم، فالاقتصار على الوعد سبيل التواكل والتمادي في العصيان، وترك التوبة، والاقتصار على الوعيد سبيل اليأس والقنوط من رحمة الله، وكلاهما غير مقصود، لكن يغلب أحد الأسلوبين بحسب السياق ومقتضى الحال، ففي مواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية؛ لأن درء المفاسد آكد، وففي مواطن القنوط ومظنته يتسع مجال الترجية والترغيب(٣).

٥ ـ أن الاقتران يكون في آية واحدة، ويكون في آيات متعددة لكنها في سياق واحد، لتدل على ترابط القرآن، واكتمال الحق فيه والبيان، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

تهديد المخاطبين وترغيبهم بذكر صفات الله

ومن عادات القرآن ذكر أسماء الله تعالى وصفاته في أسلوب الترغيب أو الترهيب.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٩١، وينظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٨٥، روح المعاني ٤/ ٥٦.
(٢) نظم الدرر ١/ ٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ١٧٠، وقد أجاب الشاطبي على كل اعتراض يزعم عدم اطراد هذه الكلية.

قال ابن القيم: «جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة؛ كقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء]، والقرآن الكريم مملوء من هذا»[1].

ومن الأمثلة على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة].

فرب العالمين فيها معنى الترهيب، وبعدها الرحمٰن الرحيم فيها معنى الترغيب، وهذه معان مستفادة من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة]، وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، بأنه: ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ ترهيب قرنه بـ ﴿...ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾؛ لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع»[2].

وقال القاسمي: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ٣]، إيرادهما عقب وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذي هو أسلوب التنزيل الحكيم»[3].

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة]، بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]، من باب قرن الترغيب بالترهيب كما دل السياق.

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فالرب هنا فيه معنى الترهيب، والغفور الرحيم فيه معنى الترغيب.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٨١.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٩.
(٣) تفسير القاسمي ١/ ٢٢٧.

قال ابن جزي: «﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٥﴾ جمع بين التخويف والترجية»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:].

فالبطش: هو الأخذ بقوة(٢)، وحيث وُصِف بالشدة فمعناه الزيادة في الغلظة، وفيه معنى شدة العقاب للجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام، مما يرهب من العصيان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾؛ أي: يُبدىء البطش ويعيده؛ يعني: يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة، أو دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا»(٣).

ثم أعقبه باسم الغفور وقرنه باسم الودود(٤)، وفيهما معنى الوعد بالستر والمحبة والرضوان مما يرغب بالقرب من الرحمٰن.

قال ابن القيم: «وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»(٥).

وقال السعدي: «وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم»(٦).

---

(١) التسهيل ١/ ٣٨٩.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٣٣، وينظر: التسهيل ٣/ ٣٠٦.
(٤) الودود: هو المحب المحبوب. ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي ٨٧.
(٥) التبيان ٦٠.
(٦) تفسير السعدي ٩١٨.

وقد سبقت عادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد، وهذه أمثلة أخصّ إذ هي في أسماء الله وصفاته.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

فاقتران السميع بالعليم في هذه الآية يحمل معنى التهديد والوعيد لأعداء الله، فالله ﷻ هو السامع لأقوالهم، العليم بأفعالهم.

قال الطبري: «فإن الله هو السميع لما يقولون لك بألسنتهم، ويبدون لك بأفواههم، من الجهل والدعاء إلى الكفر والملل الضّالة العليمُ بما يُبطنون لك ولأصحابك المؤمنين في أنفسهم من الحَسد والبغضاء.

ففَعَل الله بهم ذلك عَاجلاً وأنجزَ وَعْده، فكفى نبيّه ﷺ بتسليطه إيّاه عليهم، حتى قتل بعضهم، وأجلَى بعضاً، وأذلّ بعضاً وأخزاه بالجزية والصَّغار»[(١)].

ومن اتصف بالسمع والعلم فهو القادر على صرف شرهم.

قال السعدي: «ولهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم؛ لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك كفاك الله شرهم»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ١٨١].

فالسميع العليم فيه معنى التهديد والوعيد لمن بدل الوصية.

قال القرطبي: «صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شيء من جَنَف الموصين وتبديل المعتدين»[(٣)].

وقال السعدي: «وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٣/١١٦.
(٢) تفسير السعدي ٦٨.
(٣) تفسير القرطبي ٢/٢٦٩.
(٤) تفسير السعدي ٨٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة].

فختام الآية بهذين الاسمين فيه معنى التهديد والوعيد لمن عدل عن الحق بعد ما تبين له، فإن العزيز الحكيم إذا عصاه العاصي عن علم، قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

قال ابن جزي: «﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ تهديد لمن زلَّ بعد البيان»(١).

وقال السعدي: «وفيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي، قهَرَه بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته، تعذيب العصاة والجناة»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة].

ففي ختام هذه الآية بهذين الاسمين التهديد لمن جعل الحلف مانعاً له من الخير.

قال الطبري: «وهذا من الله تعالى ذكره تهدُّدٌ ووعيد»(٣).

وقال السعدي: «فختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة].

وفي هذين الاسمين من أسماء الله تعالى معنى التهديد والوعيد لمن امتنع عن الرجوع من أجل المضارة والمشاقة للزوجة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦]، ففي ختام الآية بالاسمين ـ

(١) التسهيل ١/١٤٣.
(٢) تفسير السعدي ٩٤.
(٣) تفسير الطبري ٤/٤٢٧.
(٤) تفسير السعدي ١٠٠.

الغفور الرحيم ـ الترغيب بالفيء؛ لأن ذلك مقام إنابة ورجوع إلى طاعة الله ﷻ فيما أمر به من المعاشرة بالمعروف.

قال السعدي: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ فيه وعيد وتهديد، لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة].

في ختام الآية بهذين الاسمين تهديد ووعيد لمن خالف شرع الله.

قال الطبري: «﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء»(٢).

وهكذا فسَّر الطبريُّ العزيزَ في جميع المواضع، كما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران].

(ويعني بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهاً غيرَه، أو عبد ربّاً سواه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره، لا يدخل ما دبَّره وَهَنٌ، ولا يلحقُه خللٌ»(٣).

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء]: «﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به من خلقه»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان].

ففي هذين الاسمين معنى الترهيب والترغيب.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُخان]؛ أي: المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ

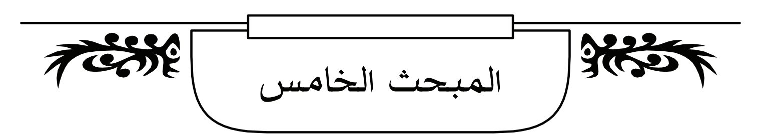
---

(١) تفسير السعدي ١٠١.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٦١.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٨٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٧٦.

﴿ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد»[١].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تجعل مِن تأمل أسماء الله تعالى وصفاته في القرآن معنى آخر، ودلالة على الدقة في الألفاظ، والإعجاز فيها وفي المعاني، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٤٨.



ما يُضاف إلى الله من الخير والشر

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: إضافة الخير إلى الله دون الشر.
- المطلب الثاني: ذكر سبب العقاب.

المطلب الأول

إضافة الخير إلى الله دون الشر

من عادات القرآن التربية على الأدب مع الله تعالى، بإضافة الخير إليه دون الشر في الخطاب وغيره، مع أن الكل بيده سبحانه.

فما قدره الله سبحانه خيرٌ كلُّه والشر ليس إلى الله، فالله هو الذي قدّر هذه الأقدار، والخير كله فيما أذن الله تعالى فيه، وما قد يُتصور من شر فليس بشر من كل وجه، وإنما هو شر في وقت دون وقت، أو في حال دون حال، أو في عين دون أخرى، فللَّه في أمره وخلقه حِكَم وأسرار.

كما قال ﷺ في استفتاح صلاة الليل: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»(١).

فالله عز وجل هو الخالق للحسنة والسيئة ومقدرُ وجودِها، كما في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أما من ناحية نسبة كل منهما إلى من أرشد إليها ودل عليها؛ فإن الله عز وجل قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٣٨٢ (٣٣٤٨)، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه مسلم ١/ ٥٣٤ (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: أن الله ﷻ هو الذي هداك وأرشدك ووفقك للحسنة تفضلاً منه ومنّة، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته عوقبت عليه[١].

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾: ما يصيبك يا محمد من رخاء ونعمة وعافية وسلامة، فمن فضل الله عليك، يتفضل به عليك إحساناً منه إليك، وأما قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك؛ يعني: بذنب استوجبتها به، اكتسبته نفسك»[٢].

ومثله قال ابن كثير وزاد: «كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]»[٣].

وقال الماوردي: «وفي الحسنة والسيئة ها هنا ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الحسنة النعمة في الدين والدنيا، والسيئة المصيبة في الدين والدنيا[٤]، وهذا قول بعض البصريين.

والثاني: أن الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أُحد من شج رأسه وكسر رباعيته، وهو قول ابن عباس[٥]، والحسن.

والثالث: أن الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، وهذا قول أبي العالية[٦].

قوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ قولان: أحدهما: يعني فبذنبك[٧]، والثاني: فبفعلك»[٨].

وقال ابن تيمية: «وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي ٥/ ٢٨٥.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٣.
(٤) رواه الطبري عن قتادة ٨/ ٥٥٩.
(٥) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٨.
(٦) رواه عنه الطبري ٨/ ٥٥٩.
(٧) رواه الطبري عن السدي، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، تفسير الطبري ٨/ ٥٥٨، ٥٥٩، وينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٢٥.
(٨) النكت والعيون ١/ ٥٠٩.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؛ أي: ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك؛ وما أصابك من جدب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك؛ وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره»[(١)].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

فقال سبحانه: بيدك الخير، ولم يقل والشر وإن كانا جميعاً بيده، لكن الخير يضاف إلى الله تعالى إرادة محبة ورضا، والشر لا يضاف إلا إلى مفعولاته؛ لأنه لا يضاف إلى صفاته ولا أفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيه، وهذا معنى قوله: «**والشر ليس إليك**»[(٢)].

قال الشاطبي: «الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، إلى قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: بيدك الخير والشر، وإن كان قد ذكر القسمين معاً؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلى من لحق ذلك به شرٌّ ظاهر، نعم، قال في أثره: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، تنبيهاً في الجملة على أن الجميع خلقه»[(٣)].

وخلْقُ الله تعالى للأضداد والمتقابلات هو من كمال ربوبيته؛ كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم، والخير والشر، والنعيم والجحيم[(٤)].

والأمثلة الكثيرة من الآيات تبين غاية الأدب في نسبة الخير إلى الله دون الشر، ومنها:

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٢٤٢.
(٢) ينظر: البرهان ٤/ ٥٩.
(٣) الموافقات ٢/ ١٦٦.
(٤) ينظر: مدارج السالكين ١/ ١٢٨.

ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فنَسَبَ الإنعام إليه جل وعلا، وأما الغضب فنُسِب إلى ما لم يُسَمَّ فاعله.

قال ابن القيم: «الطريقة المعهودة في القرآن الكريم أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حُذِف، وبني الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله.

فمنه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾»(١).

وقال الزركشي: «التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله، وأن الكل بيده؛ كقوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ثم قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يقل غير الذين غضبت عليهم»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فلم يُذكر المزيِّن تعليماً للأدب مع الله تعالى؛ لأنه تزيين الشر.

وقال تعالى في تزيين الخير: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧].

قال الطبري: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني تعالى ذكره: زُيِّن للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين وسائر ما عدّ.

وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها، على أتباع محمد ﷺ بعد علمهم بصدقه»(٣).

وقال ابن جزي: «قيل: المزين هو الله، وقيل: الشيطان، ولا تعارض بينهما فتزيين الله بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلة على الميل إلى الدنيا،

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٥٦.
(٢) البرهان ٤/ ٥٩.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٤٣.

وتزيين الشيطان بالوسوسة والخديعة»(١).

وقال أبو السعود: «﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، وتزهيد للناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها»(٢).

فلم يُذكر الفاعل تأدباً مع الله تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء].

فأضاف النعمة إلى الله تعالى، ومسُّ الشر لغيره، وفيه تعليم الأدب مع المنعم جل وعلا.

قال أبو السعود: «﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف].

ـ مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

ففي الآية الأولى أسند ما ظاهره شر لنفسه.

وفي الآية الثانية أسند الخير إلى الله تعالى على سبيل الأدب مع الله تعالى.

---

(١) التسهيل ١/ ١٨٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٩١.

قال الزركشي تحت عنوان التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله: «وتأمل جواب الخضر ﷺ عما فعله حيث قال في إعابة السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، وفي إقامة الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾»(١).

وقال ابن عطية: «وإنما انفرد أولاً في الإرادة؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، وإنما قال الخضر في الثانية: فأردنا؛ لأنه أَمَل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين، وتمنى البديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى؛ لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل، غيب من الغيوب، فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده، فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر، والله أعلم»(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا﴾ [الكهف: ٨٢] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله»(٣).

وقال القرطبي: «أضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه»(٤).

ـ وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء].

فنسب المرض إلى نفسه، ولم يقل: أمرضني.

أما ما قبلها وبعدها(٥) فنسبه إلى رب العالمين؛ كالخلق، والهداية،

---

(١) البرهان ٤/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٦٧، وينظر: البرهان ٤/ ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩.

(٥) سياق الآيات قبلها وبعدها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

والإطعام، والسقي، والشفاء، والإماتة، والإحياء، وغفران الخطيئة[(١)].

قال ابن عطية: «تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ فأسند الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقصٍ ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصَّف: ٥]، وتقديم فعل الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة: ١١٨]»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ].

ففي هذة الآية مثال واضح للأدب مع الله تعالى حيث أضافوا الخير إلى الرب سبحانه، وحذفوا فاعل الشر تأدباً مع الله[(٣)].

قال أبو السعود: «﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: خيراً، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، ونظائره»[(٤)].

وقال السعدي: «قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ]؛ أي: لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق].

فنسب الشر هنا للمخلوق، ولم يقل: الشر الذي خلقه، فالنسبة إلى سبب الشر أدباً مع الخالق جل وعلا[(٦)].

---

(١) ينظر: الموافقات ٢/١٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/٥٦٧.
(٣) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥١٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٩/٤٤.
(٥) تفسير السعدي ٨٩٠.
(٦) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٥١٧.

قال مكي: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر كل ذي شر، أمر الله نبيه أن يتعوذ من شر كل ذي شر؛ لأن ما سواه ـ تعالى ذكره ـ مخلوق»[(١)].

وقال ابن القيم: «الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجني، وغير المكلف، مثل: الهوام وذوات الحُمَة وغيرها»[(٢)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر جميع المخلوقات»[(٣)].

إلى غير ذلك من الأمثلة في كتاب الله تعالى.

قال الزركشي: «وهذا النوع مطرد في فصاحة القرآن كثيراً»[(٤)]، والله تعالى أعلم.

وأختم بقول ابن تيمية: «وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه، ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه؛ وبهذا يظهر معنى قوله: «**والشر ليس إليك**»، وكون الشر لم يُضَف إلى الله وحده؛ بل إما بطريق العموم[(٥)]، أو يضاف إلى السبب[(٦)]، أو يحذف فاعله[(٧)]»[(٨)].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٥٠٨.
(٢) التفسير القيم ٥٤٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٥.
(٤) البرهان ٤/ ٦٠.
(٥) كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزُّمر: ٦٢].
(٦) كقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق].
(٧) كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجنّ].
(٨) مجموع الفتاوى ١٤/ ٢١.

وهذا هو منهج القرآن لمن تأمله وتدبره.

ويتفرع من هذه العادة ما هو أخص وهو إضافة الثواب إلى الله تعالى.

فإن الثواب من الخير، **ومن الأمثلة على هذا ما يلي:**

ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة].

وفي هذه الآية بيان فضل الصدقة حيث جعل ثوابها عنده جل وعلا.

قال السعدي: «وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «**إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم**»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

فبين جل وعلا أن ثوابهم عنده، وفيه إشارة إلى شرف هذه الحال، واستحقاقها الثواب العظيم، وأن ثوابهم عند الله وحده دون سواه.

قال ابن كثير: «فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) تفسير السعدي ٩٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩٣.

أي: أجاب الله دعاءهم، وبيَّن سبحانه أنه لا يضيع عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى، سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً ممن يملك الثواب، ويعطي على العمل القليل الثواب الكبير، وختم الآية بالتأكيد بأن الثواب من عند الله فقال: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥][1].

قال السمرقندي: «﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله تعالى»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه لِيدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جَزيلاً كثيراً»[3].

ـ ومثلها ما جاء بعدها في قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

الآية في النصارى الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]، ثم بيَّن تعالى أنه أثابهم على إيمانهم بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ﴾ دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم، فأجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم، وهكذا من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة»[4].

قال ابن كثير: «﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَٰلِكَ

(١) ينظر: تفسير السعدي ١٦٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩١.
(٤) تفسير القرطبي ٦/ ٢٦٠.

جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾؛ أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان»(١).

وقال البقاعي: «ولما ذكر قولهم الدال على حسن اعتقادهم وجميل استعدادهم، ذكر جزاءهم عليه فقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي له جميع صفات الكمال، ﴿بِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: جعل ثوابهم على هذا القول المستند إلى خلوص النية الناشئ عن حسن الطوية»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور].

في هذه الآية بيان فضل الله تعالى بجزائهم الثواب الأحسنَ من عملهم، والزيادة من فضله.

قال ابن عطية: «فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب، حيث هو دائم لا يتناهى، فهو لا ينفد»(٣).

وقال القرطبي: «﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات، ولم يذكر الجزاء على السيئات ـ وإن كان يجازي عليها ـ لأمرين:

أحدهما: أنه ترغيب، فاقتصر على ذكر الرغبة.

الثاني: أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر، فكانت صغائرهم مغفورة»(٤).

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم؛ بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النَّبأ].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٩.
(٢) نظم الدرر ٢/ ٥٢٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٢٧١.
(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٨١.
(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٠.

في هذه الآية جعل الله تعالى الجزاء منه، عطاءً كثيراً، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم الذي لا انقطاع له.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومَنِّه وإحسانه ورحمته؛ ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: كافياً وافراً شاملاً كثيراً؛ تقول العرب: أعطاني فأحسبني؛ أي: كفاني، ومنه: حسبي الله؛ أي: الله كافيّ»(١)، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر سبب العقاب

الحِكْمَة في جميع ألفاظ القرآن ومعانيه ظاهرة في آياته، **ومن ذلك**:

ذِكرُ سبب العقاب لمن استحقه، وعدمُ التزام ذكر سبب الثواب، تنبيهاً على أن الثواب من الله تعالى فضل، والعقاب منه عدل.

قال ابن القيم: «نصوص الثواب على الأعمال(٢) إنما تدل على أن الأعمال أسباب؛ لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل(٣)، هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية، والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٠٩.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزُّخرف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

(٣) في قوله ﷺ: «**سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة**». أخرجه البخاري ٧/ ١٥٧ (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، وأخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٩ (٢٨١٦)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مفتاح دار السعادة ٢/ ٩٢.

ومن الأدلة على عادة القرآن في ذكر السبب المناسب لعقوبات الأمم الضالة:

التصريح بلفظ الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر]، بعد ذكره الإنذارَ الزاجرَ من العقوبات في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [القمر].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾؛ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾؛ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾؛ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾؛ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام]، وكذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس]»[(١)].

وقال الرازي: «بينَّا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً»[(٢)].

وقال ابن القيم: «وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بأن الله تعالى لا يعاقب إلا من يستحق العقاب، ولا ينتقم إلا ممن يستحق الانتقام؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص]، فأنكر سبحانه على من ظن ما لا يليق بحكمة الله وعزته وإلٰهيته، ونزه

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٧٧.

نفسه عنه»[١].

ومن الأدلة على عدم العقاب إلا لمن يستحق:

ـ قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

والعقوبات الواردة في القرآن إما في الدنيا وإما في الآخرة وهي الأكثر، وذكر سبب العقوبة عدلاً من الله وحكمة.

ومن الأمثلة في هذا الباب:

ـ قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

بيَّن تعالى أن في قلوب المنافقين مرضاً، فزادهم الله نظير ما كان في قلوبهم من الشَّكِّ والحيْرة قبل الزيادة، ولهم عذاب أليم في الآخرة.

وفي الآية بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ [مريم: ٧٦][٢].

قال الطبري: «فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضِه التي لم يكن فرضَها قبل الزيادة التي زادها المنافقين، إذْ شكُّوا وارتَابوا في الذي أحدَث

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٣٧، التفسير القيم ٥٥٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير السعدي ٤٢.

لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السَّالف»[(١)].

وقال السعدي: «﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين»[(٢)].

ثم بيَّن تعالى أن سبب عقوبتهم تكذيبهم الله ورسوله، ودعواهم الإيمان وهم كافرون.

قال الطبري: «ثم أخبر تعالى ذكره أنّ لهم عذاباً أليماً بتكذيبهم بما كانوا يكذِّبون من نبوة نبيّه، واعتقاد الكفر به، وبما كانوا يَكذِبون في زعمهم أنهم مؤمنون، وهم على الكفر مُصِرُّون»[(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ الباء للسببية، أو للمقابلة وما مصدرية داخلة في الحقيقة على يكذبون، وكلمة: كانوا مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده؛ أي: بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم غير مؤمنين»[(٤)].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

فبيَّن تعالى أن الشرك بالله سبب لعقوبة النار؛ لأن من أشرك بالله فقد سوَّى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيعبد معه غيره، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٨١. (٢) القواعد الحسان ٧٨.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٧٤، وينظر: تفسير البغوي ١/ ٦٦.
(٤) تفسير أبي السعود ١/ ٤٢.

تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف]»[(١)].

وهذا فيمن مات على الشرك، أما من تاب تاب الله عليه.

قال الطبري: «إذا مات على شركه، فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار»[(٢)].

وقال السعدي: «وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب، وأما التائب فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣]؛ أي: لمن تاب إليه وأناب»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾ [النحل].

فبيَّن تعالى أنه يخزي المشركين يوم القيامة وبيَّن تعالى على سبيل التقريعِ العلةَ من عذابهم وهوانهم، فيقول تعالى ذكره يوم القيامة تقريعاً للمشركين بعبادتهم الأصنام: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾، ثم يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته[(٤)].

وقال البغوي: «﴿يُخۡزِيهِمۡ﴾ يهينهم بالعذاب»[(٥)].

وقال النسفي: «﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا، ويقول: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم؛ ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم، ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ﴾ فيهم تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم»[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٧.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٣) تفسير السعدي ١٨١.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ١٩٥.
(٥) تفسير البغوي ٥/ ١٦.
(٦) تفسير النسفي ٢/ ٢٨٤، وينظر: تفسير أبي السعود ٥/ ١٠٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف].

ففي هذه الآيات كرر جل وعلا ذكر سبب العذاب للتأكيد على استحقاقهم له، فأخبر ﷻ بأن جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله وتكذيبهم رسل الله، وإنكارهم معجزات الأنبياء.

قال البيضاوي: «﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: بسبب ذلك»(١).

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُوٓا۟﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: مهزوءاً بهما، فإنهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

فلم يذكر سبب هذا الجزاء العظيم فضلاً منه ومنَّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة].

ففي هذه الآيات من سورة الواقعة ذكر أسباب العذاب لأصحاب الشمال، وهذا عدل من الحَكَم العَدْل جل وعلا.

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب، مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/٥٢٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٢٥٠.

فنقول: قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً، فقال: هم فيها بسبب ترفهم»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة].

أي: عقوبة لما سبق من ذنوبهم، وردعاً عما يأتي، وفي ذلك موعظة للمعتبرين.

قال الفراء: «وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ يعني: المسْخَة التي مُسِخوها، جُعِلت نكالاً لما مضى من الذنوب، ولما يعمل بعدها: ليخافوا أن يعملوا بما عمل الذين مُسخوا فيُمسخوا»(٢).

قال ابن عطية: «والنكال: الزجر بالعقاب، والنكل والأنكال قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها: لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد»(٣).

وقال السعدي: «وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات»(٤).

(١) تفسير الرازي ٢٩/١٤٨، وينظر: اللباب ١٨/٤٠٨.
(٢) معاني القرآن ١/٤٣، وينظر: غريب القرآن للسجستاني ٤٥٨، تفسير البغوي ١/١٠٥.
(٣) المحرر الوجيز ١/١٤١، وينظر: تفسير القرطبي ١/٤٤٤.
(٤) تفسير السعدي ٥٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ].

فالجزاء من جنس العمل، لما كفروا نعمة الله عليهم، جازاهم الله وبين سبب العقاب، وذيله بأن هذه عادة الله في جزاء الكفار.

قال مكي: «ثم قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾؛ أي: وهل يكافأ إلا من كفر بالله، فأما جزاء المؤمنين فهو تفضل من الله لا مكافأة؛ لأنه جعل لهم بالحسنة عشراً، فذلك تفضل منه، وجعل للمسيء بالواحدة واحدة مكافأة له على جرمه، فالمكافآت لأهل الكبائر والكفر، والمجازاة لأهل الإيمان مع التفضل»(١).

وقال أبو السعود: «﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها، أو بسبب كفرهم بالرسل، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾؛ أي: وما نجزي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران أو الكفر»(٢).

وقال السعدي: «ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ]؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السياق ـ إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ [المائدة].

قال ابن قتيبة: «﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أي: عظة من الله بما عوقبا به لمن رآهما، ومثله قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾»(٤).

وقال الطبري: «وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصّص بمعصية الله»(٥).

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/ ٥٩١٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٨.
(٣) تفسير السعدي ٦٧٧.
(٤) غريب القرآن ١٤٣.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٧.

وقال ابن كثير: (﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾؛ أي: مجازاة على صنيعهما السّيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك»[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النَّازعات].

أي: عاقبه الله تعالى بسبب ذنوبه، وفيها عبرة لمن يخشى.

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ فعاقبه الله: ﴿نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ يقول: عقوبة الآخرة من كلمتيه، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: ٢٤]، والأولى قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[2].

وقال الفراء: «وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾، إحدى الكلمتين قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، والأخرى قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: ٢٤]»[3].

وقال ابن كثير: «قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾؛ أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا»[4].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه].

في هذه الآيات توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشرُه أعمى في العقبى، وبيَّن سبحانه أنه هكذا يجزي من أسرف على نفسه بالمعاصي ولم يرجع إلى ربه، ثم ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾، فهي أشد ألماً، وأدوم زمناً.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي؛ أي: نثيب من أسرف

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٠.
(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٢٠٣.
(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٣٣، وينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٤٤٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٥.

فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ»[١].

وقال ابن كثير: «قول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾؛ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصِّلت].

في هذه الآيات بيان عقوبة الله تعالى لقوم عاد، وبيَّن حالهم: كفرٌ بالله، وجحدٌ لآياته، واستكبار في الأرض، وقهرٌ لمن حولهم من العباد، مع إعجابهم بقوتهم، ورد عليهم تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ فعاقبهم الله عقوبة، تناسب قوتهم، التي اغتروا بها، وأخزاهم الله، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فأرسل عليهم ما هو أعتى منهم، وبين أن هذا عذاب الدنيا بقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، وبيَّن أن عذاب الآخرة أشد وأخزى، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن كثير: «وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية؛ أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة»[٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٥٤.

بيَّن تعالى أنه سيذيقهم من العذاب الأدنى في الدنيا، والسبب في ذلك: لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الرُّوم].

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن الله وعد هؤلاء الفسقة المكذّبين بوعيده في الدنيا: العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاء أصابهم، إما شدّة من مجاعة، أو قتل، أو مصائب يصابون بها، فكل ذلك من العذاب الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذكره، إذ وعدهم ذلك أن يعذّبهم بنوع من ذلك دون نوع، وقد عذّبهم بكل ذلك في الدنيا بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم»(١).

وقال ابن جزي: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ يعني: الجوع ومصائب الدنيا، وقيل: القتل يوم بدر، وقيل: عذاب القبر، وهذا بعيد؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: عذاب الدنيا»(٣).

قال الطبري: «وقوله تعالى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: عذاب يوم القيامة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزُّخرف].

الآية في سياق قصة قوم فرعون، والمراد: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، والسبب في ذلك رجاء رجوعهم إلى الإسلام، وترك الشرك والشر

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.
(٢) التسهيل ٢/ ٣٥٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٨٦.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١.

قبل فوات الأوان[١].

قال البغوي: «﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى، وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾، عن كفرهم»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

ثم بيَّن سبب هذه العقوبة الشديدة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون].

ثم أكَّد بسبب آخر وقطع اعتذارهم فقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير: «هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون]؛ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك]»[٣].

ـ وقوله تعالى في عقاب الكفار: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٧٦٧.
(٢) تفسير البغوي ٧/ ٢١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٨.

بيَّن تعالى أن الكذابون الظانون غير الحق لُعِنوا، وهم الذين في لُجَّة من الكفر والضلالة غافلون متمادون، وذكر بعض صفاتهم، ثم بيَّن أنها سبب عذابهم(١).

قال السمرقندي: «﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ يعني: هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون؛ يعني: تستعجلون على وجه الاستهزاء»(٢).

وقال القرطبي: «﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي: جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق].

فبيَّن تعالى سبب أخذ الكتاب من وراء ظهره، وعذابه؛ بأنه كان في الدنيا مسروراً ولم يخف من عذاب الله، غافلاً عن الآخرة، منكراً الرجوع إلى الله للحساب والجزاء.

قال ابن كثير: «﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

ذكر الله تعالى ملازمة العذاب للكفار بسبب تكذيبهم.

قال ابن عطية: «ثم يقول: لقريش، فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب والتكذيب الذي هو سبب العذاب لزاماً»(٥).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٥، تفسير السعدي ٨٠٨.
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٨١.
(٤) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٥٨.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.

وقال ابن كثير: «أعقب الله ذكر صفات المؤمنين بذكر جزاء الكافرين ملازماً لهم بسبب تكذيبهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾؛ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم؛ يعني: مقتضياً لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة»[١].

وقال أبو السعود: «فسوف يكون لزاماً؛ أي: يكون جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم في النار»[٢].

هذا؛ وعند تأمل آيات العذاب في القرآن نجد عادته ذِكر السبَبِ في الأعم الأغلب، وهذا من حِكْمةِ الله تعالى، وأن عذابه بعَدل، وثوابه بِفَضل، وأن الله جل وعلا لا يُعاقب إلا من يستحق العقوبة؛ وذِكْر السبب ليطمئنَّ العبدُ بأنه كما قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء]، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٣.

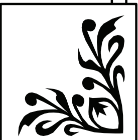


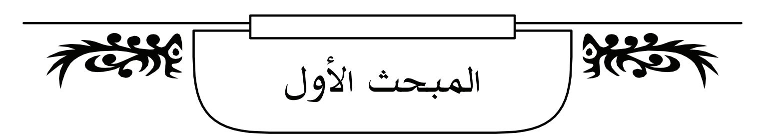

الفصل الثاني

عادات القرآن في قصصه

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها.
- المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص.

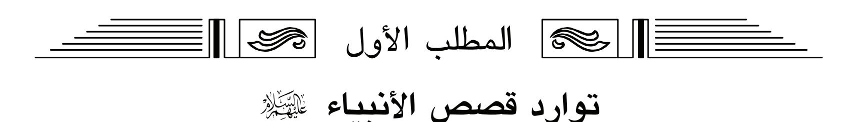


المبحث الأول

ربط القصة بما يناسبها

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: توارد قصص الأنبياء عليهم السلام.**
- **المطلب الثاني: ذكر القصص بعد دلائل التوحيد.**
- **المطلب الثالث: تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر.**



المطلب الأول

توارد قصص الأنبياء عليهم السلام

من عادات القرآن الإكثار من ذكر قصص الأنبياء مترابطة في مشهد شريف لطيف؛ ليكون للعاقل أسوةٌ برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه عليهم السلام؛ وفي قصصهم العبرة والعظة لأولي الألباب.

وقد بيَّن تعالى في القرآن أحوال الأنبياء عليهم السلام مع الخالق سبحانه وتعالى.

قال ابن تيمية: «والقرآن قد أخبر بأدعية الأنبياء، وتوباتهم، واستغفارهم»(١).

فهذا جزء من علاقتهم بربهم جل وعلا.

وبيَّن جل وعلا أحوال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

ومن أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه، وتسليته عما أصابه، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه.

كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

(١) الرد على البكري ١/ ١٦١.

قال البغوي: «معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل؛ أي: من أخبارهم وأخبار أممهم، نقصها عليك لنثبت فؤادك؛ لنزيدك يقيناً ونقوي قلبك، وذلك أن النبي ﷺ، إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه»(١).

ومن المقاصد في ذكر قصص الأنبياء أيضاً أخذ العظة العبرة بمن سبق.

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها»(٢).

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠]: «والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصُ حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون»(٣).

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

قال ابن القيم: «ويكفِي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وشأن نبينا وأذى أعدائه له بما لم يؤذه من قبله»(٤).

وقال السعدي: «﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾؛ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن مَن فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً؛ ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له»(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٧، وينظر: تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤٨.
(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٤٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٣.
(٤) مدارج السالكين ٢/ ٣٢٣.
(٥) تفسير السعدي ٤٠٧.

وعادة القرآن توارد قصص الأنبياء ﷺ في السياق الواحد، ومن الأمثلة على ذلك:

ـ ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله جل وعلا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

ـ وكذا ما جاء في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

﴿...﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود] إلى قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [هود]، ثم قال تعالى بعدها: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود]، وفي ختام قصص الأنبياء قال جل وعلا: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود].

قال البقاعي: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، بسَطَ تعالى حال من وقعَت الإحالة عليه[١]، واستوفى الكثير من قصصهم إلى آخر سورة هود، إلى قوله سبحانه: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾، فتأمَّل بما افتُتِحت به السورةُ المقصودُ بها قصص الأمم، وبما اختتمت، يَلُح لك ما أشرت إليه، والله أعلم بمراده، وتأمل افتتاحَ سورة الأعراف بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: ٧]، وختْمَ القصص فيها بقوله: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦]»[٢].

ـ ومن الأمثلة كذلك ما جاء في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء]، إلى قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠﴾ [الشعراء]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾ [الشعراء].

---

(١) المراد: الإحالة على الاعتبار بالأمم السالفة وما كان منهم حين كذبوا أنبياءهم، والذي تكرر كثيراً في سورة الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الأنعام]، وبعدها قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ [الأنعام]، وغيرها. ينظر: نظم الدرر ٣/ ٥.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٥.

فهذه الأمثلة وغيرها في كتاب الله تعالى تدل على الترابط بين الرسل والرسالات، والسر ـ والله أعلم ـ وجود النسبة الكبيرة في الاتفاق بين الأنبياء، وبين أحوال الأمم مع أنبيائهم.

ولذلك أمر الله بتذكُّر قصص الأنبياء في غير ما آية، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم].

قال ابن تيمية خلال حديثه عن الذكر: «ومما أُمِروا به تذكرةَ قصص الأنبياء المتقدمين، كما قال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ﴾ [مريم: ٥١]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ﴾ [مريم: ٥٦]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ [ص: ٤٨].

ومما أمروا به تَذْكِرة ما وعدوا به من الثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص]»[1].

وعند التأمل في أوجه توارد قصص الأنبياء في السياق الواحد يتبين لي أن بينها قواسم مشتركة ومنها:

١ ـ اتفاقهم في أمر التوحيد، وهو أعظم أصلٍ اتفقوا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا بيِّنٌ في البدء بدعوتهم بقول: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قال ابن تيمية: «وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل مثل: نوح،

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ١٩٣.

وهود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، أنهم قالوا لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا أول دعوة الرسل وآخرها»[1].

٢ ـ اجتماعهم في أصول الشريعة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى بعد ذكر عدد من قصص الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿...وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١]، وقال تعالى عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم]، وأمر الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

٣ ـ ومما اجتمع في الأنبياء: الحرص الكامل على الدعوة إلى الله والنصح لأقوامهم، وكل قصص الأنبياء مع أقوامهم دليل على هذا الحرص كما قال الله على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ [نوح] وما بعدها من الآيات.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف].

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٣٤٦/٥.

وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٣٩﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١٢٨﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن تيمية: «فإن الله جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يُصلِحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه»(١).

واتفقوا في أمر أقوامهم بالتقوى، فكل نبي يأمر أمته بذلك، كما بيَّن تعالى في قصة كل نبي أنه يقول لقومه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الشعراء]، فتكرر هذا الأمر مع كل نبي ـ في سورة الشعراء ـ ومع بعضهم مرتين.

٤ ـ اتفق الأنبياء على تذكير أقوامهم بنعم الله تعالى، وما حصل للأمم الكافرة قبلهم، كما قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٧٤﴾ [الأعراف].

٥ ـ ومن مواضع الاتفاق بين الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام عدم أخذهم أجراً مقابل ما جاءوا به من الهدى والوحي والدعوة، بل يفعلون ذلك لوجه الله، وأجمع دليل على ذلك، ما بيّنه جل وعلا حكاية عن أنبيائه في قصصهم ـ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام ـ كل

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٥.

يقول لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشعراء]، إلى آخر السورة.

وقال تعالى آمراً نبينا محمداً ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٤٧﴾ [سبأ].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ٤٦﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

وقال تعالى على لسان صاحب قرية يس: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ٢١﴾ [يس].

٦ ـ وقد اجتمع للأنبياء كلِّهم النصرُ والتأييد من الله تعالى، وهذا بيِّن من خلال ما حكاه تعالى عنهم في قصصهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١﴾ [غافر].

قال السعدي: «ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته»(١).

وبعد هذا؛ فإن من أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن تدبرُ أخبار الأنبياء وقصصهم التي ساقها القرآن.

ومنها قصص الأنبياء الواردة في السياق الواحد، فالنظر فيما بينها من

(١) القواعد الحسان ٥٧.

تشابه لفظي ومعنوي يُظهر إعجاز القرآن في أسلوبه، ومن خلالها تتحقق الثمرة المرجوَّة من الاقتداء برسل الله وأنبيائه ـ في عبوديتهم وطريقتهم في التعامل مع الله تعالى، ومع المخلوقين ـ ولِتَحصل العبرة من أحوال الأمم السابقة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

ذكر القصص بعد دلائل التوحيد

من عادات القرآن تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة؛ ليجد سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن ذلك: تقريره لعقيدة التوحيد مع اقترانها بذكر القصص(١).

قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود].

قال الزمخشري: «﴿فُصِّلَتۡ﴾ كما تُفَصل القلائد بالدلائل، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص»(٢).

وقال الرازي: «اعلم أن من عادته ﷻ في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها بالبعض؛ أعني: علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص: إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن، لا إبقاء الإنسان في النوع الواحد؛ لأنه يوجب الملال، فأما إذا انتقل من نوع من العلوم إلى نوع آخر فكأنه يشرح به الصدر ويفرح به القلب، فكأنه سافر من بلد إلى بلد آخر، وانتقل من بستان إلى بستان آخر، وانتقل من تناول طعام لذيذ إلى تناول نوع آخر، ولا شك أنه يكون ألذ وأشهى»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥، مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٨، وينظر: البحر المحيط ٥/ ٢٠١.
(٣) تفسير الرازي ٧/ ٣.

وقال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]: «المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصُل بها العبرة، وأعظم العبر: الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار»(١).

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى ـ آية الكرسي ـ وفيها تقرير أصل التوحيد وأساس العبادة؛ ليستشعر العبد عظمة الله، فيطيع أوامره، ويمتثل أحكامه، وبيَّن سبحانه أنه ولي المؤمنين، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، ثم قص الله بعدها محاجة النمرود الذي عارض ربوبية الله مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبيان ما وفق الله نبيه من دحض الشبهات، فصارت مثلاً للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

وأتبعها بقصة صاحب الحمار: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ...﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفيها إثبات الحشر والبعث.

قال البقاعي: «ولما ذكر ما له ﷻ من الإحاطة والعظمة، وأتبعه أمر الإيمان وتوليه حزبه، وأمر الكفران وخذلانه أهله، أخذ يدل على ذلك بقصة

(١) تفسير السعدي ٩٦٧.

المحاج للخليل، والمار على القرية، مذكراً بقصة الذين قال لهم: موتوا ثم أحياهم، في سياق التعجيب من تلك الجرأة»(١).

وبعد القصتين ذكر الله تعالى قصة ثالثة تدل على البعث، وهي قصة إبراهيم حين طلب رؤية إحياء الموتى ليطمئن قلبه.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا قصصاً ثلاثة، الأولى منها: في بيان إثبات العلم بالصانع، والثانية: في إثبات الحشر والنشر والبعث، والقصة الثالثة: وهي أيضاً دالة على صحة البعث، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر].

في بداية هذه السورة تقرير النبوة، ثم في هذه الآيات الحديث عن دلائل التوحيد، ثم ذكر تعالى قصة الخلق وبعده أحوال القيامة وبيان صفة الأشقياء والسعداء، في الآيات من [٢٥، ٥٠] ثم أتبعها بقصص الأنبياء.

فقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

(١) نظم الدرر ١/٥٠٣.
(٢) تفسير الرازي ٧/١٩، ٣٣.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة، ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام؛ ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿عِبَادِى﴾ والتقدير: ونبئ عبادي عن ضيف إبراهيم...» إلخ[1].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة الأنبياء من بيان أصول التوحيد، والرسالة، والبعث، والجزاء، ثم ذكرت جملة من قصص الأنبياء عليهم السلام.

يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾ [الأنبياء]، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء].

ثم جاءت قصص الأنبياء تسلية للنبي ﷺ وتثبيتاً لقلبه، وأن إنزال الوحي سُنَّة الله في أنبيائه، فجاءت قصة موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل، ويونس، وزكريا ويحيى، وعيسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٥.

﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [الأنبياء]، إلى قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾ [الأنبياء] إلى آخر الآيات.

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها...»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون]، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨﴾ [المؤمنون].

فبعد أن أمر الله تعالى بالعبادات، وأورد ما يدل على وجوده وقدرته جل وعلا، ومنها: خلق الإنسان، وخلق السماوات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق الحيوانات وما فيها من المنافع الكثيرة.

أتبع ذلك بقصص الأنبياء: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح ولوط وشعيب مجملة، وقصة موسى وهارون، وقصة عيسى وأمه.

والمراد: بيان كفران الناس بعد تعداد النعم عليهم، والإشارة إلى ما حل بالأمم السابقة من زوالها، وأنها مماثلة لكفار مكة.

قال الرازي: «واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بيَّن دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا، القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، ...»(٢).

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: الفرقان، حيث بُدِئت بإثبات الوحدانية لله تعالى، وصحة الرسالة، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة، يقول

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٥٤.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٧٩.

تعالى في وحدانيته: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى عن بشرية الرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، إلى قوله عن رهبة القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان].

وذكر سبحانه شبهات المشركين والرد عليها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

وبعد بيان شبهات المشركين حول القرآن والنبوة والبعث، ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم للرسل؛ كقصة موسى وهارون، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأمثالهم من الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان]، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان]، ثم قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد، ونفي الأنداد، وإثبات النبوة، والجواب عن شبهات المنكرين لها، وفي أحوال القيامة، شرع في ذكر القصص على السُّنَّة المعلومة»[1].

ثم ذكر الله تعالى بعد هذه القصص التي فيها جهل المعرضين عن أدلة التوحيد ومناقشتهم، وعدم إيمانهم، ذكر أدلة على وجود الصانع القادر على كل شيء.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٧٠.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٥٤].

فذكر هنا الأدلة من الظواهر الكونية التي يدكها ويشاهدها كل مخلوق، وهي خلق الظل، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والبحار المالحة والعذبة، والإنسان من الماء.

قال ابن كثير: «من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾»[(١)].

ـ ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة: ق والقرآن المجيد، فهي مشتملة على أصول العقيدة مع التأكيد على إثبات البعث، والرد على منكريه، وبعد ذلك الإشارة إلى قصص إهلاك الأمم السابقة المكذبين بالرسل، تحذيراً لكفار مكة أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

ـ ومن الأمثلة ما جاء في سورة: القمر، وفيها: تقرير أصول العقيدة، من إنزال الوحي، وتهديد المكذبين بآياته، وإثبات البعث، والجزاء يوم القيامة، حيث يقول تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٣.

سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

وأتبع هذا جل وعلا بإنذار كفار مكة من عذاب مشابه لعذاب الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم ولوط، وآل فرعون جزاء تكذيبهم الرسل، وأفردت كل قصة عن الأخرى ـ وحال النبي ﷺ كحال الرسل المتقدمين مع أقوامهم ـ حيث يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ٤٢].

قال ابن القيم: «وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار كالأعياد ونحوها، بالسورة المشتملة على التوحيد، والمبدأ، والمعاد، وقصص الأنبياء مع أممهم، وما عامل الله به من كذبهم، وكفر بهم من الهلاك والشقاء، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية، كما كان يقرأ في العيدين بسورتي: ق والقرآن المجيد، و: اقتربت الساعة وانشق القمر...»(١).

فظهر بذلك كله أن عادة القرآن ربط الدعوة إلى التوحيد وتقرير الأحكام وذكر القصص بعضها ببعض، والحكمة ـ والله أعلم ـ من ذكر القصص تقرير دلائل التوحيد، والتأكيد على أهمية تطبيق الأحكام والتكاليف، وفي هذا الأسلوب رحمة بالإنسان؛ لأن طبعه مجبول على الملل من الأسلوب الواحد، فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب يشرح الصدر، ويجدد النشاط، ويصل بالإنسان إلى كمال الذوق واللذة، وقرب الفهم للمعنى، وسهولة العمل بالمقتضى، والله أعلم.

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

المطلب الثالث

تعقيب القصص بذكر المواعظ والعبر

ثنَّى الله تعالى في كتابه القصص والمواعظ، لما فيها من التذكير والاعتبار.

قال مكي: «تُثنى في القرآن القصص والمواعظ والأخبار، دل على ذلك قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]»(١).

وقال الزركشي: «وقيل: سمي القرآن مثاني؛ لتكرار الحكم والقصص والمواعظ»(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [القمر]، قال ابن جزي: «الأنباء هنا يراد بها: ما ورد في القرآن من القصص، والبراهين، والمواعظ»(٣).

وقصص القرآن فيها المواعظ والعبر، ومن تأمل في عادة القرآن وجد أن الموعظة والدروس المستفادة من القصة تمتد بعدها.

قال ابن تيمية: «ونظير ذلك ذكر القصص، فإنها كلها أمثال، هي أصول قياس واعتبار»(٤).

ومن الأدلة على ذلك:

- قوله تعالى في ختام القصص في سورة الأعراف: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٣٩٢٥.
(٢) البرهان ١/ ٢٨٠.
(٣) التسهيل ٣/ ١٠٤.
(٤) دقائق التفسير ١/ ٢٠٥.

نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات»(١).

ثم قال تعالى بعدها: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ساء مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله»(٢).

وقال البقاعي: «فتأمل هذا الإيماء بعد ذكر القصص، وكيف ألحق من كذب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم بمن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس، وختمها بقصة بلعام، وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة، قال الله تعالى إثر ذلك: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨]»(٣).

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

قال مكي: «المعنى: وجاءك في هذه السورة الحق، دون غيرها، بل في الكل جاء الحق، وذُكِّر في هذه السورة بهذا تأكيداً لما فيها من القصص والمواعظ، وذكر الجنة والنار ومقام الفريقين»(٤).

وقال السعدي: «ومن فوائد قصة شعيب: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر، كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢.
(٣) نظم الدرر ٣/ ٥.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٩٢، وينظر: معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١.

الترغيب والحث على التقوى»(١).

فعادة القرآن تعقيب القصص بالمواعظ، فبعد كل قصة موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن الأمثلة:

قصص الأنبياء الواردة في سورة هود؛ فبعد أن بيَّن الله تعالى أن القرآن وحي منه سبحانه، وأثبت بعثة النبي ﷺ، وبيَّن حال المؤمنين والكافرين، وحضَّ على الاعتبار بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود]، ذكر عدداً من قصص الأنبياء للعظة والعبرة، وفيها بيان اشتراك الأنبياء في الدعوة إلى أصول واحدة، وهي عبادة الله وحدة، والإيمان بالبعث والجزاء، وفيها التنبيه على ملازمة الصبر على أذى الكفار حتى يكفِيَه الله أمرهم.

والشاهد: أن كل قصة من القصص بعدها موعظة موجزة، وأذكر هذه المواعظ على سبيل الإجمال:

١ ـ فبعد قصة نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٨، ٤٩].

فهذه الآيات بعد قصة نوح عليه السلام، وفيها الإشارة إلى أمرين:

الأول: بيان تكريم الله تعالى لنوح عليه السلام والمؤمنين معه، بالسلامة، وبالبركة.

الثاني: الإخبار بأنباء غائبة عن الخلق؛ لتكون عظة وعبرة، ثم حث على الصبر كما صبر نوح على أذى الكفار، فإن النصر والنجاة للمتقين.

قال الطبري: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

(١) تفسير السعدي ٣٨٨.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ: هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره وخبر قومه ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، يقول: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، يقول: نوحيها إليك نحن، فنعرفكها ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، الوحي الذي نوحيه إليك، ﴿فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، يقول: إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله، فأدَّى فرائضه، واجتنب معاصيه»[١].

٢ ـ وبعد قصة هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود].

جمع الله تعالى في هذه الآيات خلاصة وصف قوم عاد في ثلاثة أمور: جحود بآيات ربهم، وعصيان رسله، واتباعهم رؤساؤهم على الباطل، ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة بالإبعاد عن رحمة الله، ثم كرر تأكيداً للبعد بسبب كفرهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قال أبو السعود: «﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع كونهم هالكين أي هلاك، تسجيلاً عليهم باستحقاق الهلاك، واستيجاب الدمار، وتكريرُ حرف التنبيه وإعادةُ عادٍ للمبالغة في تفظيع حالهم، والحثِّ على الاعتبار بقصتهم»[٢].

٣ ـ وبعد قصة صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود].

هذه في ختام قصة صالح عليه السلام مع ثمود، بيَّن تعالى عقوبة الظالمين بالصاعقة التي قطعت قلوبهم وأهلكتهم، فصاروا جثثاً هامدة، وأنهم لسرعة هلاكهم بالصيحة كأنهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يسكنوا ديارهم، بسبب

(١) تفسير الطبري ١٥/٣٥٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٢٠.

كفرهم، وجحودهم بآيات الله، فلهم الشقاء والبعد عن رحمة الله، وفي هذا عظة وعبرة لمن بعدهم.

قال السعدي: «﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع»(١).

٤ ـ وبعد قصة لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «وأما قوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، فإنه يقول تعالى ذكره متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارة التي أمطرتها على قوم لوط، من مشركي قومك يا محمد ببعيد أن يمطروها، إن لم يتوبوا من شركهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وقال مكي: «ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: من ظالمي قومك يا محمد، فهذا على التهديد للمشركين»(٣).

وقال الشنقيطي: «وقال في حجارة قوم لوط التي أهلكوا بها، أو ديارهم التي أهلكوا فيها: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾، وهو تهديد عظيم منه تعالى لمن لم يعتبر بحالهم، فيجتنب ارتكاب ما هلكوا بسببه، وأمثال ذلك كثير في القرآن»(٤).

٥ ـ وبعد قصة شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود].

وهذه الموعظة يُقال فيها ما قيل الموعظة بعد قصة ثمود.

قال الطبري: «كأن لم يعش قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذابه، حين أصبحوا جاثمين في ديارهم»(٥).

---

(١) تفسير السعدي ٣٨٥.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٤٣٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥/ ٣٤٤٩.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٧٦.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٤٦٤، وينظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

وقال أبو السعود: «وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم؛ لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب، وهو الصيحة، غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم، وأولئك من تحتهم»[(١)].

وقال السعدي: «﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾؛ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك»[(٢)].

ـ ثم قال تعالى في ختام القصص في سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود].

بعد أن ذكر الله قصص الأنبياء مع الأمم السابقة، بيَّن ما فيها من العظة والعبرة، فقال تعالى لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ وأن في هذه القصص علامة على رسالتك، وإنذار وموعظة وذكرى للمؤمنين.

ثم ذكر بعدها العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسعداء، بالترهيب من عصيان الله، والترغيب بالإيمان بالله، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود] الآيات.

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ المعنى: إن في هذه القرى وما حل بها لعبرة، وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها، فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى»[(٣)].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٣٨.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٨.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠.

﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ والفائدة في ذكرها أمور، أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل وذلك إنما يكون في غاية الندرة فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول» إلى أن قال: «الفائدة الرابعة: أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا، والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا، والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع، فلا بد وأن يلين القلب، وتخضع النفس، وتزول العداوة، ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص»(١).

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الكهف؛ فكل قصة يعقبها موعظة تناسب معناها.

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف]، إلى آخر الآيات في قصة الفتية الذين فروا بدينهم لئلا يُفتنوا.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منه فَلَجَؤُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾؛ أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً؛ أي: اجعل عاقبتنا رشداً.

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٤٥.

وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]؛ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ١٢]؛ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ أي: المختلفين فيهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية فإن الأمد الغاية»[1].

ففي هذه القصة العبرة، وكيف نجاهم الله ويسر أمورهم لما فعلوا الأسباب.

قال السعدي: «فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم»[2].

ثم جاء التفصيل أكثر في خبرهم وحالهم.

والشاهد هنا: أنه بعد هذه القصة جاءت الوصية بالصبر على صحبة الصالحين وترك أصحاب الهوى، والوعظ بأن لا تنسيك زينة الحياة الدنيا ذكر الله والدار الآخرة، فقال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٩.
(٢) تفسير السعدي ٤٧١.

العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية»(١).

ثم قال تعالى من باب التهديد والوعيد الشديد(٢): ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف]، وما بعدها.

ففي هذه الآية أن على النبي البلاغ وعلى العباد السمع والطاعة، فمن آمن سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن كفر شَقِي في الدنيا والآخرة.

قال ابن جزي: «أي: هذا هو الحق فمن شاء فليؤمن لفظه أمر وتخيير ومعناه أن الحق قد ظهر فليختر كل إنسان لنفسه إما الحق الذي ينجيه أو الباطل الذي يهلكه ففي ضمن ذلك تهديد»(٣).

وفي هذا موعظة بليغة بالجمع بين الترهيب والترغيب.

المثال الثاني: قصة صاحب الجنتين الذي آتاه الله من كل خير؛ فكفر بأنعم الله وأنكر البعث، وهذه إشارة إلى فتنة المال، فأهلك الله الجنتين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ [الكهف]، الآيات.

هذه الآية مثل للغني الكافر والفقير المؤمن، وبأسلوب القصة والحوار، فالكافر افتخر بماله وأنصاره على فقراء المسلمين، فعاقبه الله بهلاك ماله، وحسرته في الدنيا والآخرة على شركه وتفرق أنصاره، وبعد هذه القصة جاء الوعظ بحقارة الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير السعدي ٤٧٥.
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤.
(٣) التسهيل ٢/ ١٣٥.

فبيَّن حال الدنيا وزوال ما فيها ومصير ما فيها من النعيم إلى الهلاك، ثم بيَّن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس، وهي سريعة الزوال، فلا يحسن بالعاقل أن يُقدم الفاني على الباقي.

المثال الثالث: قصة موسى عليه السلام مع الخضر حيث ظن أنه أعلم أهل الأرض، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، فرحل للقائه، والتعلم منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]، فلم يصبر على ما رأى من مواقف مع الخضر، وفيه نهاية القصة قال الله تعالى على لسان الخضر: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، وفيها: أنه لا بد للعلم من التواضع والصبر.

المثال الرابع: قصة ذي القرنين الذي كان ملكاً عادلاً عالماً بلغ مغرب الشمس ومشرقها، حتى وصل قوماً خائفين من يأجوج ومأجوج فأعانهم على بناء سدٍّ يمنعهم ويحصنهم، وخُتمت القصة بقوله جل وعلا عن ذي القرنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

ـ ثم خُتِمت القصص بالمواعظ إلى نهاية السورة، فقال تعالى: ﴿...وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ٩٩ ـ ١٠٦] إلى آخر آية في السورة يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

بيّن تعالى في نهاية هذه السورة ونهاية القصص الوارد فيها أن النار تبرز للكافرين يوم القيامة ليروا سوء عاقبتهم، ولا يُقام لهم وزن ولا قدر، وأن أعمالهم قد حبطت وضاعت بسبب كفرهم.

قال الطبري: «يقول تعالى: وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا

لا ينظرون في آيات الله، فيتفكَّرون فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون إلى توحيد الله، وينقادون لأمره ونهيه، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آي كتابه، بخذلان الله إياهم، وغلبة الشقاء عليهم، وشُغلهم بالكفر بالله وطاعة الشيطان، فيتعظون به، ويتدبَّرون، فيعرفون الهدى من الضلالة، والكفر من الإيمان»(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم»(٢).

وفي الآية الأخيرة الحث على العمل الصالح، وعدم الشرك بالله.

قال البيضاوي عنها: «والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة»(٣).

ومن الأمثلة على تعقيب القصص بالمواعظ:

القصص الواردة في سورة الشعراء، فبعد كل قصة يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء].

قال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه ـ تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار ـ لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سُنَّتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة إن ادَّكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم»(٤).

ويقول الطبري في نهاية قصة عاد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء]: «يقول تعالى ذكره: فكذّبت عاد رسول ربهم هوداً، والهاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ من ذكر هود ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يقول: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولنا،

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١.
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٢٨.
(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذّبين فيما أتيتهم به من عند ربك.

يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين به»(١).

وقال الرزاي: «أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فالمعنى: أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته؛ لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته؛ من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا، وعلى صدق موسى عليه السلام؛ من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً، فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى، وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم..».

إلى أن قال: «وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ فتعلقه بما قبله أن القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم، بل أفاض عليهم أنواع رحمته، فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله»(٢).

وقال السعدي: «ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير، دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٧٩.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٢، وينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٦، ١٤٥.

من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء»[١].

ـ ثم بعد ذِكْرِ قصص الأنبياء جاءت التسلية للرسول ﷺ، والوعد له بالفوز والغلبة، والموعظة والإنذار للمشركين، حتى لا يهلكوا كما أهلك المكذبون السابقون، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء]، إلى قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء].

قال البغوي: «﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ كثيرة في الدنيا؛ يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم، ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾؛ يعني: العذاب، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾، به في تلك السنين، والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط»[٢].

ـ ثم ذكر تعالى أربع مواعظ للنبي ﷺ في قوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء].

ففي هذه الآيات أربع وصايا للرسول ﷺ:

الأولى: توحيد الله وعدم الإشراك به، ويدخل فيه من تبعه.

الثانية: إنذار عشيرته من عذاب الله.

الثالثة: لين الجانب والرفق بالأتباع.

الرابعة: التوكل على الله تعالى، وتفويض جميع الأمور إليه.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: لا تعبد معه معبوداً غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا»[٣].

---

(١) تفسير السعدي ١٢٤.
(٢) تفسير البغوي ٦/ ١٣٠.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٤٠٤.

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أنّ مَنْ أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحداً منهم إلا إيمانُهُ بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾، وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها»[1].

وقال السعدي: «ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، ولمَّا أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، فيكون هذا خصوصاً دالاً على التأكيد، وزيادة الحق، فامتثل ﷺ، هذا الأمر الإلٰهي، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم.

وأعظم مساعد للعبد على القيام بما أُمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾»[2].

وبعد هذا؛ فقصص القرآن تحقق غايات كثيرة من أهمها:

١ ـ الموعظة والاعتبار، وأكثر ما جاء في قصص الظالمين ونهاياتهم، والمستكبرين ومآلاتهم؛ للتحذير من سلوك مسلكهم؛ كقصة: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون، والنمرود بن كنعان، وبلعام، وصاحب الجنتين، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

(١) تفسير ابن كثير ٦/١٦٦.

(٢) تفسير السعدي ٥٩٨، ٥٩٩ بتصرف.

ويأتي تعقيب قصص الهالكين بعدل الله تعالى، كما قال تعالى بعد سياق قصص أقوام الأنبياء مجتمعة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

٢ ـ مجيء القصص مُصَدِّقة لأنباء المواعظ كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، ثم جاءت بعدها القصص التي تدل على الرحمة، والتي تدل على العذاب.

فعادة القرآن: الموعظة والنصيحة من خلال القصة أو بعدها؛ لأن القصة لها أثر كبير في نفس السامع، يقوده إلى سرعة القبول والاستجابة للواعظ، كما قال تعالى في ختام قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى بعد قصة غزوة بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى بعد قصة حشر بني النضير: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

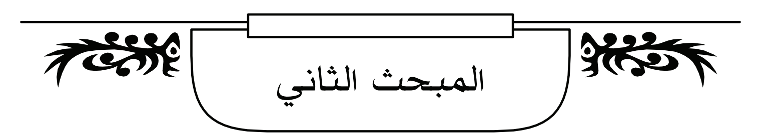
والقصة من أفضل وسائل تقرير الأمور المهمة.

قال الزرقاني: «وتارة يذكر العقيدة مرسلة، وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد، وأخرى بجملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال، وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد»(١).

فهذه المواعظ والعبر التي تأتي قبل القصة وأثناءها وبعدها تدل على الغرض الأساسي من سياقها، مع ما فيها من أغراض وأهداف لا حصر لها، والله تعالى أعلم.

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.



التنويع في عرض القصص

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الاقتصار في سوق القصص على المقصود.
- المطلب الثاني: الطول والقصر في القصة.
- المطلب الثالث: تكرار القصة.

المطلب الأول

الاقتصار في سوق القصص على المقصود

قصص القرآن أبلغ القصص، والقصص أسلوب بياني يمثل جزءاً كبيراً من كتاب الله تعالى، مما يدل على أهميتها، والحديث عنها لا يجمعُه فصل ولا كتاب ولا رسالة.

قال ابن قتيبة: «فأراد الله، بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير»[1].

قال الفيروزآبادي بعد ذكر الخلاف في عدّ الآي: «قلت: ومن هذه الجملة أَلف آية وستمائة آية في قصص الأَنبياء، وأَلف ومائتان في شرائع الإيمان، وأَلف وعشرون في التوحيد والصّفات، وألف في ترتيب الولايات، وأَربع مئة في الرُّقية وتعويذ الآفات، وأربعمائة في أنواع المعاملات، ومئة في عذر جُرْم العُصات، ومائة في ضمان أَرزاق البرّيات، وسبعون في جهاد

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٩.

الغزات، وخمسون فيما يتعلق بقصد مكّة وعرفات، والباقي في أَحكام النكاح، وطلاق المنكوحات»[(١)].

وقد خُدمت قصص القرآن بكتابات كثير من العلماء.

ومما اختص به قصص القرآن: أنه رباني وواقعي، ودقيق وشامل.

فهو مرجع الباحثين في هذا الموضوع.

ومن عادات القرآن في قصصه الاقتصار في سوق القصص على المقصود بذكر الأجزاء التي تخدم الهدف، وطيّ الفصول التي لا تخدم الغرض الأساسي من القصة.

قال ابن عطية: «وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية»[(٢)].

فتأتي قصص القرآن وافية بالمقصود، من غير إسهاب ولا إملال.

قال السيوطي: «من الاختزال: حذف جمل كثيرة نحو: ﴿...فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٥ ـ ٤٦]؛ أي: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره عن الرؤيا ففعلوا، فأتاه فقال له: يا يوسف»[(٣)].

فلم يذكر ذلك التفصيل، لأنه مفهوم ضمناً، وعادة القرآن عدم ذكر ما لا حاجة إليه.

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف]، ثم ينتقل السياق وقد حضروا عند أبيهم مباشرة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ [يوسف].

فلم يذكر ما اتفقوا عليه قبل ذهابهم لأبيهم؛ لأن الآيات التي بعدها أشارت أنهم عزموا على الرأي الذي أشار به أخوهم، ودخلوا بقولهم في

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٥٦٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٦٩.
(٣) الإتقان ٢/ ١٣٩.

مرحلة التنفيذ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف: ١٥].

وابتدأت قصة يوسف عليه السلام من الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف].

فلم يذكر ولادته ونشأته، وتربيته، وحاله مع أبيه، وحاله مع إخوانه، وغير ذلك، بل ابتدأت بالمهم من القصة.

ـ **وكذلك قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب** عليهم السلام، فلم تسرد بداية حياتهم، كما جاء في قصة موسى وعيسى عليهما السلام، حيث كان في قصة ولادتهما هدف وغاية.

وقصة آدم عليه السلام:

فلم يأت في القرآن وصف نزوله من الجنة إلى الأرض وحياته فيها بل كان الاقتصار على قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [طه].

فلم تشر الآية إلى مكان النزول، وكيف عاش وسكن؟.

فهذه مما يُفكِّر فيه القارئ، ولكنها ـ والله أعلم ـ أُغفلت لكي لا تكون سبباً لإبعاده عن المقصود من القصة.

وقصة أصحاب الكهف:

فلم يذكر القرآن ماذا فُعل بهم بعد العثور عليهم، بل اقتصر على ذكر اختلاف القوم في شأنهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ۝٢١﴾ [الكهف].

فالله أعلم ماذا عمل بهم، وكيف كانت حال قومهم من بعدهم.

ولم تُذكر في قصة أصحاب الكهف التفاصيل التي لا حاجة لها، بل بيَّن

تعالى أن المراء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه، بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، فالفائدة المرجوة ظاهرة في أفعالهم وثباتهم على الدين، وفرارهم بدينهم خوفاً عليه.

قال الشاطبي: «كلُّ حكايةٍ وقعتْ في القرآن، فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها ـ وهو الأكثر ـ رَدٌّ لها أو لا، فإنْ وَقَعَ رَدٌّ؛ فلا إشكال في بطلان ذلك المحكي وكذبه، وإنْ لم يَقَع معها رَدٌّ؛ فذلك دليلُ صحةِ المحكي وصِدْقِهِ»، إلى أن قال: «ولاطراد هذا الأصل: استدل على أن أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم بأن الله تعالى لما حكى من قولهم أنهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وأنهم: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، أعقب ذلك بقوله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: ليس لهم دليل ولا علم غير اتباع الظن، ورجم الظنون لا يغني من الحق شيئاً، ولما حكى قولهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ لم يتبعه بإبطال بل قال: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ دل المساق على صحته دون القولين الأولين»[(١)].

ويبقى أن هذا القول لمعرفة طريقة استنباطهم لترجيح القول، وإلا فلا ثمرة من معرفة عددهم، ولذلك لم يذكر العدد صراحة، وعالجت القصة الأهم وهو أدب المِرَاء، وردُّ العلم إلى الله.

قال ابن تيمية: «وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ . . كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم،

---

(١) الموافقات ٤/١٥٨ ـ ١٦١، وكذلك قال ابن عثيمين، وقال أيضاً: «نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكت عن الأول؛ فدل على أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ (صحيح). تفسير سورة الكهف ٤٢.

وعصا موسي من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب»[1].

والشاهد أن القصة في سياقها أبرزت الأحداث المهمة دون النظر إلى الأشخاص، فمن هم؟ وأين مكانهم؟ وما أسماؤهم؟، ونحو ذلك مما أُغفل من القصة، إبقاء على المقصود.

فلو فصلت القصة في هذه الأمور لانصرف فكر القارئ إلى تتبع أحداث ليست هي الغاية، وغفل عن العبرة والعظة التي سيقت القصة من أجلها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٦٧.

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص].

فقد طُوِيَ من النص بين الآيتين ثمان أو عشر سنوات؛ لأن الله تعالى قال على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨].

وموسى قضى أكثر الأجلين، كما أخبر بذلك حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب، فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل»[(١)].

ففي كل موضع تَرِد فيه القصة يكون التركيز على ما يخدم هدف القصة وغرضها الأساسي.

وقصة قوم يونس عليه السلام:

حيث قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات].

فلم يقص تعالى علينا نبأهم وما حصل لهم خلال هذا المتاع، فهو غيب في علم الله تعالى، وهو العليم الحكيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٣٦ (٢٦٨٤)، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب، ينظر: فتح الباري ٥/ ٢٩١، وقد صرح برفعه عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: «**أي الأجلين قضى موسى؟**» قال: «أتمهما» أخرجه الحاكم المستدرك ٢/ ٤٤٢، (٣٥٣٢)، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

ومن خلال قصته كذلك أدلة على أن فيها ما طوي ذكره لعدم الحاجة إليه، والله أعلم.

قال أبو حيان: «ففي قصة يونس عليه السلام هنا جمل محذوفة مقدرة قبل ذكر فراره إلى الفلك، كما في قصته في سورة الأنبياء في قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ هو ما بعد هذا، وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، جمل محذوفة أيضاً»(١).

وقال السعدي: «وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها»(٢).

ومما يدل على اقتصار قصص القرآن على المقصود، عدم اتحاد مكان البداية في ذكر القصص، ولا مواطن الاستشهاد، بل يُراعَى في ذلك ما يناسب السياق، ويخدم الغرض المسُوقةَ من أجله.

فأحياناً تُذكر القصة من أول أجزائها؛ لما في هذا الحدث من عبر وعظات.

ـ **كما في قصة آدم** عليه السلام، جاء الحديث عن بداية خلقه؛ لما فيه من إظهار قدرة الله تعالى، وكمال علمه، ونعمته على آدم وذريته، والإشارة إلى ما حصل معه من إبليس، فكل حدث فيه من الدروس والعبر الكثير.

ـ **وكذا قصة مولد موسى** عليه السلام، وما فيها من الآيات، ونجاته من ذبح فرعون للذكور، وتربيته في بيت فرعون، وما هيأه الله له بعنايته وتوفيقه.

ـ **وكذا قصة مولد عيسى** عليه السلام، وقصة أمه قبله؛ لأن فيه آية كبرى، ودليلاً على قدرة الخالق الكاملة.

ـ **وكذلك الإشارة إلى مولد إسماعيل وإسحاق** عليهما السلام؛ لأن في هذا المولد عبرة، فإسماعيل رزقه الله إبراهيم عليه السلام على كبر، وأسكنه بواد غير ذي

(١) البحر المحيط ٧/٣٥٩.

(٢) تفسير السعدي ٥٢٩.

زرع، وإسحاق بُشر به إبراهيم وامرأته عجوز وقد بلغ من الكبر عتياً.

ـ **وكذلك أُشير في القرآن لمولد يحيى لزكريا**؛ لأن فيه آية على قدرة الله، حيث رزقه الله بعد أن وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

وأحياناً لا تُذكَر أول القصة بل يُشار إلى أجزاء متوسطة منها؛ لأنه محلّ الهدف.

ـ **كما في قصة إبراهيم** عليه السلام حيث بدأت قصته من دعوته لقومه، ومحاولة إقناع أبيه وقومه إلى عبادة الإلٰه الواحد، وعدم استجابتهم، ومحاولتهم إحراقه، فينجيه الله منهم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

ـ **وكذا قصة يوسف** عليه السلام بدأت من الرؤيا وعرضها على أبيه ثم تسير القصة بعد هذه الرؤيا ليأتي تأويلها في نهاية القصة.

وأحياناً تأتي الإشارة إلى حدث متأخر من القصة.

ـ **كما في قصص أكثر الأنبياء؛ كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب** عليهم السلام، فبداية قصصهم عند إرسالهم إلى أقوامهم، وهي أهم مدة في القصة، والعبرة والأثر موجود فيها.

هذا كله من ناحية الابتداء، فلا يكون إلا في موطنِ العظة والعبرة، والحدثِ المؤثر في القصة؛ الموافق لأهداف القرآن وغاياته، والله تعالى أعلم.

وبعد التأمل في سياقات القصص، ودقتها، تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن القصص القرآني يركز على أحداث ومشاهد القصة التي تكون محلاً للفائدة، وخصوصاً ما فيه عظة وعبرة، دون ما خلا منها.

٢ ـ أن غالب ما يطوى من القصة معلوم منها بالضرورة إجمالاً؛ لوجود الثغرة الزمنية بين الأحداث، ولكن الله أعلم بتفاصيله.

٣ ـ ذكر المدة الزمنية للقصة، واختيار جزء منها، دليل على أن أحداثاً كثيرة قد طويت في علم الغيب، فلم يُذكر إلا محل الفائدة، كما في قوله

تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت]، جاء التصريح هنا بالمدة الزمنية التي لم تذكر كل أحداثها وتفاصيلها الطويلة.

٤ ـ في مواطن كثيرة من القصص يُستدل على المتروك في موضع من المواضع الأخرى في السياقات المختلفة.

قال أبو حيان: «وبمجموع القصص يتبين ما حذف في كل قصة منها»[(١)].

٥ ـ ومن خصائص قصص القرآن أن لكل حذف أو اقتصار دليلاً عليه، وكذلك يكون له سرٌّ بلاغي في كل موضع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

الطول والقصر في القصة

المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أسلوب القصص في أعلى صوَرِه، فقد حققت القصص أهدافها، مع مراعاة الدقة في ألفاظها.

فعادة القرآن الإجمال تارة في القصة، والتفصيل تارة أخرى، وهذا أسلوب جميل وله موقع في النفوس كبير، ومن خلاله تتحدد الأمور المهمة في القصة، فسياق القصة المجمل يكون كالأساس لها، والتفصيل للإيضاح حسب المقصود فيتم البيان.

قال السعدي: «وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أُجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلى التفصيل»[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٥٩.

(٢) القواعد الحسان ١٢٨.

ومن تأمل في قصص القرآن من حيث الطول والقصر، وجد أنها على أنواع(١):

❐ الأول: قصص قصيرة:

ففي القرآن قصص جاءت الإشارة إليها بشكل سريع، أو الاقتصار على أحد أجزائها.

ـ كما في قصة إلياس عليه السلام

في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصَّافات].

ـ وقصة يونس عليه السلام.

جاءت الإشارة لها في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]، وفي سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، وفي سورة الصافات بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصَّافات]، إلى قوله: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات].

فقصة يونس اقتصرت على خروجه وابتلاع الحوت له ثم نبذه بالعراء، ورسالته لقومه وإيمانهم به.

ـ وقصة أيوب عليه السلام.

فقد جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، وفي قوله

---

(١) طول القصة وقصرها أمر نسبي من خلال النظر إلى غيرها من قصص القرآن.

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص].

فقصة أيوب عليه السلام تُركِّز على مسِّ الضر له، ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه.

ـ وقصة أصحاب الأخدود.

جاءت الإشارة لها في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج] إلى قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج].

ـ وقصة الذي انسلخ من آيات الله.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

❑ الثاني: قصص متوسطة:

وفي القرآن من القصص ما أُشير إلى جزء من القصة أكثر من سابقه، وأقل من لاحقه، فتعتبر متوسطة نسبياً.

ـ كما في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

مع أنها تكررت في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وغيرها إلا أنها ليست طويلة؛ فتعرضُ القصة للرسالة والحوار مع قومهم، وتكذيب هؤلاء القوم، ثم إهلاكهم جميعاً.

ـ وقصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين كما في سورة الكهف.

وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم؛ كلها اقتصرت على القدر الذي تحصل به العظة والعبرة.

□ **الثالث: قصص طويلة:**

وهذا النوع ليس بكثير في القرآن لأن عادة القرآن الاختصار والاقتصار على المفيد، وقلة الألفاظ مع كثرة المعاني، ولذلك يبحث العلماء الحكمة في الطول إن وجد، وأوضح مثال لها قصة يوسف عليه السلام، فقد جاءت مفصلة من أول سورة يوسف إلى آخرها.

فهي أطول قصة في القرآن جاءت متسلسلة الأجزاء، ومرتبة ترتيباً زمنياً، كما وقعت.

ومن أسرار ذلك ـ والله أعلم ـ طلبُ الصحابة رضي الله عنهم[(١)].

قال الواحدي بإسناده: «عن سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قال: أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن»[(٢)].

قال السيوطي: «قلت: وظهر لي جواب، وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في مستدركه[(٣)] فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص، من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٦، ولا يلزم من ذكره حصر العلة به.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ٢٥٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٧٦ (٣٣١٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية ١٤/٧٣٨ (٣٦٣٤)، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٧/٤٠، مرفوعاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشهد له ما أخرجه الطبري في التفسير ١٥/٥٥٢، (١٨٧٧٥)، وينظر: الدر المنثور ٨/١٧٩.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الإتقان ٢/١٤٩.

❐ الرابع: قصص جاءت في موضع مطولة وفي موضع آخر مختصرة:

ومن قصص القرآن ما يأتي أحياناً مطولاً، وأخرى مختصراً، وفي بعض المواضع إشارةٌ سريعة لمراعاة ما يناسب السياق.

ـ كما في قصة موسى عليه السلام.

جاءت مطولة في سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة القصص، وسورة غافر.

وجاءت أقل من ذلك في سورة يونس، وسورة النمل.

وجاءت مختصرة في سورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الذاريات، وسورة النازعات.

ولما كانت هذه القصة هي أكثر قصص القرآن تكراراً، بعَرضٍ مطول أحياناً ومختصر في أحيان أخرى، فسأُشير إلى أهم المراحل التي مرت بها من خلال القرآن مراعياً ترتيب نزول السور[1]:

١ ـ في سورة الأعلى إشارة لموسى بقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]، وهي أول سورة ذُكر فيها موسى من حيث النزول.

٢ ـ ثم في سورة الفجر إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى، في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

٣ ـ ثم في سورة الأعراف بدأ التفصيل الأول للقصة بعد قصص الأنبياء نوح، وهود، ولوط، وشعيب، عليهم السلام حيث اتحدت في قصصهم طريقة الدعوة ومقابلتهم بالتكذيب، والنهاية المؤلمة للمجرمين.

وقد بدأت القصة برسالة موسى وهارون إلى فرعون وملئه، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف]، ثم أشارت لمعجزة العصا

---

(١) ترتيب النزول حسب ما نقله السيوطي في الإتقان ١/٥٣.

واليد، وجمع السحرة، وحرصه على الغلبة، وانتصار الحق، وهزيمتهم، وسجود السحرة، وتعذيب فرعون لبني إسرائيل بعد ذلك، وإرسال الطوفان الجراد والقُمّل والضفادع والدم على فرعون وقومه ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] واستغاثتهم بموسى، وكف الأذى عنهم، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف] ثم خروج هؤلاء من مصر، وبعد الخروج طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلهاً كما للقوم الذين مروا بهم آلهة، وتذكيره لهم بربهم، ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة، وزيدت إلى أربعين، وطلبه رؤية ربه، ودك الجبل وصعق موسى وإفاقته، وعودته إلى قومه حيث وجدهم قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً، وغضبه على أخيه، ثم اختيار سبعين رجلاً منهم لميقات ربه، وغشيتهم بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم، ثم دعائهم بطلب الرحمة، فالرد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذي يتبعون النبي الأمي.

٤ ـ ثم في سورة الفرقان إشارة للرسالة، والتكذيب، وإهلاك المكذبين، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان].

٥ ـ ثم في سورة طه يأتي تفصيل آخر، ابتداء من موضع أسبق من الرسالة التي ذكرت في سورة الأعراف، وهو رؤية موسى للنار من جانب الطور، في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه].

وبعد أن يكلّف الذهاب إلى فرعون، يحاور ربه ليُرسل معه هارون، يشدّ أزره ويكون وزيراً له، فيذكّره الله بنعمته عليه في مولده، ورده إلى أمه، ثم تسير القصة كما سارت في الأعراف مع ترك آيات الجراد والقمل والضفادع

والدم، وعهد فرعون لبني إسرائيل ونكثه، لكن زادت أن السامري هو الذي صنع العجل، وتفصيل قصة صنعه.

٦ ـ ثم في سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء]، فابتدأت القصة من إرساله إلى فرعون، ثم مثل المراحل التي مرت في سورة الأعراف، ولكنها تزيد: ذِكْر موسى أنه قتل رجلاً منهم فهو يخشى أن يؤخذ به، وتذكير فرعون له بأنه قد رُبي فيهم وليداً، وفعل هذه الفعلة ومضى، وذِكْر انفلاق البحر كالطود العظيم.

٧ ـ ثم في سورة النمل ابتدأت القصة من رؤية موسى النار، وموقفه مع ربه، ثم التركيز على تكذيب فرعون وقومه، وبيان سوء عاقبتهم.

٨ ـ ثم في سورة القصص ابتدأت القصة من ولادته، ووضعه في التابوت، وإلقائه في البحر، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، ثم التقاط آل فرعون له، وتحريم المراضع عليه، وقول أمه لأخته قصي أثره، ومعرفتها بأمره، وإشارتها على آل فرعون بمرضع للطفل هي أمه، ثم لما كبر آتاه الله الحكم والعلم، ثم قتله للرجل، ومحاولته قتل آخر، وتهديده إياه بافشاء سر القتلة الأولى، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص]، ونصح رجل له بالهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى، وخروجه إلى أرض مَدينَ، والتقائه ببنتي الشيخ الكبير، وسقيه لهما، وحض إحداهما أبيها على استئجاره، وزواجه بابنته حسب شرطه، ثم انفصاله عنه وذهابه بأهله، ثم رؤيته النار ـ التي بدأ منها القصة في سورة طه ـ، ثم تسير القصة كما سارت هناك، بزيادة تهكم فرعون في قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]، وتنتهي بغرق فرعون في اليم، وسوء عاقبتهم في القيامة.

٩ ـ ثم في سورة الإسراء إشارة قصيرة لإغراق فرعون والتمكين لبني

إسرائيل، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

١٠ ـ ثم في سورة يونس بيان لعاقبة التكذيب، والإشارة إلى قصة السحرة، وتجاوز بني إسرائيل البحر، واتباع فرعون لهم وغرقهم، وزاد فيها: حال فرعون لما أدركه الغرق، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، فجاء الرد عليه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢]، ولم ترد في غير هذه السورة.

١١ ـ ثم في سورة هود في أربع آيات إشارة إلى سوء عاقبة فرعون ومن تبعه، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود].

١٢ ـ ثم في سورة غافر جاء الحوار بين موسى وفرعون، ويزيد فيه قول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]، وكذلك زيادة قصة رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، ويدافع عن موسى وينصحهم عليهم ألا يقتلوه، فقد يكون على صراط مستقيم، ولم يتكرر هذا كغيره من فصول القصة.

١٣ ـ ثم في سورة الزخرف إشارة مختصرة إلى إرسال موسى إلى فرعون، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّخرف]، وأشار إلى استغاثتهم بموسى لكشف العذاب، ونكثهم الوعد، وفيها زيادة نداء فرعون: ﴿...أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرف]، وهذا لم يتكرر في القرآن.

١٤ ـ ثم في سورة الذاريات عرض قصير للقصة، في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات].

١٥ ـ ثم في سورة الكهف، قصة موسى مع الخضر، ولم تذكر في موضع آخر.

ثم في السور المدنية التطرق لقصة موسى، من جوانب مهمة.

١٦ ـ كما جاء في سورة البقرة، التفصيل في بعض مواقف موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، كتذكيرهم بنعمة الله عليهم ومقابلتها بالجحود، وكذلك إعطاؤهم المن والسلوى، ويزيد هنا: الإشارة إلى احتقارهم النعم وطلبهم أطعمة أخرى.

ثم الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة من شدة عنتهم وتكبرهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

ثم يأتي الحديث عن أمرهم بذبح البقرة، وترددهم، وأسئلتهم عن صفاتها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١].

١٧ ـ وكذلك في سورة النساء الإشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة، لبيان شدة عنادهم، في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

١٨ ـ ثم في سورة المائدة الإشارة إلى تذكير موسى بالنعم على بني إسرائيل، وأمرهم بدخول الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة]، فأجابوه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة].. إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

ثم يأتي بعد ذلك تركهم في التيه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، ولا تأتي الإشارة بعد ذلك إلا إلى تفرق بني إسرائيل وعدائهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

فذَكر هذه التفصيلات في قصة موسى من أولها إلى تفَرُّق بني إسرائيل؛ لأن في كل موطن من مواطن القصة هدفاً من أهداف القرآن.

وبعد هذا العرض الموجز يتبين لي:

١ ـ أن في السور المكية أحداثُ قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهذا يناسب دعوة الكفار من قريش وغيرهم في مكة حيث التعامل الأكثر حينها مع الكفار والمعارضين.

وفي السور المدنية مواقف بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام ولكنهم آذوه أو اعترضوا على أوامره، أو ترددوا في قبولها، ونحو ذلك، وهذا يناسب تأسيسَ الدولة، وقيادة الأمة، وتوجيه الصحابة، ومن دخل في دين الله؛ حيث كثر الأتباع لنبينا محمد ﷺ.

٢ ـ أن أحداث القصة كثيرة، وأن التكرار قليل جداً في أحداثها الأساسية، وإذا وقع جيء بشيء جديد، إذ الأكثر الإشارة اليسيرة إلى مواضعَ يقتضيها السياق، مرة من أول القصة وأخرى من وسطها، وتارة من آخرها، وقد تُعرَض كاملة، وقد تكون من هذا وهذا، كل ذلك حسب ما يخدم الهدف من إيرادها، وهذا من عظمة هذا القرآن وإعجازه في قصصه، كما هو معجز في بيانه.

ـ **وعادة القرآن أيضاً الإجمال في القصة ثم التفصيل فيها**، فالطول والقصر حسب ما يناسب السياق، ومقتضى الحال، وهذا مما يزيد القصة بياناً ووضوحاً.

ـ **كما في قوله تعالى في قصة آدم**: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، ثم جاءت القصة مفصَّلة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [طه]، إلى قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

ـ **وكذلك في قصة أصحاب الكهف**، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف].

فهذه الجمل بينت القصة وهدفها إجمالاً، ثم كررت بأسلوب أكثر بسطاً فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف]، إلى آخر القصة، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف].

ـ **ومن الأمثلة قصة موسى** عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص]، إلى قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص]، فهذا مجمل القصة، ثم أتى بالتفصيل بعده فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص]، إلى نهاية ما ذكر الله عنه، ونهاية فرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/١٣٨.

قال السعدي: «من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها»[(١)].

هذا؛ وقد جاءت الإشارة في كتاب الله تعالى أنه لا طريق للوصول إلى هذه القصص بتفاصيلها إلا بالوحي، لتَدُل على صدق القرآن وصدقِ من جاء به، كما قال تعالى بعد قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى بعد قصص الأنبياء: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى قبل قصة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد نهاية القصة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]، وقوله تعالى بعد قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص].

قال السعدي: «وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]»[(٢)].

وفي هذا الأسلوب القصصي في القرآن بيان الطريق الصحيح لتحقيق الأهداف منها، فليس المراد مجرد السرد التاريخي وعرض الأحداث فحسْب، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]،

---

(١) القواعد الحسان ١٢٧.

(٢) القواعد الحسان ١٤.

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

فالقرآن له رسالة، والقصص من وسائل إيصال هذه الرسالة، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

تكرار القصة

من عادات القرآن تكرارُ ما يستحق التكرارُ من الأمور المهمة؛ ليجدَ سبيله إلى النفوس النافرة، والطباع العصية، ومن عادة القرآن في أسلوبه تكرار القصةِ وقرنها بالوعد والوعيد(١).

وقد أخذت القصص القسط الأكبر من بين موضوعات القرآن.

وتكرار قصص الأنبياء عادة بارزة في مواضع كثيرة من القرآن، ولحكم عظيمة.

قال مكي: «وقد كرر الله ﷻ قصص الأنبياء وأممها، في سور كثيرة بألفاظ مختلفة، ومعانٍ متقاربة»(٢).

وقال السيوطي: «والتكرير أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، ومن فوائده: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبَّه سبحانه على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣]»(٣).

ومن أهم الحِكَم في تكرار القصص:

نزول القرآن منجماً حيث تُراعى الأحوال والأزمان والأماكن، واكتمال

---

(١) ينظر: مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٥٩.
(٣) الإتقان ١/ ١٤٤.

القصة شيئاً فشيئاً، وحصول الإعجاز بها، وتمكين العظة والعبرة في النفوس.

قال ابن قتيبة: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض: تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ: تنبيهاً لهم من سِنَة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدّد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ: استعباداً له واختباراً لبصائرهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بالتثبيت: هو والمؤمنون»(١).

وقال مكي: «علة تكرار القصص في القرآن: أن القرآن نزل شيئاً بعد شيء نُجُوماً، في ثلاث وعشرين سنة، فكانت العرب ترد على النبي ﷺ، من كل أُفُق فيقرئهم المسلمون السورة من القرآن، فيذهبون بها إلى قومهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة، بالسور المختلفة، فيبلغ إلى هؤلاء من القصص ما لم يبلغ إلى هؤلاء، فثنى الله القصص وكررها ليكون يبلغ إلى هؤلاء ما يبلغ إلى هؤلاء إشهاراً منه لهذه القصص ليتعظ بها من بلغته، ويعلم أنها دلالة على نبوة من أتى بها، ويعيها كل قلب، ويزداد الحاضرون السامعون لتكرارها تَفَهُّماً»(٢).

واقتصر على هذا الجواب ابن الجوزي في قوله: «وإنما قيل له: ﴿مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمر: ٢٣]؛ لأنه كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب.

فان قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والواحدة قد كانت تكفي؟

فالجواب: أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة مكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، فأراد الله

(١) تأويل مشكل القرآن ١٤٨.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٤٦٠، ٢٤٦١.

تعالى أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها إلى كل سمع»(١).

وذكر هذا ابن تيمية، وقال: «وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»(٢).

وقال ابن جزي: «فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى؛ ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريقة الإطناب، وفي مواضع على طريقة الإيجاز؛ لتَظهر فصاحةُ القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد فمن المقاصد بها: إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك، ومنها: إثبات النبوة لمحمد ﷺ لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد»(٣).

والقصص المتكررة تأتي في كل موضع بصورة مختلفة، كما في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد اجتمع في هذه القصص من جهة المعنى:

١ ـ اتحاد الوظيفة في الدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء].

٢ ـ تشابه أحوال الأمم مع أنبيائها في الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سبأ].

٣ ـ تشابه العاقبة للمؤمنين، وللكافرين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف].

(١) زاد المسير ٧/ ١٧٥.
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ١٦٨.
(٣) التسهيل ١/ ٩.

وفي قصة كل نبي كثيرٌ من الفوائد والعبر والعظات.

وإذا كررت قصة النبي الواحد، فالهدف يختلف من موضع لآخر، وإذا تغير الهدف روعي اللفظ دون إخلال بالمعنى، فيأتي الاختلاف في الطول والقصر، والاختلاف في الصياغة، والأحداث المتناولة، وطريقة عرضها، وكأنها قصة جديدة في كل موضع.

قال الباقلاني: «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً، من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة»(١).

ومن أكثر القصص تكراراً في القرآن:

قصة موسى مع فرعون، فقد ذكرت في كثير من سور القرآن الكريم منها:

سورة البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، وهود، وطه، والقصص، والشعراء، والنمل، والنازعات.

قال الزركشي: «ومن التكرار: تكرار القصص في القرآن؛ كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء، قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه، قال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية»(٢).

ولعل من أهم أسرار تكرار قصة موسى عليه السلام مع قومه:

١ ـ قربهم من كفار قريش زماناً ومكاناً.

٢ ـ التشابه الكبير في المواقف بين القوم ونبيهم.

قال ابن القيم: «ولهذا يذكر الله سبحانه وتعالى قصة موسى عليه السلام، ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول رسول الله عندما يناله من أذى الناس: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر(٣)، ولهذا قال النبي إنه كائن في أمتي ما

(١) إعجاز القرآن ٦١.

(٢) البرهان ٣/ ٢٥، الإتقان ٢/ ١٤٨.

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال رجل: إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فغضب حتى رأيت =

كان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله(١)، فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين»(٢).

أظهَر الله تعالى في قصة موسى من خلال مواضع تكرارها بداية حياة موسى عليه السلام، إلى أن تآمر الملأ ليقتلوه، ثم خروجه إلى بلاد الشام، ومروره بمدين، ونزوله على شعيب، ومسيره بأهله إلى مصر، وإرساله إلى فرعون، وصراعه معه، وإسرائه بعباد الله إلى الشام، ثم المواقف معه من بني إسرائيل، إلى نهاية حياته.

وفي كل موقف أحداث كبيرة، ودروس وعبر، وفي كل موضع يُذكر من القصة ما يقتضيه السياق، ولذا لم تأت القصة على أسلوب ولفظ واحد، بل يأتي في موضع ما يُطوى في موضع آخر.

قال الزركشي: «وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر»(٣).

ـ ولهذا جاء تكرار قصة نبي الله موسى عليه السلام تارة ببيان فضل الله تعالى

= الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» أخرجه البخاري ٤/ ١٩١ (٣٤٠٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم ٢/ ٧٣٩ (١٠٦٢)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه.

(١) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**» أخرجه الترمذي ٥/ ٢٦ (٢٦٤١)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ١/ ٦١ (١٧١) بعد أن عزاه للترمذي: «قلت: علته عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف» وحسنه في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٣٤ (٢١٣١)، وأورده في صحيح الجامع وزيادته ٢/ ٩٤٣ (٥٣٤٣)، وعزاه للترمذي عن عبد الله بن عمرو وقال: حسن، فالظاهر أنه ضعف سند الترمذي فقط، وحسَّن الحديث لما له من الشواهد. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٣٤ (١٣٤٨)، والله أعلم.

(٢) جلاء الأفهام ١٩٩.

(٣) البرهان ٣/ ٢٥.

عليه وعلى بني إسرائيل، كما في آيات كثيرة من سورة البقرة.

ـ وفي سورة طه وسورة القصص تفصيل ولادة موسى عليه السلام، ونشأته في بيت فرعون.

ـ وتارة بالحديث عن مناظرة موسى عليه السلام لفرعون، وقصته مع السحرة، وإيمانهم، وقيام الحجة على فرعون كما في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة طه وسورة الشعراء.

ـ وفي سورة غافر الإشارة إلى قصة الرجل المؤمن الصالح الذي وقف مع موسى ودعا فرعون إلى الإيمان ونصح قومه وأنذرهم.

ـ وتارة يأتي الحديث بتفاصيل أخرى من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وتعامله مع عنادهم وعنتهم، كما في سورة البقرة وسورة المائدة، وسورة الأعراف وسورة طه وسورة النمل.

ـ وفي سورة الكهف قصته مع الخضر.

ـ وتارة ببيان ما حل بهم من العقوبات الإلٰهية والنقمة الربانية جزاء كفرهم وبغيهم، كما في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة طه، وسورة الشعراء.

قال ابن تيمية: «وقد ذكر الله هذه القصة ـ قصة موسى ـ في عدة مواضع من القرآن، يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر» إلى أن قال: «يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدةً فصفاتُها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأُخر»(١).

ومن الأمثلة:

تكرر قصة آدم عليه السلام في عدد من سور القرآن:

كما في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٦٧.

وفي كل موضع من هذه المواضع يأتي الحديث حسب ما يناسب السياق.

ـ فجاءت القصة في سورة البقرة في سياق تذكير الناس بالنعم الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى نهايته، وبيان كفرهم وجحودهم، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]، وبيان ما خلقه الله تعالى لهم في هذه الحياة ليتمتعوا به، بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة] ثم جاءت قصة آدم وفيها تكريم الله للإنسان باختيار آدم خليفة في الأرض، وتعليمه الأسماء التي لا تعلمها للملائكة، فهو استمرار في التذكير بنعم الله عليهم، والتناسب بين التذكير بابتداء خلقهم وابتداء خلق أبيهم آدم عليه السلام.

ـ ووردت هذه القصة في سورة الأعراف في سياق الدعوة إلى قبول دعوة الأنبياء، بالتخويف بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف] ثم بالترغيب والتنبيه على كثرة نعم الله على الخلق، مع قله شكرهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف]، وذَكَرت من نعم الله تعالى: خلقَ الإنسان وتصويره، وكل ذلك يوجب الطاعة والإيمان، ولكن يتعرض الإنسان لوسوسة الشيطان وإغوائه، وهذا يقود إلى الجحود، وعدم الشكر، ولذا أسهبت القصة في موقف إبليس العدائي من الإنسان، وأخذ العهد على نفسه لإغواء بني آدم.

ـ وجاءت قصة آدم في سورة الحجر في سياق الدلائل على وجود الله تعالى، من خلق السماوات والأرض، ومشاهد الرياح اللواقح، والحياة والموت، والحشر والنشر، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ

إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر]، ثم بيَّن تعالى أن خلق الإنس من الطين والجن من النار من دلائل وجوده وقدرته وتوحيده، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر]، ثم ذكر تعالى قصة آدم وبدأها بقوله تعالى للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر]، إلى آخر الآيات، ففيها الدلالة على قدرة الله تعالى وحده في خلق الإنسان الأول من غير أبوين، فالقصة فيها إشارات ومعان، أهمها:

تكريم الله تعالى للإنسان بخلقه وأمر الملائكة بالسجود له، وإباء إبليس قائلاً: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٣]، متكبراً، ومعللاً بأنه خير منه كما في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]، ثم بيَّن تعالى خطورة عصيانه، بالترهيب ثم الترغيب.

وجاءت قصة آدم في سورة الإسراء في سياق الكبر والحسد، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]، هذه الحالُ من المشركين مع النبي ﷺ، بعد فتنتهم بالرؤيا ليلة الإسراء، وبالشجرة الملعونة، فكفر من كُتب عليه الكفر، وصدَّق من كُتب له الإيمان، شابهت ما حصل في قصة آدم عليه السلام وإبليس حيث حمله الكبر والحسد على عدم السجود، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]، ومن المناسبة بينهما أيضاً ـ والله أعلم ـ أنه لما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠]، بين سبب هذا الطغيان، وهو قول إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

وهذا يُقَرر أن تكرار القصة في القرآن يُظهر جوانب مختلفة منها في كل موضع، بتحقيق هدف آخر، وتنويع معجزٍ للعرب، وبيانٌ لما صاحب القصة

من أحداث مهمَّة، وأن النظر إلى سابق القصةِ ولاحقها يُبين حقيقة تكرار القصة وإعادتها، فالقرآن تنزيل من حكيم حميد، يذكر في كل مكان ما يناسب الحال، فسبحان الحكيم العليم.

ومن الأمثلة:

ذكر الله قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة، ومنها:

سورة الأعراف، والتوبة، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والمؤمنون، والشعراء، والصافات، والقمر، وسورة نوح كاملة.

وهي أول قصص الأنبياء عادة عند تكرار قصصهم، ويتلوها من بعده من الأنبياء في سياق متناسب مع موضوع السورة ومقاصد الآيات.

ومن تتبع قصص الأنبياء في القرآن وجد أن الأصل فيها التكرار، ولذا أجاب العلماء عن أسباب عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام.

قال ابن عطية: «وسورة يوسف لم يتكرر من معناها في القرآن شيء كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حُجة على من قال في هذه: لو كُررت لفترت فصاحتها»(١).

وأذكر على وجه الإيجاز أهم الأسرار لعدم تكرار قصة يوسف عليه السلام:

١ ـ أهمها أنها أدت الغرض المقصود من إيرادها بالمرة الواحدة، لاختلافه عن القصص الأخرى(٢).

قال السيوطي: «وهو أقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله، فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى في آيات: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٩.

[الأنعام: ٦]، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك، وبهذا أيضاً يحصل الجواب عن حكمة عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح»[١].

٢ ـ أن هذا من أوجه الإعجاز، فقصص الأنبياء تكرر تارة، وقصة يوسف وبعض القصص لم تكرر، فالتحدي للعرب في الأمرين.

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً به ومكرراً»[٢].

أي: إن العلماء نبهوا على عجز العرب عن الإتيان بمثل قصص القرآن المكرر وغير المكرر[٣].

وقال القرطبي: «قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل»[٤].

٣ ـ وأضاف بعضهم ما فيها من الحديث عن النساء، وشؤونهن مبنية على الستر، وعدم التكرار[٥].

ولما تأملت في تكرار قصص الأنبياء تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن تكرار القصص في الظاهر يدعو إلى تأمل المعاني الجديدة في كل موضع؛ لأن فيه تكراراً لأجزاء القصة المراد بيانها، وبه تتكامل فصول القصة، ويتبين الموقف من جميع جوانبه.

ولا يخلو تكرار قصة من حاجة إليه، أو زيادة فائدة، أو تأسيس معنى جديد.

قال ابن تيمية: «والملائكة أَرسلوا الحجارة من السماء على قرى قوم

(١) الإتقان ٢/١٤٩، ١٥٠.
(٢) إعجاز القرآن ٦١.
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ١/٥٦.
(٤) تفسير القرطبي ٩/١١٨.
(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/١٤٩.

لوط، وقد ذكر الله قصتهم في مواضع من القرآن، في سورة هود، والحجر، والعنكبوت، وفي كل موضع يذكر نوعاً مما جرى»[١].

٢ ـ وجود الارتباط الدقيق بين القصة وسياق الآيات، فقد يستدعي السياق الاستشهاد بجزء من القصة ليكون شاهداً أو عبرة في الموضوع الذي جيء بالجزء من القصة لأجله، وذلك من خلال النظر إلى سابق القصة ولاحقها، فكلما تكررت كان هناك جديد تؤديه؛ لاختلاف الغاية التي تساق من أجلها، فقد يستشهد بالقصة الواحدة في عشرات المواضع؛ لأن فيها لكل مناسبة ما يصلح أن يكون شاهداً أو عظة أو عبرة، فتذكر بعض معانيها الوافية في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

قال البقاعي: «المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى، أو بعضه، ولم يكن هناك مناقضة، فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة، ثم إن الله تعالى يُعبِّر لنا في كل سورة تُذكر القصة فيها بما يناسب ذلك المقام في الألفاظ، عما يليق من المعاني، ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام»[٢].

٣ ـ أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعَجِز القوم عن الإتيان بمثله، وكما تحداهم بتنوع أساليبه، وعجزهم، تحداهم بأسلوب واحد، كتكرار القصة؛ إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم، أو أي عبارة، والله جل وعلا وحده هو القادر على ذلك[٣].

قال الباقلاني: «ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً ومكرراً»[٤].

وكل قصة كررت أُلبِست زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً، وإجمالاً وبياناً، ولم يحدث مللاً ولا سآمة؛ وكل ذلك فيه الدليل على بلوغ القرآن أعلى مراتب البلاغة.

---

(١) الرد على المنطقيين ٤٩٤.
(٢) نظم الدرر ١/ ١٠٤.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧.
(٤) إعجاز القرآن ٦١.

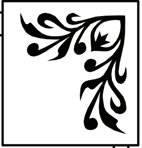
وفي تكرار القصة تكامل أجزائها، وتعبيراتها، في أسلوب منتظم جميل.

وفي تكرار القصص جذب النفوس إلى سماع القصة كاملة لما جُبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة(١).

٤ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين العبرة والعظة في النفوس، إذ التكرار ينبه الغافل، ويزيد إدراكاً من لم يغفل.

٥ ـ وفي تكرار قصص الأنبياء تمكين سنن الله في الكون، لتثبت النفس، ويقوى القلب، فلا يجد اليأس إليه سبيلاً، ففي قصص عقوبات الماضين المفسدين تسلية؛ لأن نفوسهم في كل زمان ومكان متقاربة، ووسائلهم في محاربة الحق متشابهة، قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصِّلت: ٤٣]، والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: البرهان ٣/٢٨.

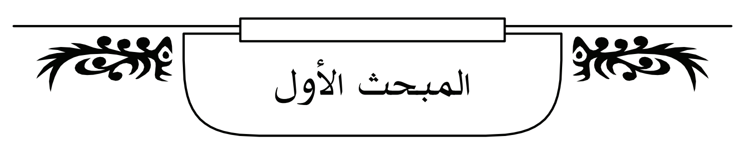
الفصل الثالث

عادات القرآن في خطاباته

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء.
- المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس.
- المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب.



المبحث الأول

خطاب القرآن للأنبياء

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم.**
- **المطلب الثاني: نداء النبي ﷺ بوصفه.**
- **المطلب الثالث: خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته.**

المطلب الأول

نداء الأنبياء السابقين بأسمائهم

عادة الله تعالى في القرآن نداء الأنبياء السابقين ـ قبل محمد ﷺ ـ بأسمائهم.

والأمثلة على هذا كثيرة منها:

١ ـ نداء الله تعالى لآدم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة].

ـ وقال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه].

قال أبو حيان: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى آدم باسمه العلم، وهي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ

مِّنَّا﴾ [هـود: ٤٨]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هـود: ٤٦]، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ [المائدة: ١١٠]»[١].

فبيَّن أن هذه عادة الله مع أنبيائه السابقين عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ نداء الله تعالى لنوح عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود].

٣ ـ نداء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾ [الصَّافات].

٤ ـ نداء الله تعالى لزكريا ويحيى عليهما السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢].

٥ ـ نداء الله تعالى لداود عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص].

(١) البحر المحيط ١/٢٩٨.

٦ ـ نداء الله تعالى لموسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف].

وقد نادى الله موسى باسمه في اثني عشر موضعاً من القرآن، وهي كما يأتي:

ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ [طه].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء].

ـ وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ [النمل].

ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ٣١﴾ [القصص].

٧ ـ نداء الله تعالى لعيسى عليه السلام:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ـ وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ومن تأمل في هذه النداءات ظَهَر له جلياً: عادةُ نداء الأنبياء بأسمائهم الصريحة.

قال الألوسي: «﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ نادى سبحانه آدم باسمه العلم كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه ما عدا نبينا حيث ناداه بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾»[1].

ومن خلال بحث هذه العادة تبين لي:

١ ـ أن النداء بالاسم المجرد لا انتقاص فيه للمنادى، ونداء الله تعالى لأنبيائه بأسمائهم أكبر دليل على هذا المعنى، وما يقع عند بعض الناس من الأنَفَة عند ندائهم بأسمائهم، إنما هو راجع لأعرافهم وعاداتهم.

قال الرضي: «فإن بعض النفوس تأنف من أن تخاطب باسمها»[2].

والعبرة في القرآن بسياق الكلام، فقد جاء التصريح بالاسم في القرآن تشريفاً للمنادى في كثير من المواضع.

قال أبو حيان: «﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، لما كان وقت النداء شرّف بالتصريح باسمه في النداء، فقيل: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [الأعراف: ١٩]، وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه»[3].

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠] ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع»[4].

٢ ـ لم يأت في القرآن العدول عن الاسم إلى الكنية إلا مع أبي لهب، وقد علل العلماء ذكر الكنية بوجوه منها: أن الاسم أشرف من الكنية.

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٢٧.
(٢) شرح الرضي على الكافية ٣/ ٢٦٤، وينظر: الكليات ٩٥١.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٢٨١.
(٤) روح المعاني ١٦/ ٢٧٣.

قال الماوردي: «وفي ذكر الله لأبي لهب بكنيته دون اسمه ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه.

الثاني: لأنه كان مسمى بعبدهشم، وقيل: إنه عبد العزى فلذلك عدل عنه.

الثالث: لأن الاسم أشرف من الكنية؛ لأن الكنية إشارة إليه باسم غيره؛ ولذلك دعا الله أنبياءه بأسمائهم»(١).

وكذا قال أبو حيان: «لأن الاسم أشرف من الكنية، فعدل إلى الأنقص؛ ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم ولم يُكْنِ أحداً منهم»(٢).

وقال القرطبي: «وإنما كناه الله بأبي لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة» وذكر منها: «أن الاسم أشرف من الكنية، فحطَّه الله ﷻ عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذْ لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يُكْنِ عن أحد منهم، ويدُلُّك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسمَّى ولا يكنى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه؛ واستحالة نسبة الكنية إليه؛ لتقَدُّسِه عنها»(٣).

٣ ـ أن أقوام الأنبياء والملائكة نادوا الأنبياء بأسمائهم الصريحة، والسياق هو ما يُحدد الهدف من التصريح بالاسم.

ـ كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

قال البقاعي: «﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: ثمود، ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ نادوه باسمه قلةَ أدبٍ منهم وجفاء»(٤)، وهذا واضح من السياق الذي ورد فيه النداء.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٦٥.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٧.
(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣٦.
(٤) نظم الدرر ٣/ ٥٨٤.

ـ وقال تعالى عن الملائكة مع لوط ﷺ: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾ [هود].

ـ وقال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

٤ ـ نادى الله جل وعلا جميع الرسل على وجه الإجمال بوصف الرسالة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون].

٥ ـ لم يناد الله تعالى الأنبياء السابقين بوصف الرسالة أو النبوة لأن القرآن نزل بعدهم، فهو يحكي قصصهم الماضية، وفرق بين الغائب والمخاطب في أسلوب الكلام، والله أعلم.

قال الألوسي: «وربما يكون نداء سائر الأنبياء ﷺ في كتبهم أيضاً على نحو منه»[1].

يعني: مثل ما نودي به النبي ﷺ في القرآن، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

نداء النبي ﷺ بوصفه

لم يأت في القرآن نداء النبي ﷺ باسمه الصريح كما هي الحال مع عامة الأنبياء، وإنما جاء النداء بوصفه بالنبوة أو الرسالة، أو غيرها، تكرر ذلك ثماني عشرة مرة، **وسأورد الآيات الدالة على ذلك:**

١ ـ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) روح المعاني ٢١/ ١٤٣.

فهذا نداء للنبي ﷺ بصفة النبوة، وقد تكرر هذا النداء في ثلاثة عشر موضعاً.

٢ ـ كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٩ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢].

١١ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ﴾ [الطَّلاق: ١].

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التَّحريم].

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التَّحريم: ٩].

ونادى الله تعالى نبيه ﷺ بصفة الرسالة في موضعين من كتاب الله، وهما:

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١].

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧].

وجاء نداء النبي ﷺ بوصفه بالمزمل.

١٦ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل].

وكذا بوصفه بالمدثر.

١٧ ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر].

وكذا بوصفه بالذي نزل عليه الذكر.

١٨ ـ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ [الحجر].

ومن تأمل في نداءات النبي ﷺ في القرآن وجد أكثرها بوصف النبوة والرسالة، وهو وصف تشريف وتفضيل، ولم يأت في كتاب الله تعالى نداء النبي ﷺ باسمه مجرداً ألبتَّة.

قال الزمخشري: «جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفاً، وربئاً بمحله وتنويهاً بفضله»(١).

وقال الرازي: «قال تعالى في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحريم: ١]، ومن بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التَّحريم: ٩]، خاطبه بوصفه وهو النبي لا باسمه، كقوله لآدم: يا آدم، ولموسى: يا موسى، ولعيسى: يا عيسى، نقول: خاطبه بهذا الوصف ليدل على فضله

(١) الكشاف ٣/٥٢٦.

عليهم، وهذا ظاهر»(١).

وقال أبو حيان: «ونداؤه تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] هنا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ [المائدة: ٦٧]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مواضع، تشريف وتعظيم وتفخيم لقدره، ونادى غيره من الأنبياء باسمه»(٢).

وقد جاء النص في تأديب المؤمنين على هذه العادة، وفي موضع التأديب نفسه لم يذكر النبي ﷺ باسمه، بل استبدله بصفة الرسالة، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، ففي هذا تعظيم وتوقير له عليه الصلاة والسلام مع التواضع وخفض الصوت.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ «أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله، في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم»(٣).

وجاء التأديب أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات].

قال الفراء: «وقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، يقول: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم»(٤).

وقال مكي: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ أي: لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، ولكن عظموه ووقروه، ونادوه بأشرف ما يُحِب أن ينادَى، قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وهذا كلُّه أمر من الله ﷻ للمؤمنين بتعظيم النبي ﷺ وإجلاله، وهو مثل قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]»(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٣٠/ ٤٣.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٩٩، ٧/ ٢٠٦.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٠.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٧٠.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٦٩٨٧، وينظر: البحر المحيط ٨/ ١٠٥، تفسير القرطبي ١٦/ ٣٠٦.

وقال الرازي: «﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسماوات، . . . وأنه يُذكر معه في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يُذكر في الخطب والأذان، ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ويناديه باسم الرسول والنبي حين ينادي غيره بالاسم، يا موسى، يا عيسى»[(١)].

وقال ابن كثير: «هذه آداب، أدَّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا تنادوه باسمه، كـ يا محمد، وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر]، مع أنه ينادي الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤﴾ [الصَّافات]، وقوله: يا ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: ٢٦]، أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]»[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦٤، التحرير والتنوير ٢٦/ ٢١٩.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٤٠٢.

وعلى هذا فعادة القرآن أنه لا ينادي النبي ﷺ باسمه المجرد.

أما في غير النداء فجاء ذكره بمثل ما ذُكر في النداء بصفة الرسالة والنبوة ونحوها.

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البيّنة].

إلا في أربعة مواضع، جاء الخبر فيها عن النبي باسمه: محمد ﷺ وهي كما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].

قال الزركشي: «وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ والقصد تفضيل النبي ﷺ وما نزل عليه إذ لا يتم الإيمان إلا به»(١).

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا يدل على أن باب الخبر أوسعُ من باب الطلب في التعامل مع رسول الله ﷺ.

---

(١) البرهان ٢/٤٦٩.

ولذلك بحث العلماء السر في النص على اسمه ﷺ في هذه المواضع.

قال الزمخشري: «فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقينٌ لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوتَ بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]»[١].

وقال أبو حيان: «وحيث ذكره على سبيل الأخبار عنه بأنه رسوله، صرح باسمه فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، أعلَمَ أنه رسوله، ولقنهم أن يسموه بذلك.

وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النداء: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، و﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، وغير ذلك من الآي»[٢].

وقال النسفي: «وتصريحه باسمه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ونحوه؛ لتعليم الناس بأنه رسول الله»[٣].

---

(١) الكشاف ٣/٥٢٦.
(٢) البحر المحيط ٧/٢٠٦.
(٣) تفسير النسفي ٣/٢٩٥.

❐ وخلاصة القول في هذا المطلب:

١ ـ أن نداء النبي ﷺ بوصف النبوة والرسالة إقرارٌ له بالنبوة والرسالة، وتعظيم وتشريف له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء فيه تكريم له؛ لأنه ناداه بالنبوة، ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم»(١).

وقال الزركشي: «ولم يقع في القرآن النداء بـ يا محمد، بل بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ تعظيماً له وتبجيلاً وتخصيصاً بذلك عن سواه»(٢).

وقال الألوسي: «﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣]، نادى سبحانه آدم باسمه العلم، كما هو عادته جل شأنه مع أنبيائه، ما عدا نبينا؛ حيث ناداه بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾؛ لعلو مقامه ورفعة شأنه إذ هو الخليفة الأعظم»(٣).

٢ ـ اختص نداء النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، وفيها زيادة التعظيم والتشريف للنبي ﷺ.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ»(٤).

وقد زكى الله تعالى نبيه ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، ومنها:

أنه جل وعلا زكاه في عقله فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النَّجم].

---

(١) التسهيل ٢/٣٥٦. (٢) البرهان ٢/٢٢٨.
(٣) روح المعاني ١/٢٢٧.
(٤) الكشاف ١/١٢١، وينظر: الإتقان ٢/١٨٠.

وزكاه في صدقه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النَّجم].

وزكاه في بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النَّجم].

وزكاه في معلمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النَّجم].

وزكاه في صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].

وزكاه في طهره فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح].

وزكاه في ذكره فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح].

وزكاه في حلمه فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة].

وزكاه كله صلوات ربي وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

٣ ـ في اختيار الوصف بالنبوة أو الرسالة أو غيرها المراعاة لحال السياق.

فعند التأمل في اختيار وصف النبي أو الرسول في القرآن يتبين الدقة في اللفظ حسب مواضعه.

ويؤيد هذا ما ذكره الزركشي حيث يقول: «ومن هذا النوع ـ خطاب المدح ـ الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي مقام الخاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التَّحريم]، ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

وتأمل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، في مقام الاقتداء بالكتاب والسُّنَّة، ثم قال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فكأنه جمع له المقامين معنى النبوة والرسالة تعديداً للنعم في الحالين.

وقريب منه في المضاف إلى الخاص: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل: يا نساء الرسول، لما قصد اختصاصهن عن بقية الأمة.

وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام، لكن مع قرينة إرادة التعميم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، ولم يقل طلقت»[١].

٤ ـ أن عادة القرآن حتى في المواضع التي صرح باسمه في باب الخبر، اقتران الرسالة بالاسم، وهذا أمر يدل على أن ذكر اسمه من باب التعليم والبيان أنه رسول الله الذي شُرف بالنبوة والرسالة، ونزول القرآن عليه.

٥ ـ أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء في ذكر اسمه مجرداً عن الوصف ﷺ.

قال ابن عاشور: «ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره، ولذلك لم يناد في القرآن بغير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التَّحريم: ٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، ويجيء باسمه العلم، كقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد يتعين إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله، أو تلقين لهم بأن يسموه بذلك، ويدعوه به، فإن علم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره»[٢].

وقال ابن عثيمين: «قول: محمد رسول الله ﷺ، لا ينافي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا؛ أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله.

---

(١) البرهان ٢/٢٣٩، ٢٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/٢٤٩.

أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ، أو: اللهم صل على محمد، وما أشبه ذلك»[١].

والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته

لا يخلو الخطاب الموجهُ إلى النبي ﷺ في كتاب الله تعالى من الحالات الآتية:

الحالة الأولى: أن يقوم دليل على أن الخطاب خاصٌّ به ﷺ فهو خاص لا يشمل الأمة.

- كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب].

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح].

الحالة الثانية: أن تأتي القرينة الدالة على العموم في خطاب النبي ﷺ فهو للعموم.

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق: ١]، فصيغة الجمع في قوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تدل على عموم الخطاب للأمة.

قال الزركشي: «افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق»[٢].

وقال أبو السعود: «تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لأمته أيضاً لتشريفه عليه الصلاة والسلام، وإظهارِ جلالة منصبه،

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩/ ٣٢.
(٢) البرهان ٢/ ٢١٨.

وتحقيقِ أنه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم، وتغليبه عليهم، لا لأن نداءه كندائهم»[(١)].

الحالة الثالثة: أن لا يوجد دليل على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ خاص به، أو عام له ولأمته، وهنا محل البحث في هذه العادة:

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]، ونحو ذلك.

وهذه مسألة أصولية مشهورة تكلم فيها الأصوليون[(٢)].

قال بعض الشافعية[(٣)] وغيرهم[(٤)]:

هو خاص بالنبي ﷺ حتى يقوم دليل على العموم.

واستدلوا: بأن اللفظ خاص من حيث الوضع اللغوي، فيبقى على خصوصه حتى يأتي الدليل على نقله من الخصوص.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: العدة ١/ ٣١٨، المحصول ٢/ ٣٧٩، البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٢، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢١٨.

(٣) ينظر: الإحكام للآمدي ٢/ ٢٧٩، المستصفى ١/ ٢٤١.

(٤) كالمعتزلة ومن وافقهم. ينظر: المعتمد ١/ ١٤٨.

وقال الجمهور من الحنفية(١)**، وبعض المالكية**(٢)**، وبعض الشافعية**(٣)**، وهو قول الحنابلة**(٤):

إن خطاب النبي ﷺ يدل على العموم حتى يقوم دليل على الخصوصية.

قال ابن تيمية: «ولهذا كان جمهور علماء الأمة على أن الله إذا أمر نبيه بأمر، أو نهاه عن شيء، كانت أمته أسوة له في ذلك، ما لم يقم دليل على اختصاصه بذلك»(٥).

ـ **واستدلوا:** بالآيات الدالة على الاقتداء بالرسول ﷺ واتِّبَاعه.

كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وغيرها كثير، مما أوجد عادة شرعية تُحْمَل عليها خطابات الشرع.

ـ **واستدلوا:** بأن عادة العرب توجيه الخطاب لكبير القوم والمراد كلهم، والقرآن نزل بلغة العرب.

ـ **واستدلوا:** بأن ما اختص به النبي ﷺ في الشريعة جاء بلفظ التخصيص.

كقوله تعالى في الواهبة نفسها: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ولو كان حكم الخطاب خاصاً به لم يحتج إلى التخصيص في هذه الآية(٦).

---

(١) ينظر: التقرير والتحبير ١/ ٢٢٤.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٢٧٠.

(٣) ينظر: البرهان للجويني ١/ ٢٥٠، تفسير الرازي ٢٥/ ١٨٤، نهاية السول ١/ ٣٩٠.

(٤) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/٣١٨، روضة الناظر ٢/ ١٠٠، المسودة ١/ ١٣٤، شرح الكوكب المنير ٣/٢١٨.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٢٢.

(٦) ينظر: مذكرة أصول الفقه ٢٤.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فلو كان منفرداً بما يتوجه إليه من الشرع، لم يكن لتخصيصه فائدة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فالخطاب خاصٌّ بالنبي ﷺ، وقد صرح بعده بعمومه لجميع المؤمنين في قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، ولو كان حكم الخطاب يختص بالنبي ﷺ لم يصح التعليل بالعموم.

ـ وقد دل على هذا القول استقراء آيات القرآن.

قال الشنقيطي: «وأما الخطاب الخاص بالنبي ﷺ في نحو قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد دلت النصوص الشرعية على شمول حكمه للأمة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٢١].

وقد علمنا ذلك من استقراء القرآن العظيم حيث يُعَبّر فيه دائماً بالصيغة الخاصة به ﷺ ثم يشير إلى أن المراد عموم حكم الخطاب للأمة»[(٢)].

وبعد استقراء أقوال العلماء في المسألة وتطبيقها على الفروع تبين لي أنه لا خلاف بين القولين في العمل؛ فالجميع متفق على أن خطاب الواحد لا يطلق على الجماعة في اللغة، وكذلك متفقون أن الوقائع الشرعية الخاصة التي استدل بها أصحاب القول الأول عُدِّي حكمها إلى الأمة مع نبيها ﷺ، ومحل النزاع في العرف الشرعي[(٣)].

قال الطوفي: «وكأن الخلاف لفظي...» ثم قال: «وحينئذٍ يكون التقدير: أن اللغة تقتضي أن الخطاب لواحد معين يختص به، ولا خلاف فيه بينهم، والواقعة الشرعية الخاصة، إذا قام دليل على عمومها عمت، ولا

---

(١) ينظر: العدة في أصول الفقه ١/ ٣٢٥. (٢) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.

(٣) ينظر: العدة ١/ ٣٣٠، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٢١.

خلاف أيضاً فيه بينهم، فعاد النزاع كما قلنا لفظياً»(١).

وقال أيضاً: «أجمع الصحابة رضي الله عنهم على الرجوع في قضاياهم العامة إلى قضايا النبي ﷺ الخاصة، كرجوعهم في حد الزاني إلى قصة ماعز(٢)...»(٣).

ومن الأمثلة في ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة].

قال السمرقندي: «﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وهذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد منه أمته»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

قال ابن جزي: «﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به كل مخاطب على الإطلاق، فدخل فيه غيره من الناس»(٥).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

قال ابن عطية: «هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه

---

(١) شرح مختصر روضة الناظر ٢/٤١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٨/٢٠٥ (٦٨١٥)، كتاب الأشربة باب لا يرجم المجنون والمجنونة، ومسلم ٣/١٣١٧ (١٦٩١)، كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) شرح مختصر روضة الناظر ٢/٤١٥. وينظر للاستزادة: أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٧٢، الإحكام للآمدي ٢/٢٦٠، روضة الناظر ٢/١٠٠، المحصول ٢/٣٧٩، تفسير البيضاوي ٤/٣٧٧، شرح الكوكب المنير ٣/٢١٨، نهاية الوصول في دراية الأصول ٤/١٣٨١، إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر ٥/٣٥٢.

(٤) تفسير السمرقندي ١/١١٦.

(٥) التسهيل ١/٢٦٧.

بالمعنى»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء]، قال المفسرون: هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف].

قال السعدي: «هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهاً للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة، ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو: الكلام على الغيب المستقبل»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

قال أبو حيان: «وأمره بالتقوى للمتلبس بها، أمر بالديمومية عليها والازدياد منها، والظاهر أنه أمر للنبي، وإذا كان هو مأموراً بذلك، فغيره أولى بالأمر»[٤].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢]، فقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يدل على عموم الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ [يونس: ٦١]، ثم قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية [يونس]»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١٤٦.
(٣) تفسير السعدي ٤٧٤.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٠٦.
(٥) أضواء البيان ١/ ٣٧٧.

قال البغوي: «وهذا خطاب للنبي ﷺ، والمراد منه غيره، وقيل: هذا أدب من الله ﷻ لنبيه وتهديد لغيره؛ لأن الله تعالى عصمه من الشرك»(١).

وقال البيضاوي: «﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمر:٦٥] كلام على سبيل الفرض، والمراد به: تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد»(٢).

وغيرها من الآيات في هذا المعنى كثير(٣).

كلُّ هذه الأمثلة تُظهر لنا عادة من عادات القرآن في خطابه: أن الأصل في خطاب النبي ﷺ في القرآن العموم لأمته، حتى يدل دليل على الخصوصية.

قال الآمدي: «يجب تنزيل كلام الشارع على عرفه؛ إذ الغالب منه أنه إنما يناطِقُنا فيما له فيه عُرْف بعرفِه»(٤).

وعليه فيُقدم العُرف الشرعي على الوضع اللغوي، ويترجح قول الجمهور بأن خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، والله تعالى أعلم.

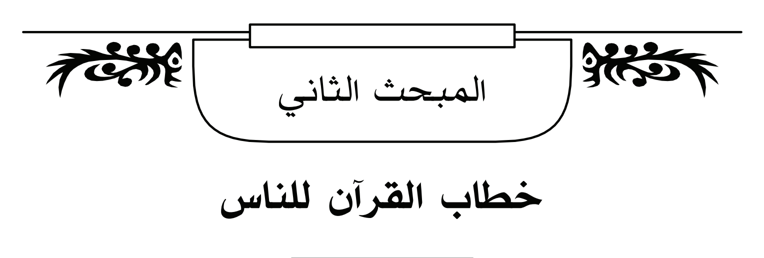
---

(١) تفسير البغوي ٧/ ١٣٠.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٧٦.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٤٨٥، الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١١٨٣، ١٣٩٢، ٦/ ٤٣٢٧، النكت والعيون ٥/ ٣٥٦، المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣، ٤/ ٥٩٥، تفسير القرطبي ٢/ ١٦٣، ٩/ ١٨، تفسير البيضاوي ٣/ ٣٤٣.

(٤) الإحكام ٣/ ٢٠.



خطاب القرآن للناس

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: الخطاب بلفظ الناس وبلفظ الإيمان.**
- **المطلب الثاني: خطاب الرجال والنساء.**
- **المطلب الثالث: خطاب العام وخطاب الخاص.**

المطلب الأول

الخطاب بلفظ الناس، وبلفظ الإيمان

المراد بالخطاب: الكلام الذي يُقصد به الإفهام.

قال الكفوي: «اللفظ المتواضَع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه»(١).

والقرآن خطاب لجميع الأمة، وفيه استعمال الأسلوب المناسب للمخاطب في وقت نزول القرآن ومن يأتي بعدهم، فالقرآن صالح لكل زمان ومكان، وقد جاءت عادة القرآن بالخطاب كثيراً بلفظ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

أما الأول: فقد تكرر الخطاب للناس في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، وتكرر بأسلوب نداء الناس في واحد وعشرين موضعاً، أغلبها في السور المكية.

---

(١) الكليات ٦٥٨، وقال: احترز بـ(اللفظ) عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبـ(التواضع عليه) عن الألفاظ المهملة، وبـ(المقصود به الإفهام) عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً، وبقوله: «لمن هو متهيئ لفهمه» عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو بمكة، وكل شيء نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو بالمدينة»(١).

ووجهه أن الغالب في أهل مكة الكفر والشرك، فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وإن دخل فيه غيرهم، والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وإن دخل فيه غيرهم(٢).

قال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قال الجمهور: لأهل مكة»(٣).

وقال ابن عاشور: «فالخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ موجه إلى المشركين كما هو شأن خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾»(٤).

وعند تأمل المقصود بلفظ الناس في القرآن تبين لي أنه نداء جنسٍ للناس عموماً.

ومما يدل على ذلك:

أن في القرآن سوراً مدنية وفيها الخطاب بصيغة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مثل سورة البقرة، والنساء.

قال ابن تيمية: «... ولكن في السور المدنية خطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان، وكذا في البقرة»(٥).

وقال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»(٦).

---

(١) أخرجه البزار ٤/ ٣٣٦ (١٥٣١)، والحاكم ٣/ ٢٠ (٤٢٩٥) وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ كلهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن مرسلاً عن علقمة ٢٢٢ (١٣ ـ ٥٦)، وينظر: البرهان ١/ ١٨٨.

(٢) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ٥٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ١٤٣.

(٤) التحرير والتنوير ٢/ ١٠١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٦٠.

(٦) تفسير القرطبي ١/ ٥، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.

وقال الزركشي: «سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا﴾ [البقرة]، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وسورة النساء مدنية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وفيها: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: ١٣٣]، وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧]، فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح»(١).

وقال أيضاً في وجوه الخطاب في القرآن: «خطاب الجنس نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإن المراد جنس الناس لا كل فرد، وإلا فمعلوم أن غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلب في خطاب أهل مكة»(٢).

وعليه فعادة القرآن الخطاب بلفظ الناس وإرادة الجنس، فيدخل في الخطاب كل من يصلح له إلا بدليل؛ سواء كان من أهل مكة أو غيرها أو ممن جاء بعدهم.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

فهذا خطاب في سورة البقرة عام لجميع الخلق؛ إذ كلهم مقرون بأن الله خالقهم، ومن لازمه أنه المستحق للعبادة.

قال السمرقندي: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ يعني: أطيعوا ربكم، ويقال: وحدوا ربكم، وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خاصة لأهل مكة، وقد تكون عامة لجميع الخلق، فهاهنا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لجميع الخلق، يقول للكفار: وحدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا دينكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم، واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم»(٣).

(١) البرهان ١/ ١٩٠. (٢) البرهان ٢/ ٢٢٦.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٥٩، وينظر: التسهيل ١/ ٧٧، تفسير ابن كثير ١/ ١٩٥.

وقال مكي: «وإنما خاطب الله الكفار بهذا لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم، دليل ذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرف: ٨٧]، فقيل لهم: إذا كنتم مقرين بأن الله خالقكم فاعبدوه، ولا تجعلوا له شركاء»[١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

هذا خطاب في سورة النساء، وهو عام لجميع الناس.

قال السمرقندي: «إن الخطاب في هذا الموضع عام لجميع الناس»[٢].

وقال ابن جزي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، خطاب على العموم»[٣].

قال ابن عاشور: «جاء الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشمل جميع أمة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان»[٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء].

هنا خطاب من الله تعالى لجميع الناس.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] لما قرر أمر النبوة وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها؛ خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد»[٥].

وقال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] هذا خطاب لجميع الناس، وإن كانت السورة مدنية فالمأمور به أمر عام»[٦].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ١٨٢.
(٢) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠٣.
(٣) التسهيل ١/ ٢٢٩.
(٤) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٤.
(٥) تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨٢.
(٦) البحر المحيط ٣/ ٤١٦.

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للكل»(١).

ودخول المشركين فيه دخولاً أكيداً؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾.

قال ابن عاشور: «الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يعني خصوص المشركين في الغالب، وهو المناسب لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾»(٢).

ـ وقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

ففي هذه الآية الخطاب بلفظ الناس الدال على العموم.

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يا أيها الناس من جميع أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها، الذين قص الله جل ثناؤه قَصَصهم في هذه السورة»(٣).

وسياق الآية دال على ذلك، فقد أورد الحجة على جميع الفرق وجاء الخطاب بعدها.

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم، عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

قال أبو حيان: «قيل: خطاب للمؤمنين أراد الله أن يبين لهم خطأ

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٢٠، وينظر: تفسير السعدي ٢١٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٤٢٧، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٥٤٣.
(٤) تفسير الرازي ١١/ ٩٥.

الكافرين فيكون: ﴿تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ خطاباً لغيرهم الكفار عابدي غير الله، وقيل: الخطاب عام يشمل من نظر في أمر عبادة غير الله، فإنه يظهر له قبح ذلك»(١).

والظاهر أن من قال إنه خطاب للمؤمنين بناه على القول بمدنية السورة، والأَوْلَى القول بأن الخطاب عام فالمؤمن يزداد إيماناً، والكافر تقوم عليه الحجة، وهذا الأسلوب ليس غريباً في القرآن.

قال السعدي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج: ٧٣]، هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة»(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان].

هذا خطاب للناس عموماً، ويدخل فيه المشركون دخولاً أولياً كما ذكر ذلك بعض المفسرين.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أيها المشركون من قريش»(٣).

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ قال المفسرون: هذا خطاب لكفار مكة»(٤).

وهذا التفسير بأنهم المشركون من أهل مكة لا يمنع دخول غيرهم فيه؛ لعدم الدليل على التخصيص.

قال البقاعي: «ولما ظهَرَت ـ بما ذكر في هذه السورة ـ دقائقَ الحكمة، . . . أمر سبحانه عباده عامةً عاصيهم ومطيعهم بالإقبال عليه، وخوّفهم ما هم صائرون إليه، منادياً لهم بأدنى أوصافهم. . . فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: عامة، ولفت الكلام إلى الوصف المذَكّر بالإحسان ترغيباً وترهيباً فقال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾»(٥).

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٢) تفسير السعدي ٥٤٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ١٥٨.
(٤) زاد المسير ٦/ ٣٢٩.
(٥) نظم الدرر ٦/ ٣٦.

فالصحيح بقاء الخطاب عاماً على الأصل، ولأن هذه عادة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

فهذا الخطاب عام لجميع الناس، على اختلاف أنواعهم وأجناسهم، والأكرم عند الله تعالى هو الأتقى.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(١).

وهذه الآية نزلت بمكة، وحكمها مدني؛ لأنها نزلت بعد الهجرة.

قال الزركشي: «ذكر ما نزل بمكة وحكمه مدني، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية، ولها قصة يطول بذكرها الكتاب، ونزولها بمكة يوم فتحها، وهي مدنية؛ لأنها نزلت بعد الهجرة»(٢).

فتشمل في الخطاب المؤمنين وغيرهم ولا دليل على التخصيص.

وأما الخطاب الثاني: وهو خطاب المؤمنين، فقد تكرر في القرآن كثيراً، ونداؤهم بصفة الإيمان ثُنِّي في تسعين موضعاً من كتاب الله تعالى، أغلبها في السور المدنية.

وقد رأى بعض العلماء اطراد هذا الضابط في المدني(٣).

قال ابن عطية تعقيباً على هذا الضابط: «وقد يجيء في المدني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فصحيح»(٤).

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٠٩، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١١/ ٧٠١٠، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٨٥.
(٢) البرهان ١/ ١٩٥.
(٣) أن كل ما فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو مدني.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٩٢.

وقال ابن تيمية: «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان، وكان بها أهل الكتاب، خُوطِبَ هؤلاء وهؤلاء؛ فهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهؤلاء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أو ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا»(١).

وقال أبو حيان: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين»(٢).

ويستثنى من هذا الإطلاق سورة الحج عند من يرى أنها مكية، إذ فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج](٣).

قال الزركشي: «خطاب المدح نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهذا وقع خطاباً لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا، تمييزاً لهم عن أهل مكة، وقد سبق أن كل آية فيها يأيها الناس لأهل مكة، وحِكْمَة ذلك: أنه يأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الأمر بتفاصيل الشريعة، وإن جاء بعدها الأمر بالإيمان كان من قبيل الأمر بالاستصحاب.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، قيل: يرد الخطاب بذلك باعتبار الظاهر عند المخاطب، وهم المنافقون، فإنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان، كما قال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١]»(٤).

وقال ابن عاشور: «والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان»(٥).

وعليه فخطاب المؤمنين واضح أنه لمن دخل في دين الله، واتصف بالإيمان على تفاوت مراتب الإيمان.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٦٣.
(٢) البحر المحيط ١/ ٥٠٨.
(٣) ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم ١/ ١٦٧.
(٤) البرهان ٢/ ٢٢٨، ٢٢٩.
(٥) التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٥.

وعادة القرآن بعد نداء المؤمنين الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.

ومن ذلك الدعوة إلى ما يقتضيه الإيمان من شروطه ولوازمه ومكملاته، وأحياناً يدعوهم إلى شكر نعم الله تعالى عليهم وآلائه، وذلك بالامتثال التام لأمره ونهيه[(١)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(٢)].

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

هذا خطاب للمؤمنين يدعوهم إلى الخير والأصلح لهم في التعامل مع اليهود.

قال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب للمؤمنين، فيه إرشاد لهم إلى الخير، وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين آمراً لهم بالصيام، وإشارة لهم بالجامع لكل ما قيل في حكمة الصيام[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

في هذه الآية حث المؤمنين على تقوى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال مكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هذا خطاب للمؤمنين،

---

(١) ينظر: القواعد الحسان ١٨.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/١٠٧ (٣٩٤١)، وينظر: تفسير ابن كثير ٢/٦.
(٣) تفسير أبي السعود ١/١٤١.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٤٩٧، القواعد الحسان ٣٢.

ومعنى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ راقبوه، ودوموا: على طاعته»(١).

ـ وقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء].

في هذه الآية أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه(٢).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١] هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد ﷺ»(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

هذا خطاب للمؤمنين، المراد به: دوام الإيمان وزيادته.

قال أبو حيان: «والظاهر أنه خطاب للمؤمنين، ومعنى: آمنوا دوموا على الإيمان، قاله الحسن، وهو أرجح»(٤).

قال ابن كثير: «أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم»(٥).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

في هذه الآية الأمر بتعظيم المحرمات والحرم(٦).

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خطاب للمؤمنين حقاً أن لا يتعدوا حدود الله في أمر من الأمور»(٧).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٢/ ١٠٨٤.
(٢) ينظر: القواعد الحسان ٨٩.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٢٧٣.
(٤) البحر المحيط ٣/ ٣٨٦.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٦) ينظر: تفسير الطبري ٩/ ٤٦٤.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ١٤٥، وينظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٧.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

هذا خطاب لجميع المؤمنين أن يجتنبوا الشهوات والعادات المحرمة، وبيان لعلة التحريم.

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين جميعاً؛ لأن هذه الأشياء شهوات وعادات قد تلبس بها في الجاهلية، وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين»(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال].

وفي هذه الآية خطاب المؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله، والمداومة على ذلك.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدقين، أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم، جدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونهاهم عن التولي عنه، هذا قول الجمهور»(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال].

وهذا خطاب للمؤمنين بالاستجابة لأمر الله تعالى ورسوله.

قال ابن عطية: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٧١. (٢) تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٧.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٨٨، وينظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٨٩.

في هذه الآية خاطب الله تعالى المؤمنين بتقوى الله، والحث على الصدق الذي أنجى الصادقين.

قال أبو حيان: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، هو خطاب للمؤمنين، أُمِروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق»[(١)].

وإذا جاء النداء بصفة الإيمان فدلالة السياق هي التي تحدد كمال الإيمان في الموصوف أو نقصها.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من غضّ البصر، وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم، من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه»[(٢)].

وقال السعدي: «فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصاً في شيء منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقاً الجامع لمعاني الإيمان»[(٣)].

هذا؛ وقد تبين لي ما يأتي:

١ ـ أن عادةَ القرآن تنوعُ خطاباته لمراعاة المخاطبين.

قال ابن العربي: «فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً»[(٤)].

٢ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عام لجميع الخلق الذين يصلح

(١) البحر المحيط ٥/ ١١٣.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٦٥، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥١٠، التسهيل ٢/ ٢٥٩.
(٣) القواعد الحسان ٧٠.
(٤) أحكام القرآن ٤/ ٣٦٨.

خطابهم، والمشركون من أهل مكة وغيرهم داخلون أولياً في هذا العموم، وأكثر ما يأتي بعده بيان التوحيد وأصول الإيمان، لِحاجَة المخاطَبين.

٣ ـ أن الخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لكل من اتصف بالإيمان وإن قل، والأسلوب مراعىً فيه حال المنادى، وغالباً ما يأتي بعده حثُّ المؤمنين على الخير أو تحذيرهم من الشر، ومن ذلك بيان التكاليف الشرعية.

وأختم بفائدة ابن القيم حيث يقول: «تأمل خطاب القرآن تجد ملِكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومرادها إليه، مستوياً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، . . . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم ما العقوبة إن عصوه. . .»[(١)].

اللَّهُمَّ اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

المطلب الثاني

خطاب الرجال والنساء

عادة القرآن تغليب جمع الذكور في خطاب الرجال والنساء، وهي قاعدة أصولية مُختلف فيها معروفة: هل ما في القرآن والسُّنَّة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها ـ مما يختص بجماعة الذكور ـ تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن إلا بدليل منفصل؟.

وقبل الدخول في التفاصيل أُحرر محل البحث في هذه العادة، فأقول:

إن الجمع لا يخلو من إحدى هذه الصور:

---

(١) الفوائد ٢٨.

الأولى: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على النساء، كالرجال، فهو جمع خاص بالرجال اتفاقاً.

الثانية: أن يكون الجمع لا يصح إطلاقه على الرجال؛ كالنساء، فهو جمع خاص بالنساء اتفاقاً.

الثالثة: أن يكون ذلك الجمع متناولاً للذكور والإناث لغة ووضعاً؛ كالناس فإنه يتناول الذكور والإناث بالاتفاق(١).

أما الصورة **الرابعة** التي فيها الخلاف فهي: إذا كانت علامة الذكور فيه واضحة بينة، كجمع المذكر، نحو: المؤمنين.

وقد اتفق أهل اللغة على تغليب جمع الذكور ودخول النساء فيه(٢).

والدليل على ذلك: استعمال العرب.

قال ابن فارس: «إذا جاء الخطاب بلفظ مذكر ولم يُنَصَّ فيه على ذِكر الرجال فإن ذلك الخطاب شامل للذكران والإناث، كقوله جل ثناؤه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، كذا تَعْرف العرب هذا»(٣).

وورود آيات في كتاب الله تعالى تدل على دخول النساء في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة: ٣٦]، وقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة]؛ فإن حواء داخلة في قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ إجماعاً(٤).

---

(١) ينظر: التمهيد لأبي الخطاب ١/ ٢٩٠، روضة الناظر لابن قدامة ٢/ ١٤٨، الإحكام للآمدي ٢/ ٢٦٥.

(٢) لسان العرب ٩/ ٩، وأشار إلى الاتفاق القاضي أبو يعلى الحنبلي في العدة ٢/ ٣٥٣، وابن النجار في شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٣٧.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة ١٤١.

(٤) ينظر: أضواء البيان ١/ ٣٦.

قال الطبري: «وقد اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾، مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عُني به»[(١)].

وقال الرازي: «اختلفوا في المخاطبين بهذا الخطاب بعد الاتفاق على أن آدم وحواء عليهما السلام كانا مخاطبين به»[(٢)].

وقال ابن منظور: «وإنما المستجاز من ذلك رد التأنيث إلى التذكير؛ لأن التذكير هو الأصل بدلالة أن الشيء مذكر وهو يقع على المذكر والمؤنث فعلم بهذا عموم التذكير وأنه هو الأصل الذي لا ينكر»[(٣)].

إذن بقي اختلاف العلماء في: مسألة اندراج النساء تحت لفظ جمع المذكر؛ هل هو بالتغليب أو بأصل الوضع؟.

فقد ذهب جماعة من الحنابلة؛ كالقاضي أبي يعلى وابن قدامة[(٤)]**، ورواية عن الإمام أحمد، وهو قول لابن داود الظاهري**: إلى أن دخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع، واستدلوا بأدلة من أهمها: استخدام العرب، والآية السابقة.

وهناك رواية أخرى عن الإمام أحمد: أن النساء لا يدخلن في ذلك بأصل الوضع بل بالتغليب، **واختارها من الحنابلة أبو الخطاب**[(٥)]**، والطوفي**[(٦)] واستدلوا بأدلة من أهمها:

ـ ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله، ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟... فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٣٥.
(٢) تفسير الرازي ٣/ ١٦، وينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٢٩٨، تفسير أبي السعود ١/ ٩١.
(٣) لسان العرب ٢/ ٥٧.
(٤) ينظر: العدة ٢/ ٣٥١، روضة الناظر ٢/ ١٤٨.
(٥) ينظر: التمهيد ١/ ٢٩١.
(٦) في شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٥١٥.

فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب]»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وحاصل القول: أن دخول النساء في جمع المذكر راجع إلى السياق والقرائن[(٢)]، فسماه بعضهم تغليباً، والآخرون أصلاً، وبهذا تتفق الأقوال[(٣)].

ولذا يستدل من قال بدخولهن بأصل الوضع بدلالة التغليب للذكور.

وأَما أن يُفَسَّر قولُ من قال بدخول النساء في جمع المذكر بأصل الوضع بأنه:

ينصرف جمع المذكر للنساء كما ينصرف إلى الرجال على حد سواء فهذا لا يسُوغ؛ لأمرين:

١ ـ القطع باختصاص الذكور بهذه الصيغة لغةً واختصاصِ النساء بغيرها.

٢ ـ إجماع أهل اللغة على ذلك.

ولذا قال أبو المعالي[(٤)]: «وما ذكره هؤلاء من تغليب علامة التذكير عند محاولة التعبير عن الجنسين فصحيح في الجملة، ولكنهم لم يفهموه على وجهه؛ فإن ما ذكروه سائغ إن أريد، فأما أن يقال: وضع اللسان على أن المسلمين مسترسل على الرجال والنساء استرساله على آحاد الرجال فلا، والذي ذكروه صالح لو أريد، وليس في اللسان القضاء به إلا عند قرينة

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٠١ (٢٦٥٧٥)، والطبري في التفسير ١٠/ ٣٠٠، والحاكم ٢/ ٤١٦، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/ ٣٨.

(٣) ينظر: شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٥١٦.

(٤) هو: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الطائي السنبِسي أبو المعالي الجويني الشافعي، له مصنفات من أشهرها: «البرهان»، و«الورقات في أصول الفقه»، مات سنة (٤٧٨هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، شذرات الذهب ٣/ ٣٥٨.

شاهدة عليه»[١].

وقال ابن عقيل الحنبلي[٢] ضمن جوابه على دليل من منع الدخول بأصل الوضع: «وإن قلنا: إنهن يدخلن، فإنما يدخلن من جهة الظاهر، فأما من جهة الصريح والنص فلا..»[٣].

وقال ابن تيمية: «ثم لا خلاف بين الفريقين أن آيات الأحكام والوعد والوعيد، التي في القرآن تشمل الفريقين وإن كانت بصيغة المذكر»[٤].

وعليه فالصواب:

أن تناول صيغة جمع المذكر للنساء بقرينة شرف الذكورية وتسمى التغليب، وهو واقع في اللغة كما سبق، وتدخل النساء في جمع المذكر حسب دلالة العرف، وكذا دلالة الشرع؛ لأن عموم الأحكام الشرعية شاملة للجنسين[٥]، وعليه جرت عادة القرآن.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص الله ﷻ الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد، فإن قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن»[٦].

فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وجاء على طريقتهم في الخطاب فإن النساء يدخلن في خطاب الرجال؛ لأن العرب تغلّب المذكر على المؤنث، فيقول الرجل: ادخلوا، واخرجوا، وهو يقصد بذلك مخاطبة جميع الموجودين من ذكور وإناث، ولا يستقيم في لغة العرب أن يقول: ادخلوا وادخلن، واخرجوا واخرجن.

---

(١) البرهان في أصول الفقه ١/٢٤٥.

(٢) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظَّفَري، المقرئ الفقيه الحنبلي الأصولي الواعظ المتكلم، أبو الوفاء، من مصنفاته: «الفنون»، «الواضح في أصول الفقه»، «الجدل على طريقة الفقهاء»، مات سنة (٥١٣هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنابلة ٢/٢٥٩، غاية النهاية في طبقات القراء ١/٥٥٦.

(٣) الواضح ٣/١٣١، وهو من القائلين بدخول النساء في خطاب المذكر بأصل الوضع.

(٤) مجموع الفتاوى ٦/٤٣٨.

(٥) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/٢٣٦.

(٦) تفسير القرطبي ١٢/٢٢٦.

وقد عُلم أيضاً بأدلة الشريعة ومقاصدها أن التكليف بالأحكام الشرعية موجَّهٌ إلى الرجال والنساء، فالجميع مكلَّفون ومخاطبون ومحاسبون ومثابون ومعاقبون. فاشتراك الرجال والنساء في جميع الأحكام هو الأصل المطَّرد إلا ما خصته الشريعة بالرجال دون النساء؛ كتحريم الذهب والحرير، ووجوب الجمعة والجهاد، وما خصته بالنساء دون الرجال؛ كالحجاب، ورعاية الأولاد، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة كل من النوعين، والله أعلم.

قال ابن تيمية: «وقد عهدنا من الشارع في خطابه أنه يعم القسمين ويدخل النساء بطريق التغليب»[١].

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف].

جاء بجمع المذكر ليعُم المذكر والمؤنث من الباقين.

قال الطبري: «وقيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، ولم يقل: الغابرات؛ لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾»[٢].

وقال الزمخشري: «﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من الذين غبروا في ديارهم؛ أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»[٣].

وقال ابن جزي: «إنما قال: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بجمع المذكر تغليباً للرجال الغابرين»[٤].

وقوله جل وعلا في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف].

عَدَل من جمع المؤنث إلى جمع المذكر من باب التغليب، وأل للاستغراق.

قال البيضاوي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ من القوم المذنبين

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٣٦. (٢) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥١.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٩، وينظر: تفسير البيضاوي ٣/ ٣٨، تفسير النسفي ٢/ ٢٣.
(٤) التسهيل ١/ ٤٠٢.

من خطئ إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب»[١].

وقال أبو حيان: «ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله: لذنبك، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾، ولم يقل: من الخاطئات؛ لأن الخاطئين أعم؛ لأنه يطلق على الذكور والإناث بالتغليب»[٢].

وقال القرطبي: «﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل: ٤٣]، ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التَّحريم: ١٢]»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم، يقال: خطئ إذا أذنب عمداً، وهو تعليل للأمر بالاستغفار، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث»[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النمل].

فلم تأت الآية بجمع المؤنث؛ لأن الإخبار عن المؤنث والمذكر، فغلب المذكر[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التَّحريم].

ففي هذه الآية غُلِّب جمع المذكر مع أن السياق في مؤنث دخل في جمع المذكر من باب التغليب المعروف عند العرب.

قال البيضاوي: «﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب»[٦].

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٨٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٩٨.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ١٧٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٠.
(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٩/ ١٧٥.
(٦) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٥٩، وينظر: تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧٠.

قال أبو حيان: «﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ غلب الذكورية على التأنيث، والقانتين شامل للذكور والإناث»[(١)].

وقال الزركشي: «وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٣]، والأصل من القانتات والغابرات فعُدَّت الأنثى من المذكر بحكم التغليب»[(٢)].

وبعد؛ فهذه نماذج من كتاب الله تعالى في خطاب البشر رجالاً ونساءً، والمرأة على عادة القرآن داخلة فيما يصلح لها من خطابات القرآن، فهي داخلة في خطاب الله تعالى للناس على وجه العموم، فيما يدعوهم إليه، وهي داخلة في خطاب الله تعالى للمؤمنين، في كل الأوامر والنواهي، إلا ما دل عليه الدليل، وهي داخلة في خطاب الذكور حسب دلالة السياق في عرف اللغة، وفي عرف الشرع، وهذا من كمال الشريعة، وجمال اللغة، وهو من التميز الذي عرف به الأسلوب القرآني في اختيار اللفظ المؤدي للمعنى الجامع، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

خطاب العام وخطاب الخاص

الأصل حمل خطابات القرآن العامة على عموم لفظها ما لم يرد نص بالتخصيص، فقد كان السلف رضوان الله عليهم يطلبون دليل الخصوص لا دليل العموم[(٣)].

ولهذا فمعرفة العام والخاص مهم في فهم الآية ودلالتها.

قال الزركشي: «قال القفال: ومن ضبط هذا الباب أفاد علماً كثيراً»[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠. (٢) البرهان ٣/ ٣٠٢.

(٣) قال أبو يعلي: «فإن المسألة إجماع الصحابة ﷺ» وذكر ما يؤيد ذلك، ينظر: العدة في أصول الفقه ٢/ ٤٩٢، الواضح ٣/ ٣١٧.

(٤) البرهان ٢/ ١٩.

والعام: هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له[١].

والخاص: هو قصر العام على بعض أفراده بدليل[٢].

وقد خاطب الله تعالى الناس في القرآن على أنواع مختلفة، فاجتمع فيه خطاب الخاص وخطاب العام على جميع وجوهه.

ولم يخرج غالب من كَتَبَ في العام والخاص القرآني من بحوث علماء أصول الفقه، إلا في الشيء القليل.

وعادة القرآن في الخطاب الشرعي العام بقاؤه على العموم، إلا ما خصه الدليل[٣].

قال الطبري: «وغير جائز ادعاء خصوصٍ في آيةٍ عامٌّ ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها»[٤].

وقال القرطبي: «والأصل عموم الخطاب، فمن ادعى زواله لأمر ما فعليه الدليل»[٥].

وأمثلة هذا كثيرة منها:

ـ ما ذكره الطبري بعد ذكر أقوال السلف في المراد بالبقرة الواردة في سورة البقرة: «وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه ـ من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم: إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم **من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم الله، فيما أمرَ ونهى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يَخُصَّ بعض ما عمَّهُ ظاهرُ التنزيل،** كتاب من الله أو رسولُ الله، وأن التنزيل أو الرسول إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم خلافِ ما دل عليه الظاهر؛

(١) ينظر: العدة ١/ ١٥٥، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٢.
(٢) ينظر: شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٦٧، التأسيس في أصول الفقه ٣٤٩.
(٣) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ٢/ ٥٢٧.
(٤) تفسير الطبري ٢/ ٤٦٤.
(٥) تفسير القرطبي ٢/ ٢٣٤.

فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمَّت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم»(١).

- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال البيضاوي: «الخطاب عام كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم»(٢).

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

قال ابن جزي: «خطاب عام؛ لأن النبي ﷺ بُعِث إلى جميع الناس»(٣).

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة»(٤).

- وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عطية: «﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها»(٥).

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج].

قال القرطبي: «المسافر يخاطب بالأضحية كما يخاطب بها الحاضر، إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء»(٦).

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٠٧.
(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٦٥.
(٣) التسهيل ١/ ٢٩٢.
(٤) الكشاف ١/ ٥٥٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ٤٧.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال أبو السعود: «فإن الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين في الآفاق من الحاضرين والمسافرين»(١).

وكما أن التكاليف بالأوامر والنواهي على درجات، فكذلك العموم في التكاليف متفاوت، فهناك عموم وعموم أعم منه، فيراعى في ذلك سياق الآية(٢).

قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قال ابن تيمية: «ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات: فبعضها أفضل من بعض، وبعض المنهيات شر من بعض»(٣).

وعادة القرآن كذلك بقاء عموم أخباره حتى يأتي ما يخصصها.

ـ وقد نص عليها الطبري في مواضع كثيرة، ويرجح بها، حيث يقول بعد ذكر الخلاف في الأسير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان]: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الأبرار بأنهم كانوا في الدنيا يطعمون الأسير، والأسير الذي قد وصفت صفته؛ واسم الأسير قد يشتمل على الفريقين، وقد عمّ الخبر عنهم أنهم يطعمونهم فالخبر على عمومه حتى يخصه ما يجب التسليم له»(٤).

ـ وقال مرجحاً للعموم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]: «والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله عمّ بقوله: ﴿فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى، وقد هداهم لسبيل الخير والشرّ، وهدى الذكور لمأتى الإناث، فالخبر على عمومه حتى يأتي خبر تقوم به الحجة دالّ على خصوصه»(٥).

---

(١) تفسير أبي السعود ١/١٧٨.
(٢) فقد يكون العموم للناس كافة، وقد يكون لعموم المؤمنين، وهكذا.
(٣) مجموع الفتاوى ١٧/٦١.
(٤) تفسير الطبري ٢٤/٩٨.
(٥) تفسير الطبري ٢٤/٣٦٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة].

لما ذكر أبو بكر بن العربي الخلاف في المراد بالمساجد، قال: «الرابع: أنه كل مسجد، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصه ببعض المساجد، أو بعض الأزمنة محال»[(١)].

وقال البيضاوي: «﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عام لكل من خرَّب مسجداً أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

فالخطاب عام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[(٣)].

قال الزمخشري: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطاب عام»[(٤)].

وقال ابن جزي: «﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ خطاب عام لجميع الناس؛ لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله، وقيل: خطاب لليهود خاصة، والأول أظهر؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم لا يصلون إلى العلم بالروح»[(٥)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

قال ابن الزِّبَعرى[(٦)]: «لأخصمن محمداً، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

(١) أحكام القرآن ١/٥٩.
(٢) تفسير البيضاوي ١/٣٨٥.
(٣) ينظر: تفسير النسفي ٢/٢٩٨.
(٤) الكشاف ٢/٦٤٥.
(٥) التسهيل ٢/١١٨.
(٦) هو: عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس أبو سعد القرشي السهمي الشاعر، كان شديداً على المسلمين في الجاهلية، أسلم بعد الفتح، واعتذر ومدح النبي ﷺ، فقبل منه وعذره وأحسن إليه، له ترجمة في: الإصابة ٤/٨٧، طبقات فحول الشعراء ١/٢٣٣ وما بعدها.

قد عُبِدت الملائكة، وعُبِد المسيح، أفيدخلون النار؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء]»[(١)].

هذا ما ذكره عامة المفسرين في سبب نزول هذه الآية، ومنهم: الطبري[(٢)]، والسمرقندي[(٣)]، والسمعاني[(٤)]، والبغوي[(٥)]، وابن عطية[(٦)]، وغيرهم[(٧)].

وفيه دليل على أن صيغة العموم تدل على الاستغراق، بدليل استدلال ابن الزبعرى بعموم اللفظ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ هذا الفهم؛ بل أنزل الله الآية التي تبين حكم الله فيمن ذكر كعيسى والملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء]، وهذا استدلال صحيح؛ فلا بد من دليل خاص لإخراج شيء من لفظ العموم.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء]، ومعلوم أنه لم يرد به المسيح وعزيراً؛ فنزلت الآية مطلقة اكتفاء بالدلالة الظاهرة على أنه لا يعذبهما الله وكان ذلك بمنزلة الاستثناء باللفظ، فلما قال المشركون: هذا المسيح وعزير قد عُبِدا من دون الله أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء]»[(٨)].

وقال الرازي: «هب أنه ثبت العموم، لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير؛ لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل مكرمة»[(٩)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/١٥٣ (١٢٧٣٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٥٢، وذكره الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٣٥، وينظر: مجمع الزوائد ٧/٦٩.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٤١٩.
(٣) تفسير السمرقندي ٢/٤٤٢.
(٤) تفسير السمعاني ٣/٤١٠.
(٥) تفسير البغوي ٣/٢٢٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/١٠١.
(٧) ينظر: زاد المسير ٥/٢٨٨، تفسير الرازي ٢٢/١٩٣، تفسير القرطبي ١١/٣٤٣.
(٨) البرهان ٢/١٨٦.
(٩) تفسير الرازي ٢٢/١٩٣.

وذهب بعض العلماء إلى أن الصيغة لا تفيد العموم.

وأجابوا عن سؤال ابن الزبعرى بأجوبة منها:

١ ـ أن الخطاب لأهل مكة، و[مَا] في الآية لغير العالم فلا يدخل إلا الأصنام التي عبدوها، وفي إدخالها النار زيادة ذل ومهانة لعابديها، فكيف يورد هذا على المسيح والملائكة[١].

٢ ـ أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة؛ لقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩][٢].

وهذه الأجوبة وإن كانت محتملة في هذه الآية؛ إلا أن بقاء اللفظ العام على عمومه هو الأولى والأقوى والأظهر[٣] لأمور منها:

الأول: أن ابن الزبعرى استدل بـ[مَا] في الآية على العموم، وهو حجة في اللغة[٤].

الثاني: أكَّد ذلك أنه لم ينكر عليه النبي ﷺ، بل جاءت الآية الأخرى مبينة لها.

الثالث: أن لفظة [مَا] وإن كان استعمالها لغير العالم فقد تستعمل للعالم، كما قال تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون].

الرابع: أنه على فرض خطأ استدلال ابن الزبعرى كما ذكر بعض العلماء، فلا يمنع من بقاء الاستدلال بالعموم على عمومه، ويكون المانع له في هذا الدليل صوارف غير لفظ العموم، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٢، تفسير السمعاني ٣/ ٤١٠، تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٣٤٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٣) وهذه مسألة أطال فيها الأصوليون، فينظر مثلاً: العدة ٢/ ٤٨٥، الإحكام للآمدي ٢/ ١٨٥، الإحكام لابن حزم ١/ ٣٣٨، شرح الكوكب المنير ٣/ ١٠٨، شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤٦٥، تفسير الرازي ٢٢/ ١٩٣.

(٤) ينظر: العدة ٢/ ٤٩٠.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر].

قال جماعة من المفسرين: المراد بالإنسان الجنس؛ فيعم كل الناس، وبهذا فسره الطبري[(١)]، والزجاج[(٢)]، وابن الجوزي[(٣)]، والقرطبي[(٤)]، وغيرهم[(٥)].

قال الزجاج: «الإنسان ههنا في معنى الناس، كما تقول: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، تريد قد كثر الدراهم»[(٦)].

ودليلهم: أن الله سبحانه استثنى من الإنسان جماعة فدل على أن المراد عموم الناس.

قال الطبري: «واستثنى الذين آمنوا عن الإنسان؛ لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد»[(٧)].

وقال الفراء: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣] استثنى كثيراً من لفظ واحد؛ لأنه تأويل جِمَاع»[(٨)].

وذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان هنا بمعنى الكافر[(٩)]، ومنهم السمرقندي[(١٠)]، والواحدي[(١١)]، وأشار إليه النحاس[(١٢)].

قال السمرقندي: «يعني: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، ومن كان في مثل حالهم»[(١٣)].

وقال الواحدي: «يعني: الكافر العامل لغير طاعة الله»[(١٤)].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٣) زاد المسير ٨/ ٣١٦.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٢٦، تفسير النسفي ٤/ ٣٧٥، تفسير ابن كثير ٨/ ٣٨٥٣، الوجوه والنظائر للدامغاني ٥٢.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٥٩.
(٧) تفسير الطبري ٢٤/ ٦١٤.
(٨) معاني القرآن ٢/ ٥.
(٩) ينظر: تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(١٠) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١١) الوجيز ٢/ ١٢٣١.
(١٢) ينظر: معاني القرآن ٤/ ٢٥٩.
(١٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(١٤) الوجيز ٢/ ١٢٣١.

وقال البغوي في استدلالهم: «قيل: أراد به الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين»[١].

والذي يظهر لي أن هذا الدليل لا يقوى على تخصيص اللفظ العام ببعض أجزائه، ويضاف إلى ذلك أن الاستثناء سيكون على هذا التفسير منقطعاً، وهذا خلاف الأصل، فيبقى الاستثناء دليلاً قوياً للقول الأول.

كما أن مما يُستدل لهم به: أن استعمال لفظ الإنسان في القرآن إنما يراد به الكافر؛ لأن هذا اللفظ من خصائص المكي، وهذا أيضاً غير مسَلَّم؛ لأنه ينخرم عليهم في مواضع عدة من كتاب الله تعالى.

قال القرطبي: «وأما من قال: إن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، مكي حيث وقع فليس بصحيح، فإن البقرة مدنية، وفيها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، في موضعين»[٢].

فالحق والصواب أن المراد في الآية: عموم الناس؛ لأمور منها:

١ ـ أن هذا هو ما عليه اختيار جماهير العلماء من المفسرين وغيرهم[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٣] استثناء من الإنسان، إذ هو بمعنى الناس على الصحيح»[٤].

٢ ـ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولم أجد دليلاً صحيحاً لمن خصه بأسماء معينة[٥]، قال ابن حجر: «تنبيه: لم أر في تفسير هذه السورة ـ يعني: سورة العصر ـ حديثاً مرفوعاً صحيحاً»[٦].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٩١.
(٢) تفسير القرطبي ١/٥، والموضعان: آية: ٢١، وآية: ١٦٩.
(٣) سبقت الإشارة إلى عدد منهم، وينظر: غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٤٢، البرهان للزركشي ٥/٧، أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٤) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٥) ينظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٠.
(٦) فتح الباري ٨/ ٩٤٥، وينظر: تفسير السمعاني ٦/ ٢٧٩.

٣ ـ أن الأصل كذلك: بقاء العموم على عمومه حتى يأتي ما يقوى على تخصيصه.

قال الشنقيطي: «وقيل: خاص بالكافر، والأول أرجح للعموم»[(١)].

٤ ـ أن: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [العصر: ٣] اسم موصول يدل على جماعة، والجماعة لا تُستثنى من واحد، فدل ذلك على أنه أراد بالإنسان الجنس[(٢)].

٥ ـ أنه لوكان المراد بالإنسان في الآية الكافر لما احتيج إلى استثناء المؤمنين[(٣)].

والله تعالى أعلم.

والأمثلة في هذا كثيرة.

والحاصل منها: أن خطاب الشرع في القرآن عام لكل من يصلح له حتى يأتي ما يخصصه، فيُطْلب الدليل على الخصوص لا على العموم.

وكذلك نصوص الأخبار في القرآن الأصل حملها على العموم حتى يرد ما يخصصها.

قال ابن تيمية: «فإنه إذا عُرِف المتكلم فهم من معنى كلامه، ما لا يفهم إذا لم يعرف؛ لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه، ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية، فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى؛ فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها: عرف عادته في خطابه، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ، ماذا عنى بها الله ورسوله؟ فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث

---

(١) أضواء البيان ٦/ ١٣٧.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٣٣٣، تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٣١.

وسُنَّة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه، ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة؛ عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ بل هي لغة قومه، ولا يجوز أن يُحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه، كما يفعله كثير من الناس، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه..»(١).

ومن وجوه المخاطبات في القرآن الخطاب الخاص.

- كقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].
- وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُخان].
- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].
- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وغيرها(٢).

فهذه وإن كانت خاصة إلا أن فيها عموماً نسبياً، وحملها على العموم الذي يصلح لها هو الصواب.

ولذلك قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]: «هي خاصة من المسلمين فيمن لم يؤدِّ زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب؛ لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا»(٣).

وقال البغوي: «وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين»(٤).

وقال ابن جزي: «﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُخان]، يقال

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١١٥.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢١٧، ٢١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٢٥.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٤.

هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به»[١].

والذي يرجحه المحققون عموم حكم الخطاب لجميع المكلفين الذين حالهم كحال ذلك الذي نزل فيه القرآن، وجماهير العلماء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

قال الشاطبي: «غالب الأدلة الشرعية وعمدتها هي العمومات»[٣].

ومما يؤكد هذه العادة: عدم ذكر من كان سبباً في النزول في أكثر آيات القرآن التي لها سبب صحيح، بل يأتي اللفظ عاماً ليكون تشريعاً لجميع أهل الإسلام بدلالة العموم.

قال ابن تيمية: «والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً»[٤].

والقائلون بالعموم أرادوا أن عمومه عُرف بطريق العرف الشرعي، فالأصل في التشريع العموم، ولا يخصص به فرد إلا بدليل قوي يدل على الخصوصية.

ويدل على ثبوت العرف الشرعي آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٨﴾ [سبأ]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويؤيد ذلك الإجماع على عموم حُكْم السرقة واللعان والظهار وغيرها مع أن سببها كان خاصّاً.

قال الطوفي: «أكثر أحكام الشرع العامة وردت لأسباب خاصة؛ كورود

(١) التسهيل ٣/ ٣٣.
(٢) ينظر: الإبهاج ٢/ ١٨٥، إرشاد الفحول ١/ ٣٣٢.
(٣) الموافقات ٤/ ٤٦.
(٤) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٩.

حكم الظهار في أوس بن الصامت، وحكم اللعان في شأن هلال بن أمية، فلو كان السبب الخاص يقتضي اختصاص العام به، لما عمت هذه الأحكام، لكنه باطل بالإجماع»[(١)].

ومن أنكر عموم الخطاب الموجه لواحد من الأمة، قالوا: يلحق به غيره من المكلفين ممن حاله كحاله بطريق القياس.

فالخلاف بينهم: في أن عمومه بطريق النقل العرفي أو بطريق القياس.

والذي يظهر أن القول بالعموم أولى؛ لأن القائل به لا يحتاج إلى البحث عن علة الحكم وتحققها في بقية المكلفين، بخلاف من قال بالقياس، فإنه يحتاج إلى ذلك.

قال الشوكاني[(٢)]: «والحاصل في هذه المسألة على ما يقتضيه الحق، ويوجبه الإنصاف عدم التناول لغير المخاطب من حيث الصيغة، بل بالدليل الخارجي، وقد ثبت عن الصحابة فمن بعدهم الاستدلال بأقضيته ﷺ الخاصة بالواحد، أو الجماعة المخصوصة على ثبوت مثل ذلك لسائر الأمة، فكان هذا مع الأدلة الدالة على عموم الرسالة، وعلى استواء أقدام هذه الأمة في الأحكام الشرعية مفيداً لإلحاق غير ذلك المخاطب به في ذلك الحكم عند الإطلاق إلا أن يقوم الدليل الدال على اختصاصه بذلك»[(٣)].

وبهذا يظهر لي أن الأصل في نصوص الشرع العموم حتى ولو كان اللفظ خاصاً باللغة والوضع، حتى يأتي دليل على التخصيص والحصر[(٤)]، فإن المعتبر هو عرف الشارع وعادة القرآن، والله تعالى أعلم.

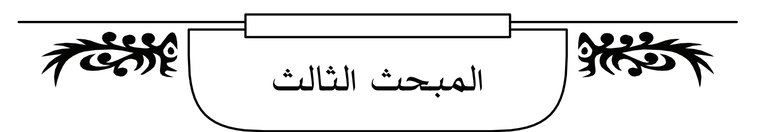
---

(١) شرح مختصر الروضة ٢/ ٥٠٣.

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني أبو عبد الله الصنعاني، فقيه مجتهد، ومن تصانيفه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، فتح القدير، مات سنة (١٢٥٠هـ)، له ترجمة في: البدر الطالع ٢/ ١٠٦، الأعلام ٦/ ٢٩٨.

(٣) إرشاد الفحول ١/ ٣٢٥.

(٤) أي: ببعض أفراد العام دون من يماثلهم بالصفة.


المبحث الثالث

انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب

وفيه ستة مطالب:

- **المطلب الأول: انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب.**
- **المطلب الثاني: انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم.**
- **المطلب الثالث: انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم.**
- **المطلب الرابع: انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة.**
- **المطلب الخامس: انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة.**
- **المطلب السادس: انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب.**

❐ تمهيد:

من عادات القرآن البيانية: انتقال الكلام ـ في السياق الواحد ـ من أسلوب إلى أسلوب آخر، وهذا مما تميز به القرآن، واختصت به لغة العرب، ونال عناية علماء التفسير والبلاغة في القديم والحديث(١).

وأبرز مثال على ذلك ما اصطلح عليه الجمهور بـ: أسلوب الالتفات،

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٢، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٧٧، الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٣/ ١٧، الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ١٦٣ ـ ١٦٤، المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، الكشاف للزمخشري ١/ ٥٦، ١٢٠، ١٦٩، تفسير البيضاوي ١/ ٢١٥، ٢٦٨، ٣٢٥، الإكسير في علم التفسير للطوفي ١٥٣ ـ ١٥٦، الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ٧٢ ـ ٨٠، البحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٤١، ١٦٧، ٣٠٢، والدر المصون للسمين الحلبي ١/ ٤٥، ١٤٩، ٢٠٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٢، ١٦، ١٢٧، روح المعاني للألوسي ١/ ٧٣، ٨٩، ٢٥٢، التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٠٩، ١١٦، ١٧٨، ١٨٠، وغيرها.

وحقيقته: انتقال الضمير من أحد طرق الكلام ـ التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة ـ إلى طريق آخر منها[١].

قال السيوطي: (هذا هو المشهور)[٢].

وهو كثير في كلام العرب نثراً ونظماً[٣].

وتوسع ابن الأثير في مصطلح الالتفات فأدخل فيه ـ إضافةً إلى الضمائر ـ الالتفات في الأفعال، والأعداد، وامتدح هذا الأسلوب بقوله: «وهذا النوع ـ الالتفات ـ من خلاصة علم البيان التي حولها يُدَنْدَن، وإليها تستند البلاغةِ، وعنها يُعَنعن، وحقيقته: مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشمالهِ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، . . . ويسمى أيضاً: شجاعة العربية؛ وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»[٤].

وقال ابن عاشور: «نرى من أفانين الكلام: الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني: شجاعة العربية[٥]؛ لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال»[٦].

وبغضِّ النظر عن المصطلح فإن انتقال أسلوب الكلام في القرآن من وجه

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٧٤، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٤.
(٢) الإتقان ٢/ ١٨٤.
(٣) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.
(٤) المثل السائر ٢/ ٣.
(٥) وكذا سماه الطوفي في الإكسير ١٥٣.
(٦) التحرير والتنوير ١/ ١٠٩.

إلى آخر، من عادة القرآن الظاهرة، وقد ربطه البلاغيون ببلاغة العرب وعاداتهم وأساليبهم، ولهذا فهم يستكثرون منه؛ لكونه أجمل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأعظم للإصغاء إليه.

وأمثلته في كتاب الله تعالى لا تحصى، بل إن هذه الانتقالات في طرق الكلام ارتبطت بأساليب القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته، وهذا مما يُظهر أهمية دراسة هذه الأساليب ومعرفة أسرارها.

وفي هذا المبحث التركيز على عادة القرآن في تحولات الخطاب القرآني بين الأساليب الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، والقسمة العقلية تجمعها في ست صور، كلها تحققت في القرآن على تفاوت في كثرة ورودها، هو ما سيسطر في هذا المطلب وما يليه بإذن الله تعالى.

المطلب الأول

انتقال الكلام من التكلم إلى الخطاب

المراد به: أن يجري سياق الكلام على ضمير التكلم ثم يتحول إلى ضمير الخطاب، وتتمثل بلاغة هذا الأسلوب في حث السامع على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فَضْل عناية، وخصه بالمواجهة[(١)].

كقوله تعالى في حكاية مقالة الرجل المؤمن الذي كان يدعو قومه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس].

فالالتفات في الآية: هو في انتقال الكلام من المتكلم في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إلى المخاطب وهو قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

فجاء على طريقة التكلم، ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾، ولو جاء الكلام على مقتضى السياق لكان: وإليه أرجع؛ ليتناسب مع المتكلم، ولكنه جاء على طريقة الالتفات، وفيه شدة تحذير لهم، وتنبيه إلى أنهم صائرون إلى الله وراجعون إليه، ولا يتأتى هذا لو قال: وإليه أرجع؛ لأن في الالتفات

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣١٥.

التنبيه برجوعهم إلى من يكفرون به، فيكون أبلغ تأثيراً بهم من التكلم عن النفس.

ولهذا أُخرج الكلام هنا في سياق مناصحة المتكلم لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم لغرض تخويفهم ودعوتهم إلى الله[(١)].

قال الزركشي: «ومن فوائد الالتفات: التنبيه على ما حقُّ الكلام أن يكون وارداً عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس]، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضياً له، ثم ساقه هذا المساق، إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس: ٢٥]»[(٢)].

وقال الشوكاني: «ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، ولم يقل: وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد»[(٣)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس].

في هذه الآية التفات في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾، صيغة خطاب، وكان السياق بصيغة التكلم في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ﴾، وكان المقتضى لاستمرار المقطع على صيغة واحدة: ولكن أعبد الله الذي يتوفاني.

(١) ينظر: الإتقان ٢/ ١٨٤.
(٢) البرهان ٣/ ٣٢٨.
(٣) فتح القدير ٤/ ٥١٨، وينظر: روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

قال الرازي: «فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصيغة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ قلنا: فيه وجوه:

الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً، ثم يتوفاكم ثانياً، ثم يعيدكم ثالثاً، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مراراً وأطواراً، فههنا اكتُفي بذكر التوفي منها لكونه منبهاً على البواقي.

الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس].

فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم، قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبيَّنه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وإبقائي»(١).

ففي هذا الالتفات التهديد والوعيد للمشركين.

قال أبو السعود: «وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقاً بهم ما لا يخفى من التهديد»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٣٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩، وينظر: فتح القدير ٢/ ٤٧٧.

وفيها انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾.

وفيها كذلك انتقال من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ١٤﴾.

ففي هذه الآيات تردد الأسلوب بين التكلم والخطاب، فالمتكلم هو الله ﷻ والمخاطب هو موسى ﵇.

والأوامر الشرعية تحمل معنى الخطاب والتكليف، اهتماماً بالمخاطب، وتفخيماً للمخاطب به.

قال الزركشي: «ومن الالتفات من التكلم إلى الخطاب: قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، ﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو كثير»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة].

ففي هذه الآية انتقال من أسلوب التكلم من الرب الخالق للجميع حينما ذكر أوصاف المؤمنين والكافرين والمنافقين، إلى أسلوب الخطاب اهتماماً بهم وبما سيأمرهم به.

قال البيضاوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة]، لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة»[٢].

وقال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم، وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق: مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعت كل فرقة منها بما

---

(١) البرهان ٣/٣١٦.
(٢) تفسير البيضاوي ١/٢١٥.

لها من النعوت والأحوال، وبيَّن ما لهم من المصير والمآل، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء، وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي، وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب، فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ].

ففي قوله: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ التفات من التكلم إلى الخطاب، لما فيه من الإشعار بأن الربوبية تقتضي الرزق لعباده واستحقاقه للشكر(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح].

افتتحت السورة بالتكلم ثم تحول الأسلوب إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، وفيه تشريف للنبي ﷺ، وبيان لغاية الفتح.

قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: لنغفر لك؛ تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى، ولهذا علق به النصر، فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح]»(٣).

وقال أبو السعود: «وقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ غاية للفتح؛ من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاق الحروب، واقتحام موارد الخطوب، والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر، مترتبة على صفة من صفاته تعالى»(٤).

وبعد هذا؛ فانتقال الكلام من أسلوب التكلم إلى أسلوب الخطاب، كثير

---

(١) تفسير أبي السعود ١/٥٨.
(٢) ينظر: البرهان ٣/٣١٦.
(٣) البرهان ٣/٣١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/١٠٤.

في القرآن، وفيه التأثير على السامع إما من جهة تشريفه أو تنبيهه أو تخويفه أو غير ذلك، وفيه الإشارة إلى أهمية الموضوع المخَاطَبِ فيه، فيُلتَفت إلى الأسلوب المناسبِ له، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

انتقال الكلام من الخطاب إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أسلوب خطاب، ثم تحول إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾، خاطب الله عز وجل نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، أي: قل لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكراً واستدراجاً وعقوبة لكم، ففي الآية تهديد من الله تعالى للمشركين على مكرهم، ثم جاء الالتفات إلى التكلم فقال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا، ثم نحاسبكم على ذلك.

قال أبو حيان: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لم يأت: إنّ رسله»(١).

وقال السمين: «وفي قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفاتٌ أيضاً، إذ لو جَرَى على قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إنَّ رسله»(٢).

وقال الألوسي: «وفي: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ التفات، إذ لو أُجرِي على قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، لقيل: إن رسله، فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه

---

(١) البحر المحيط ٥/ ١٤٠، وينظر: تفسير اللباب ١٠/ ٢٨٧.
(٢) الدر المصون ٨/ ١٤٣.

لأمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم: إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام»[١].

وقال الزركشي ضمن أقسام الالتفات: «من الخطاب إلى التكلم: كقوله: ﴿...فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه] وهذا إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحداً فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به.

ويمكن أن يمثل بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ على أنه سبحانه نَزَّل نفسه منزلة المخاطب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أيها القوم من ذنوبكم، بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام، وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾، يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة ﴿وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾، يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يودُّه ويحبُّه»[٣].

فأول الآية جاء بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، ثم انتقل في آخرها لأسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: إن ربكم، لموافقة سابِقِه، ولكن التفت من الخطاب إلى التكلم، وفيه الإشارة ـ والله أعلم ـ إلى أن ربكم وربي واحد، وهو المستحق للعبادة وحده، وفي ضمير الخطاب ترغيب لهم بالتوبة حيث أضاف كلمة رب إلى خطابهم، ليحرك ما في نفوسهم، ويقربهم إلى الله، والانتقال

---

(١) روح المعاني ١١/٩٥.
(٢) البرهان ٣/٣١٧.
(٣) تفسير الطبري ١٥/٤٥٦.

لخطاب التكلم؛ لبيان ما يعهده نبي الله شعيب عليه السلام في نفسه، وأنه موقن برحمة ربه، وصادق في دعوته، والله أعلم.

قال البقاعي: «﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: اطلبوا ستر المحسن إليكم، ونبَّه على مقدار التوبة بأداة التراخي فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ثم علل ذلك مرغباً في الإقبال عليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾؛ أي: المختص لي بما ترون من الإحسان ديناً ودنياً ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: بليغ الإكرام لمن يرجع إليه بأن يحفظه على ما يرضاه، بليغ التحبب إليه»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه].

في الآية التفات من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾، وفيه حثهم وترغيبهم بعبادة الله تعالى، وترك الشرك به سبحانه.

قال الطبري: «يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي يعم جميع الخلق نعمه، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له»(٢).

وقال مكي: «ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: إن معبودكم الذي يستحق العبادة هو الرحمٰن، فاتبعوني ولا تعبدوا غيره، وأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل»(٣).

وفي هذا الالتفات إشارة إلى تلطُّف هارون عليه السلام مع قومه وشفقته عليهم.

قال الرازي: «اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق»(٤).

وقال أيضاً: «واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم دعاهم

(١) نظم الدرر ٣/ ٥٦٩.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥٨.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٧/ ٤٦٨٧.
(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٩١.

إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ثم دعاها ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ وهذا هو الترتيب الجيد»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس].

فالآية الأولى بأسلوب الخطاب في قوله: ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾، ثم انتقل إلى التكلم في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وقد كان مقتضى السياق أن يكون: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؛ بدليل آخر الآية حيث التفت أُخرى إلى الخطاب، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

وفي التفات هذه الآية من أسلوب الخطاب إلى أسلوب التكلم تلطف من الرجل المؤمن بالمخاطبين، فأورد الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، وفيه إظهار كمال النصح لهم حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه[٢].

قال السمين: «قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون، ولكنه صَرَفَ الكلامَ عنهم، ليكون الكلامُ أسرعَ قبولاً، ولذلك جاء قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ دون: وإليه أرجعُ»[٣].

وفي قوله جل وعلا في الآية بعدها على لسانه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس]، ولم يقل: بربي ما يؤكد هذا الحرص.

قال ابن الأثير: «وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٢.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ١٣، تفسير البيضاوي ٤/ ٤٣٠، البرهان ٣/ ٣٢٨، تفسير أبي السعود ٧/ ١٦٤.
(٣) الدر المصون ١٢/ ١٥٤.

المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس] فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر].

فأول الآية أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة].

فالله جل وعلا يخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وأعقبه مباشرة بأسلوب التكلم بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فقل لهم إني قريب، ولكن الله تولى الجواب، فهو قريب جل وعلا من داعيه بالإجابة، وفيه إشارة إلى فضل الدعاء، والحث عليه، وأن الله وحده هو المجيب لمن دعاه.

قال أبو حيان: «وهو من باب الالتفات»(٢).

وقال الزركشي: «فإن قيل: كيف جاء ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بقل نحو: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ونظائره.

قيل: حُذِفت للإشارة إلى إن العبد في حالة الدعاء مستغن عن الواسطة، وهو دليل على أنه أشرف المقامات، فإن الله سبحانه لم يجعل بينه وبين الداعي واسطة، وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة»(٣).

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ في تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾؛

---

(١) المثل السائر ٢/٧.
(٢) البحر المحيط ٢/٥٢.
(٣) البرهان ٤/٥٤.

أي: فقل لهم: إني قريب»[١].

وقال السعدي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قُرْب يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم»[٢].

وجمعاً لما مضى أقول:

إن من العلماء من قال: الالتفات من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن[٣]؛ لأن شرط الالتفات أن يكون المرادُ به واحداً.

والسبب في ذلك:

١ ـ ما بين الأسلوبين من التقارب الشديد، فلا يتميز الخطاب والتكلم في السياق الواحد.

٢ ـ أو التباعد التام، بحيث يكون الملتَفَتُ إليه غير الملتَفَت عنه.

ومن جهة أخرى فلا يخلو سياق من أسلوب الخطاب والتكلم، وعليه فلا بد من الدقَّة في استنباط الانتقال بين هذين الأسلوبين، والتماس الحِكَم والأسرار من الانتقال بينهما في أسلوب القرآن.

وما سبق من أمثلة هي نماذج عدَّها العلماء: انتقالٌ في الأسلوب من الخطاب إلى التكلم، وهي دليلٌ على وقوعه في القرآن.

وفيها زيادة العناية بالملتَفت إليه، وشد ذهن السامع، وكمال البلاغة والإعجاز في كتاب الله الكريم، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم

والمراد به: أن يكون السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب التكلم، وهو كثير في كتاب الله تعالى، اعتنى به العلماء، وبينوا لطائفه، مما

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٠.
(٢) تفسير السعدي ٣٨٤.
(٣) كالسيوطي في الإتقان ٢/ ١٨٥.

يدل على أهميته وكثرة فوائده[١].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

بيَّن تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل العهد المؤكد الغليظ، وبعث منهم اثني عشر رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أُمِرُوا به[٢].

وفي الآية الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم فحول الكلام من الغيبة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

قال أبو السعود: «والالتفات في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للجري على سنن الكبرياء، أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام»[٣].

وقال القاسمي: «وفي الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد»[٤].

وقال ابن عاشور: «والعدول عن طريق الغيبة من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، إلى طريق التكلم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ التفات»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

نزه تعالى نفسه، وعظمها لقدرته على ما لا يقدر عليه سواه، ومن ذلك إسراؤه بنبيه ﷺ، وعبَّر بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ فأضافه الله تعالى لنفسه تشريفاً، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ منكراً للإشارة إلى تقليل المدة، والإسراء ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٩.
(٢) ينظر: تفسير السعدي ٢٢٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ١٤، وينظر: روح المعاني ٦/ ٨٥.
(٤) تفسير القاسمي ٤/ ٨٨.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ١٤٠.

﴿ٱلۡحَرَامِ﴾ الذي هو أشرف المساجد ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء[١].

وجاءت هذه المقدمة بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم في قوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، وفيه إشارة إلى تعظيم البركات التي اختص بها المسجد الأقصى.

قال أبو حيان: «وهو التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم»[٢].

وقال أبو السعود: «والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات»[٣].

ثم التفت مرة أخرى من أسلوب التكلم في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ ما رأى من الأنبياء وآثارهم[٤]، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾، لينبه بالسميع أنه المجيب لدعائه، وبالبصير أنه الحافظ له في ظلمة الليل[٥].

قال الزمخشري: «ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى به، ثم: باركنا ليريه، على قراءة الحسن، ثم: من آياتنا، ثم: إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة»[٦].

وقال الرازي: «اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ لأن قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ فيه ذكر الله على سبيل الغيبة، وقوله: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ يدل على الغيبة، وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢] إلخ، يدل على الحضور، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى:

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ٤٥٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٥.
(٤) ينظر: معني القرآن للنحاس ٤/ ١١٩.
(٥) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٥٨.
(٦) الكشاف ٢/ ٦٠٦، وينظر: الإتقان ٢/ ١٨٦.

صنعة الالتفات»[١].

ولو جاء السياق على أسلوب واحد لكان بهذه الضمائر: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير.

قال الزركشي: «وقد تكرَّر الالتفات في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء] في أربعة مواضع»[٢].

ففي هذا الالتفات: مراعاةُ مناسبةِ المقام من التعظيم، وترابطٌ دقيق أثناء انتقالها من أسلوب إلى أسلوب، وهذا ما أعجز أهل البلاغة والفصاحة.

قال ابن الأثير: «فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعانٍ اختصت بها، يعرفها من عرفها ويجهلها من جهلها»[٣].

وقال الألوسي: «وصَرْفُ الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى صيغة المتكلم المعظم في: باركنا ونريه آياتنا لتعظيم البركات والآيات؛ لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير، تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنما يفعل العظيمُ العظيمَ، وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة، وهي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ يدل على مسيره ﷺ دون أن يراه أحد، فهو بالغيبة أنسب، وقوله تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دل على إنزال البركات؛ فيناسب تعظيم المنزل، والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ يدل على قربه ولطفه به فيناسب التكلم معه، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه..»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٢٢.
(٢) البرهان ٣/ ٣٢٢.
(٣) المثل السائر ٢/ ٦.
(٤) روح المعاني ١٣/ ١٥ بتصرف يسير.

فالالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ولم يقل: فارهبوه.

وفي هذا الالتفات: التنبيه على أهمية المتكلم عنه، والحث على الإصغاء أكثر، وتربيةُ المهابة في النفوس، والمبالغة في التخويف والترهيب، فتوجيهها للحاضر أبلغ من الغائب.

قال الزمخشري: «﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم»[١].

وقال الألوسي: «لأن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب، سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المتضمنة للعظمة والقدرة التامة على الانتقام»[٢].

ومن فوائد الالتفات هنا: تربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب.

قال ابن عطية: «والأمر بالرهبة يتضمن معنى التهديد»[٣].

وقال البيضاوي: «نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير»[٤].

وقال أبو السعود: «﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب؛ ولذلك قدم وكرر الفعل؛ أي: إن كنتم راهبين شيئاً فإياي ارهبوا»[٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩].

قال أبو حيان: «﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفات من غيبة إلى تكلم بنون العظمة»[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٠، وينظر: التسهيل ٢/ ٧٤.
(٢) روح المعاني ١٤/ ٣٣٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٦ بتصرف.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٠٤.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١١٩.
(٦) البحر المحيط ٤/ ١٩٢.

وفي هذا: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، إلى التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، إظهار قدرة الله تعالى وعظمته، وأن هذه النعم لا يقدر عليها غيره، وفيه إظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ يسمى التفاتاً، ويعد ذلك من الفصاحة»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه].

الالتفات هنا بين قوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وهو يختص بالغيبة، وبين قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو يختص بالمتكلم، وفيه إثبات كمال القدرة لله تعالى وحده.

قال أبو حيان: «فيكون قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفاتاً من الضمير الغائب، وسلك إلى ضمير المتكلم لمعظم نفسه»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ [طه:٥٣]»؛ أي: بذلك الماء، وهو عطف على: أنزل داخل تحت الحكاية، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠]»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر].

هنا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، جاء على أسلوب الغيبة، ثم انتقل إلى أسلوب التكلم فقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقول:

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٨٨.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢١.

فساقه، ولكن في هذا الالتفات إشعار بعظمة الله جل وعلا القادر على كل شيء.

وقد جاء ذلك مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ [فاطر: ٢٧].

فالالتفات هنا من قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ وهو أسلوب غيبة، إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ وهو أسلوب المتكلم؛ ليدل أن القادر على هذه الآيات هو الله جل وعلا دون سواه.

قال السمين: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التكلم، وإنما كان ذلك لأن المِنَّةَ بالإخراج أبلغُ من إنزال الماء»(١).

وقال البقاعي: «﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: التي لا يصعد إليها الماء، ولمَّا كان أمراً فائتاً لقوى العقول، نبَّه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾؛ أي: بما لنا من العظمة»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصّلت].

ففي الآية التفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾، وما قبلها من خلق السماوات والأرض، إلى أسلوب تكلم في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾، فهي ظاهرة للعباد، وفيه إبراز

---

(١) الدر المصون ١٢/ ١٣٠.
(٢) نظم الدرر ٦/ ٢٢٠.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠.

كمال قدرة الله سبحانه، والحث على التفكر في مخلوقاته.

قال الزركشي: «الالتفات من الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾»(١).

قال أبو السعود: «والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر»(٢).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وعناية المفسرين بها كبيرة، ولما تأملت فيها تبين لي ما يلي:

١ ـ أن أغلب الانتقالات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم يكون عائداً على الله تعالى.

٢ ـ وكذا أغلب ورود الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم في الآيات الدالة على كمال قدرة الله جل وعلا وتصريفه لهذا الكون، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾ [فصلت: ١٢].

٣ ـ أن في هذا الالتفات تخصيصاً للمذكور بأسلوب التكلم بعد الغيبة بمزية تتضمن التعظيم والتشريف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

فقد ذكر الله ﷻ الرسول ﷺ بأسلوب الغيبة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، ثم أعقب الغيبة بأسلوب المتكلم فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ فالتعريف بالإضافة في قوله: ﴿رَسُولِنَا﴾ لقصد تعظيم شأنه ﷺ، فهي إضافة تشريف وتكريم.

٤ ـ وفي هذا الالتفات إظهار العناية بالملتَفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ [فاطر: ٢٧].

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٧.

قال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(١).

٥ ـ في هذا الالتفات تفنن في الأسلوب، وهو من إعجاز القرآن البياني، لمن فهم اللغة وتأمل في القرآن، ويظهر ذلك جلياً إذا تكررت ضمائر الغيبة ثم جاء بعدها ضمير التكلم، كما في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

جاءت ضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ﴿وَهَدَىٰهُ﴾، في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام، ثم انتقل السياق إلى ضمير التكلم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: وآتاه.

قال ابن عاشور: «وضمير ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم تفنناً في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة»(٢)، والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع

انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة

والمراد به: أن يكون السياق جارياً على أسلوب التكلم، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهذا الأسلوب هو أكثر أنواع الالتفات وجوداً في كتاب الله تعالى(٣)، ولذلك أولاه المفسرون اهتماماً في دراسة مواضعه وبيان فوائده.

قال الزركشي: «الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم، وقصده من السامع حضر أو غاب، وأنه في كلامه ليس ممن يتلوّن ويتوجّه، فيكون في المضمر ونحوه ذا لَوْنَين، وأراد بالانتقال إلى

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠. (٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.

(٣) ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ١٩٠ وما بعدها، فقد أوصل الأمثلة إلى أكثر من ١٣٥ موضعاً.

الغيبة الإبقاء على المخاطب من قرعه في الوجه بسهام الهجر، فالغيبة أروح له وأبقى على ماء وجهه أن يفوت»[(١)].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

فالالتفات في هذه الآية في انتقال الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وفي قوله: ﴿عَبْدِنَا﴾ إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فالآية بدأت بضمير المتكلم ليثبت مصدر هذا المنزل، ثم جاءت كلمة ﴿عَبْدِنَا﴾ لتبين صفة النبي ﷺ، وتؤكد عبوديته التامة لربه جل وعلا، ثم تلتفت الآية إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لتزيد الأمر تعظيماً، وتوضح أن صاحب هذا الضمير السابق هو الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين.

وفي هذا الالتفات إدخال الروعة وتربية المهابة، والإيذان بكمال سخافة عقولهم، حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال ما لا أحقر منه، وتأكيد عجزهم عن المعنى الملتفت إليه[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فانتقل الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فآمنوا بالله وبي، استمراراً على أسلوب التكلم، وفي الالتفات إلى ضمير الغيبة فائدتان:

إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

والثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق

(١) البرهان ٣/٣١٦، ٣١٧.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ١/٦٥، ٦٦.

الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص[١].

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

في هذه الآية الالتفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

قال الطبري: «والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه»[٣].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من ناسخ ومنسوخ»[٤].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»[٥].

وكان مقتضى السياق أن يكون: ونحن أعلم بما ننزل.

ولكن في هذا الالتفات: توبيخ الكفار، وبيان الحكمة من النسخ في كتاب الله تعالى.

قال البيضاوي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم»[٦].

وقال أبو السعود: «وفي الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم

---

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٤١.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٧، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩١.
(٤) زاد المسير ٤/ ٤٩١.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٣.
(٦) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٠.

الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض»(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ [الكهف].

في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ﴾، أسلوب تكلم، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، ثم عاد والتفت إلى التكلم فقال: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف، ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه، ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ يقول: إن الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل»(٢).

وقال السمين: «قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، فيه التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة إذ لو جاء على نَسَقِ الكلام لقيل: إنهم فتيةٌ آمنوا بنا، وقوله: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ﴾ ﴿وَرَبَطۡنَا﴾ التفاتٌ من هذه الغَيْبَة إلى التكلم أيضاً»(٣).

وفي هذا الالتفات إلى لفظ الربوبية بيان عناية الله تعالى بهم، ورعايته وتوفيقه لهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤١، وينظر: روح المعاني ١٤/ ٢٣١.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.
(٣) الدر المصون ١٠/ ٢٥.

في هذه الآية يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ للقليل من أعمالهم(١).

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية»(٢).

قال ابن عاشور: «ووقع الالتفات من التكلم في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ رجوعاً إلى سياق الغيبة من قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليوفي الله الذين يتلون كتابه»(٣).

وفي هذا الالتفات بيان الوفاء الكامل في ثوابهم من الله تعالى، وأن جزاءهم مضاعف فضلاً من الله ومنّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات التفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾؛ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها(٤).

وفي هذا الالتفات بيان عظمة الله تعالى ومجده.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٠/٤٦٣، تفسير ابن كثير ٦/٥٤٥.
(٢) ٢٦/٢١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/٢٧٢.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟.

قلت: غير واحدة، منها: عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة.

ومنها: أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة.

ومنها: أنه قال أولاً: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنَّىٰ بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين»(١).

وقال الرازي: «فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور.

أحدها: أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة.

وثانيها: أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد، فتضاعفت الفخامة من طريقين.

وثالثها: يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام، والملائكة النازلين معه»(٢).

وقال ابن جزي: «وبدأ السورة بلفظ المتكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم رجع إلى الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية، وذلك هو الالتفات»(٣).

وقال البقاعي: «والالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ ليدل على ما اقتضته النون من العظمة مقدماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوِّين المُعْتَنَى بتذكرتهم وهداية من أريد منهم»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدُخان].

---

(١) الكشاف ٣/٥٣.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/٥.
(٣) التسهيل ٢/١٦٧.
(٤) نظم الدرر ٥/٩.

أقسم جلّ ثناؤه بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلة مباركة؛ أي: كثيرة الخير والبركة، يُفْصَل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، فأنزل الله تعالى أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، وهذا الأمر الحكيم أمر صادر من عند الله جل وعلا بنون العظمة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[(١)].

وقد جرى الكلام في بداية هذه السورة على أسلوب التكلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ ﴿عِندِنَا﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يكون: رحمة منا، ولكن في هذا الانتقال إشعار بعناية الله بمن أنزل عليهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ولما ذكر الرحمة أظهر اسم الرب؛ لأنه يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية.

قال البيضاوي: «﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة بهم، ووضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك فإنه أعظم أنواع التربية»[(٢)].

وقال الزركشي: «ومن الالتفات قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ عدل عن قوله: رحمة منا، إلى قوله: ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعبده»[(٣)].

وقال أبو السعود: «ووضع الرب موضع الضمير الإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية مقتضياتها وإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٢/٧، تفسير السعدي ٧٧١.
(٢) تفسير البيضاوي ٥/١٥٨. (٣) البرهان ٣/٣١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/٥٩.

في هاتين الآيتين تحول من التكلم في قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

قال القزويني: «مثال الالتفات من التكلم إلى الغيبة قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾»(١).

وكان مقتضى السياق أن يكون: فصل لنا، وفي عدول الضمير للغائب الحث على الصلاة؛ فذكر بأنها لربه الذي رباه ورعاه زيادة في الترغيب فهو المستحق لإخلاص العبادة له.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قوله: فصل لله؛ لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه»(٢).

وقال الزركشي: «حيث لم يقل: لنا، تحريضاً على فعل الصلاة لحق الربوبية»(٣).

وفيه هذا الأسلوب ترغيب النبي ﷺ بفعل ما أمره الله به على الوجه الأكمل، وفيه الإشارة إلى تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يرُبُّه ويرْأَف به(٤).

قال ابن عاشور: «والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، دون: فصل لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة؛ لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه»(٥).

وأمثلة هذا النوع كثيرة، وهي دالة على أهميته، ومن الحِكَم فيه:

١ ـ أن الالتفات من التكلم إلى الغيبة فيه نوع من البيان تظهر فيه روعة الأسلوب وجمال الألفاظ، مما ينشط الذهن ويدفع الملل.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ٧٥.
(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٢٣.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٧.
(٤) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٢٤٧، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.

٢ ـ أن أسلوب التكلم عائد إلى الله تعالى غالباً، كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾، وغيرها.

٣ ـ أن الانتقال من التكلم إلى الغيبة زيادة في المعنى من ناحيتين:

الأولى: من أسلوب التكلم المتضمن للعظمة والفخامة.

والثانية: من أسلوب الغيبة المتضمن غالباً وصفاً أو أكثر للملتفت إليه.

كما قال تعالى في سورة طه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه] ثم التفت لبيان زيادة عظمة المنزل: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ٤].

٤ ـ أن الغرض من الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة يختلف حسب اختلاف السياق.

فقد يكون للتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية لتوبيخ الكفار المنكرين للنسخ، والمكذبين لرسول الله ﷺ.

وقد يكون لبيان العناية بالملتفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدُخان] لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعباده.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر]؛ لأن لفظ الرب يفيد كمال التربية ويبشر بتحقيق الوعد الجميل في المستقبل في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر]، وفيه تشريف النبي ﷺ.

ومن تأمل في كل موضع وجد حِكَماً أكثر، وفوائد أدق، والله تعالى أعلم.

المطلب الخامس

انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة

والمراد به: كون السياق جارياً على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهو كثير في كتاب الله تعالى(١).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فلم يأت على سياق الكلام: غير الذين غضبت عليهم؛ كما في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وذلك أن النعمة موضع خير وقرب من الله، فكان إسناده إليه بتاء المخاطب أبلغ، بخلاف الغضب، وهذا من أدب القرآن الذي علمنا عليه.

قال ابن الأثير: «لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً»(٢).

وقال الزركشي: «ثم التفت إلى الغيبة بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل: الذين غضبت كما قال أنعمت عليهم»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾ [البقرة].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، البرهان ٣/٣١٨.
(٢) المثل السائر ٢/٥.
(٣) البرهان ٣/٣٢٢.

يمتن تعالى على بني إسرائيل في هذه الآية أن أرسل لهم كليمَه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، جاءت الآية بخطاب بني إسرائيل في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقًا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقًا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧﴾ أي: فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾؛ أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول[١].

قال ابن عاشور: «﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وإبعاد لهم عن مقام الحضور، فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد.

وقد حَسُن الالتفات لأنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد، فإنه لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم من أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي ﷺ صار الخطاب جارياً مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة»[٢].

وقال أبو السعود: «﴿وَقَالُواْ﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم»[٣].

وقال الألوسي: «فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم وإبعاداً لهم عن عز الحضور»[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/٣٢٣، تفسير السعدي ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/٥٩٩ بتصرف. (٣) تفسير أبي السعود ١/١٢٧.
(٤) روح المعاني ١/٣١٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

بيَّن تعالى أن الذي له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، المستحق إخلاص الحمد له بآلائه، هو الله الذي في السماوات، وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون، فجاء سياق الكلام على أسلوب الخطاب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، وهذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات(١).

ففي الآية انتقال من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾.

وفي الانتقال إلى الغيبة: إعراض عنهم لقبح أفعالهم.

قال أبو السعود: «والالتفات للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً، وتعدد جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم»(٢).

وضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، عائدة إلى المشركين الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية قبلها.

قال ابن عاشور: «ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصاً على ذلك، وإعراضاً عن خطابهم، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات لأن الالتفات يُحَسِّنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٦١، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٠، تفسير السعدي ٢٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ١٠٩، وينظر: روح المعاني ٧/ ٩١.
(٣) التحرير والتنوير ٧/ ١٣٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس].

ففي هذه الآية التفات من أسلوب الخطاب الذي يعم جميع السامعين في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾، وقوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، إلى أسلوب الغيبة حتى يبين ما يخص الكافرين[1] في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، وقوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾[2].

قال المبرد: «والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾»[3].

وكان مقتضى السياق أن يكون: وجرين بكم، وفرحتم، وجاءكم، ولكن جاء العدول من خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم، لتعجبِّه من فعلهم وكفرهم.

قال الزركشي: «إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة»[4].

وفي نقل الكلام من الخطاب إلى الغيبة: معنى التشهير بهم، ورواية قصتهم لغيرهم؛ لأن في حكاية هذه الأفعال العجيبة عظة وعبرة، والإنسان لا يستعظم فعل نفسه غالباً، ولكن يستعظم فعل غيره، والله أعلم.

وفيه لطيفة أخرى: وهي أنهم كانوا في مقام الخطاب في الفلك كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، فهم في مقام الشهود والحضور، ولما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب، فناسب حكاية هذه الحال بأسلوب الغيبة، ورُوعي تصوير حالهم في جميع الألفاظ، والله أعلم[5].

---

(١) ينظر: البرهان ٣/٣١٨.
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.
(٣) الكامل في اللغة والأدب ٣/١٧. (٤) البرهان ٣/٣١٨.
(٥) ينظر: البرهان ٣/٣١٨، الإتقان ٢/١٨٦.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء].

فهذه الآية جرت على أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، والمراد بالأمة الواحدة هنا: أن دين الأنبياء دين واحد، وملتهم ملة واحدة(١).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هذه ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»(٢).

وفي هذا الالتفات إلى أسلوب الغيبة: حكاية وضعهم إلى قوم آخرين؛ لأنه جدير بأن يحذَّر منه، وليكون أعظم في النفوس.

وفيه تقبيح فعلهم، وبيان عظيم جرمهم فيما ارتكبوه من تفريق دين الله ومفارقة الجماعة.

قال الزمخشري: «﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حُرِف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويُقَبِّح عندها فعلهم وقوله لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»(٣).

وقال البيضاوي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم»(٤).

وقال الزركشي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: فقطعتم، عطفاً على ما قبله لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة، فقيل: إنه سبحانه نعى عليهم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٤٧٩، تفسير البغوي ٥/ ٤٢٠، تفسير السعدي ٥٣٠.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٣. (٣) الكشاف ٣/ ١٣٤.
(٤) تفسير البيضاوي ٤/ ١٠٧.

ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ووبخهم عليه قائلاً: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون].

ففيها الالتفات من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾؛ ـ أي: وإنَّ دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري ـ إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

كان الخطاب للأنبياء بأن دينهم واحد، فقبلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون]، ثم انتقل الكلام إلى أممهم فبين أنهم تفرقوا واختلفوا.

قال ابن عطية: «قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأممهم داخلون بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ ومعنى الأمة هنا: الملة والشريعة، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ يريد الأمم؛ أي: افترقوا»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم].

بيَّن تعالى في هذه الآية أن من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا يزيد عند الله، بل يمحقه ويبطله، وإنما الثواب عند الله في الزكاة ابتغاء مرضاة الله وطلباً لثوابه، فهذا هو الذي يقبله الله ويضاعفه لكم أضعافاً كثيرة[٣].

وكان الكلام فيه جارياً على أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٨.

مِّن زَكَوٰةٍ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

وفي هذا الالتفات التنبيه باسم الإشارة الذي هو في معنى ضمير الغائب على ارتفاع منزلتهم عند الله.

قال الزمخشري: «﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون»[1].

وقال البيضاوي: «والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال فمن فعل ذلك: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾»[2].

وقال أبو السعود: «وفي تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى»[3].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين: أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، ويكره إليكم الكفر والذنوب كلها، ثم جاء اسم الإشارة على معنى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾، أي: من سبق ذكرهم هم المهتدون للصراط المستقيم[4].

وقد جاء الانتقال من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾، ثم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٧، وينظر: البحر المحيط ٧/ ١٧٠.
(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٦٢.
(٤) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ٣٣٩، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٢، تفسير السعدي ٨٠٠.

انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

قال أبو حيان: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة»(١).

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾؛ أي: السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق، والالتفات إلى الغيبة كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]»(٢).

ففي هذا الانتقال باسم الإشارة للبعيد ـ الذي هو في قوه ضمير الغيبة ـ لتشريفهم، وبيان علو منزلتهم، كما هو في الآية التي قبله.

وصفوة القول أن أمثلة هذا الأسلوب كثيرة في كتاب الله تعالى، ومن أسراره:

١ ـ أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة من الأساليب اللغوية التي تدل على العناية باختيار اللفظ ودقة العبارة، وربط اللفظ بالمعنى.

قال ابن قتيبة: «ومنه ـ أي: باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ـ أن تخاطب الشاهد بشيءٍ، ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧]»(٣).

٢ ـ من فوائد انتقال الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة: الإعراض عن المخاطب في أغلب المواضع.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١١٠، الدر المصون ١٣/ ١٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ١٢٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٧٧، وينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.

كما في قوله تعالى: ﴿...أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء] ونحوها.

٣ ـ ومن حكم الانتقال من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة كذلك: التفخيم والتشريف.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من الخطاب في قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يأت: واستغفرت لهم؛ تفخيماً لشأن الرسول ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره.

ومن المعلوم أن الاسم الظاهر من قبيل الغيب ما لم يدخل عليه ما يوجب الخطاب(١).

قال العكبري: «ولم يقل: فاستغفرت لهم؛ لأنه رجع من الخطاب إلى الغيبة لما في الاسم الظاهر من الدلالة على أنه الرسول»(٢).

وقال الرازي: «إنما قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم، إجلالاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا جاؤوه فقد

---

(١) الكليات ٢٤١.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩.

جاؤوا من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه»[١].

وقال أبو حيان: «والتفت في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يجئ على ضمير الخطاب في: ﴿جَآءُوكَ﴾ تفخيماً لشأن الرسول، وتعظيماً لاستغفاره»[٢].

وكذا أفاد الالتفات التفخيم في قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم: ٣٩].

ومثله كذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

إلى غير ذلك من الفوائد واللطائف التي أشار إليها العلماء حول هذا الأسلوب القرآني العربي البليغ، والله تعالى أعلم.

المطلب السادس

انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب

والمراد به: أن يأتي السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب الخطاب، وهو كثير في كتاب الله تعالى، وأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب من أول المواضع التي بيّن فيها المفسرون ما يتعلق بالالتفات[٣]، وأظهروا ما في هذا الأسلوب من حِكَم وأسرار[٤].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ١٣٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٢٩٥.
(٣) لوقوع شاهده في أول سورة الفاتحة.
(٤) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤، البرهان ٣/ ٣٢٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

فابتدأت هذه السورة بالحمد والثناء والتمجيد لله تعالى بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

قال ابن فارس: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ معناه: فأعِنّا على عبادتك»(١).

ولو جرى على أسلوب الغيبة كما هو السياق لكان: إياه نعبد.

قال النحاس: «وقال: إياك، ولم يقل: إياه؛ لأن المعنى: قل يا محمد إياك نعبد على أن العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب»(٢).

وقال أبو حيان: «﴿إِيَّاكَ﴾ التفات؛ لأنه انتقال من الغيبة، إذ لو جرى على نسق واحد لكان: إياه»(٣).

وفي هذا الأسلوب تدرُّج في الثناء فانتقل من الحمد إلى الثناء إلى التمجيد، والعبد إذا وصف الله بهذه الأوصاف قرب منه، وإذا قرب منه ناداه.

قال ابن جزي: «ذكر الله تعالى في أول هذه السورة على طريق الغيبة ثم على الخطاب في: إياك نعبد وما بعده، وذلك يسمى الالتفات، وفيه: إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه؛ فصار من أهل الحضور فناداه»(٤).

وقال أبو السعود: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلوين للنظم من باب إلى باب، جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب»(٥).

وقال ابن عاشور: «والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ إلى أسلوب

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١٣٤.
(٢) معاني القرآن ١/ ٦٥.
(٣) البحر المحيط ١/ ١٤١، وينظر: الدر المصون ١/ ٣٥.
(٤) التسهيل ١/ ٦٤.
(٥) تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

طريق الخطاب ابتداء من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البديع عند العرب، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتاً»[١].

وفوائد هذا الأسلوب كثيرة[٢]، ومنها:

١ ـ دلالة اختصاص العبادة والاستعانة واستحقاقها لله جل وعلا، وتقديم الضمير دليل على المبالغة في ذلك.

٢ ـ وكذلك فإن أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص[٣].

قال الألوسي: «سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة، وهي: التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيب حضوراً»[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة].

محل الالتفات في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فقد جاءت بأسلوب الخطاب، وما قبلها كان بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فإن تابوا فهو خير لهم.

(١) التحرير والتنوير ١/١٠٢.
(٢) ينظر: الكشاف ١/٥٦، الإتقان ٢/١٨٧.
(٣) الإكسير في علم التفسير ١٧٧. (٤) روح المعاني ١/٨٩.

وفي هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب معنى التهديد والتخويف(١).

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الشرك والغدر، التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

في هذه الآية بيَّن تعالى بَعد مَكْرِ الذين كفروا من بني إسرائيل لقتل عيسى عليه السلام أنه مَكَرَ بهم وهو خير الماكرين، فمكر الله بهم، إذ قال الله لعيسى: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إليَّ ببدنك وروحك، ومخلصك من الذين كفروا بك، وجاعل الذين اتبعوك ظاهرين على الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، ثم إليّ مصيركم جميعاً يوم الحساب، فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام(٣).

قال الطبري: «ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم»(٤).

ففي هذه الآية الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

قال أبو حيان: «﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ هذا إخبار بالحشر والبعث، وهذا عندي من الالتفات، فلو جاء على نمط السابق لكان التركيب: ثم إليّ مرجعهم، ولكنه التفت على سبيل الخطاب للجميع، ليكون الإخبار أبلغ في التهديد، وأشد زجراً لمن يزدجر»(٥).

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٢٧٠، روح المعاني ١٠/ ٤٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٤/ ١٠٠، تفسير السعدي ٥٣، التفسير الميسر ٥٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥.
(٥) البحر المحيط ٢/ ٤٩٨ بتصرف، وينظر: الدر المصون ٣/ ٤٢١.

ففي هذه الآية معنى البشارة والنّذارة، وجاءت بأسلوب الالتفات ليكون أبلغ في التأثير، وليعم بالخطاب الجميع.

قال البقاعي: «ولما كان البعث عاماً دل عليه بالالتفات إلى الخطاب فقال تكميلاً لما بشر به من النصرة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: المؤمن والكافر في الآخرة»[١].

وقال أبو السعود: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث، وثم: للتراخي، وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد، والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار»[٢].

ويفيد الالتفات إلى أسلوب الخطاب: العناية والاهتمام.

قال الألوسي: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم بعد يوم القيامة ورجوعكم، وفيه التفات للدلالة على شدة إرادة إيصال الثواب والعقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم].

لما قرَّر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علوّاً كبيراً ـ ففي هذه الآيات بيان جرأة الكفار بقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: لقد جئتم ـ أيها القائلون ـ بهذه المقالة شيئاً عظيماً منكراً[٤].

فقد جاء الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾، إلى

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٩٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٤٤.
(٣) روح المعاني ٣/ ١٨٤.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٧، مفردات ألفاظ القرآن ٦٩، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٦٥.

أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿جِئْتُمْ﴾، وفي هذا الالتفات إلى الخطاب معنى التوبيخ على وجه شديد الصراحة؛ لأن من فُتِن في دينه فزعم اتخاذ الرحمٰن ولداً، يُستَنكر منه هذا القول الآثم، ويستحقُّ التوبيخ، وتوبيخُ الحاضر أشد نكاية من توبيخ الغائب، فهذا ـ والله أعلم ـ من أسرار الالتفات في هذه الآية الكريمة[(١)].

قال أبو السعود: «﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والخطاب في: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾، للذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فهو التفات لقصدِ إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس].

ذَكَر المفسرون[(٤)] أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه بوجهه وبدنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه[(٥)].

---

(١) ينظر: الكشاف ٣/ ٤٥، تفسير البيضاوي ٤/ ٣٥، البحر المحيط ٦/ ٢٠٥، روح المعاني ١٦/ ١٣٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٨٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٠.

(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٠٥٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٩، تفسير السعدي ٩١٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١٧، والحاكم ٢/ ٥١٤ (٣٨٩٦)، وقال: صحيح على شرط =

قال الشوكاني: «أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية قصة ابن أم مكتوم»(١).

والالتفات في هذه الآية من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، وفيه الإكرام والإجلال واللطف برسول الله ﷺ من المواجهة بالعتاب، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، وفيه الإقبال عليه ﷺ تأنيساً له بعد الإعراض(٢).

قال أبو حيان: «وجاء بضمير الغائب في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ إجلالاً له عليه الصلاة والسلام، ولطفاً به أن يخاطبه؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى»(٣).

وقال القرطبي: «ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له، ولم يقل: عبست وتوليت، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له»(٤).

وقال البقاعي: «ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال، وكان طول الإعراض موجباً للانقباض، أقبل عليه ﷺ فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾؛ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وإن اجتهدت في ذلك فإن ذوات الصدور لا يعلمها إلا الله تعالى»(٥).

ورأى الزمخشري، وابن عطية: أن العتاب هنا بأسلوب الخطاب زيادةٌ في الإنكار.

قال الزمخشري: «وفي الإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه

= الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي ٥/ ٤٣٢ (٣٣٣١)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة عبس، وقال: هذا حيث غريب، والواحدي ٣٧٩، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه ابن حبان ٢/ ٢٩٣ (٥٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٢٦ (٢٦٥١).

(١) فتح القدير ٥/ ٥٣٩.
(٢) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٣٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٣.
(٥) نظم الدرر ٨/ ٣٢٤.

بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة»(١).

وقال ابن عطية: «وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض»(٢).

والذي عليه الأكثر: أن في أسلوب الغيبة إكرام للنبي ﷺ.

قال أبو حيان: «ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً»(٣).

وقال ابن جزي: «قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العَتَب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشري: في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار، وقال غيرهما: هو إكرام للنبي ﷺ، وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب، وهذا أحسن»(٤).

وهذا هو الأقرب والله أعلم.

وبهذا يتبين أن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى كثيرة، وعناية المفسرين فيه كبيرة، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب له معان وأغراض كثيرة، ومنها:

١ ـ التهديد والتخويف، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٥]، والالتفات في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾(٥).

٢ ـ التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٠٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٤) التسهيل ٣/ ٢٨٢، وينظر: تفسير القاسمي ٩/ ٤٠٥.
(٥) ينظر: روح المعاني ١٤/ ١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالالتفات في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾(١).

وقوله تعال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل]، فالالتفات في قوله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾(٢).

٣ ـ ومن ذلك الامتنان على العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة]، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، والغرض الامتنان(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور].

فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فتشريع هذه الأحكام فضلٌ من الله تعالى، وأسلوب الخطاب لغرض الامتنان أبلغ.

قال أبو السعود: «التفات إلى خطاب الراجين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان»(٤).

إلى غير ذلك من الأغراض والفوائد لمن تأمل فيها، وهي سِرٌّ من أسرار الإعجاز البلاغي في كتاب الله جل وعلا، والله تعالى أعلم.

❐ وختاماً:

فإن من عادات القرآن: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب، ولكلِّ أسلوب من أساليب القرآن حِكَم وفوائد، عرَفَها من عرَفَها، وجَهِلَها من جَهِلَها، وخلاصة الكلام:

١ ـ أن عادة القرآن في الانتقال من أسلوب إلى آخر هي عادة العرب في

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨٨.
(٢) ينظر: تفسير الخازن ٤/ ٩٥.
(٣) ينظر: الدر المصون ١٢/ ٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٩.

شعرهم ونثرهم[١].

قال النسفي: «والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم»[٢].

فالقرآن نزل بلغة العرب وأساليبهم، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، فصار مرجعاً لهم في أساليبهم، مما جعل العلماء يربطون استدلالهم كثيراً بآيات القرآن لهذا الأسلوب.

٢ ـ رفع السآمة والملل من الاستمرار على أسلوب واحد، متكلم أو مخاطب أو غائب، وبالانتقال تستريح النفوس ويتجدد نشاطها، فَيَحسُن الانتقال من أحدها إلى الآخر؛ لأن الكلام المتوالي على نسق واحد غير مُسْتَطَاب.

٣ ـ أن الانتقال الذي هو محل الدراسة هو الانتقال اللفظي لا المعنوي، فيكون المنتَقَل إليه هو في نفس الأمر الملتَفَت عنه[٣].

٤ ـ تنوُّع الأغراض والفوائد من الالتفات في الأساليب على حسب السياق، وهي أكثر من أن تحصر في جزء من بحث، والجامع لها مراعاة المخاطب من حيث الرقَّة أو الشدة.

٥ ـ انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر يحث على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّر الأسلوب يدعو للتفكير في السبب.

٦ ـ أن انتقال الأساليب في القرآن لا يتوقف على الضمائر، بل يتعدى للأفعال والأعداد، وغيرها، ولكن باب الضمائر هو أشهرها.

ولذلك اختلفت عبارات العلماء في تحديد هذا المصطلح.

فمنهم من أطلق عليه: الترك والرجوع[٤]، ومنهم من ذكره في باب:

---

(١) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.
(٢) تفسير النسفي ١/٧، ٨. (٣) ينظر: البرهان ٣/٣١٤.
(٤) كأبي عبيدة معْمَر بن المثنى في كتابه: مجاز القرآن ١/١٢، ولكنه لم يذكر شيئاً عن =

مخالفة ظاهر اللفظ معناه[١]، وعدُّوه من مجاز القرآن، ومنهم من قال: تحويل الخطاب[٢]، والاصطلاح الذي عليه الجمهور: الالتفات، وقد أفرده المتأخرون بمبحث مستقل، وتتابع العلماء على التأليف فيه واستفادة بعضهم من بعض وتوسع بعضهم في الموضوع، وهو حقيق بالبحث والاستنباط أكثر، والله تعالى أعلم.

= الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير التكلم في القرآن الكريم أو العكس، ولم يشر إلى أي سر من أسرار الالتفات في أي نوع من أنواعه، ومع ذلك فإنه يعتبر من أوائل من تكلم عن أسلوب الالتفات في كتابٍ مُؤَلف، واستفاد منه من بعده.
وسماه المبرد تركاً حيث قال: «والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»، الكامل في اللغة ٣/ ١٧.

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، فقد أشار إليه في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه.
(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، ١٦٤.

الخَاتِمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد عشت مع هذا البحث فترة من عمري، أقلب فيها كتب التفسير، وأهل اللغة؛ من المتقدمين والمتأخرين، لأستخرج شيئاً من أسرار القرآن العظيم وكنوزه، من خلال جمع عاداته الأسلوبية، وتحقيقها بدراسة الأمثلة التطبيقية من آيات القرآن، فزادت معرفتي لأهمية هذا الموضوع وحاجته إلى وقت أطول، ومشروع أكبر، وظهر لي عدة نتائج أثناء البحث، أبرزها ما يلي:

- ظهور عناية العلماء قديماً وحديثاً بعادات القرآن، على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يعبر عنه بذكر الأمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعنَون بالحدود والتعريفات، ولم يظهر هذا المصطلح إلا في القرن السادس الهجري.

- أن عادات القرآن ليست محصورة على أساليبه، بل عاداته متنوعة لا يمكن حصرها، ومن ذلك: عادات القرآن الشرعية، واللغوية، والفقهية، والعقدية، وغيرها مما يفتح الأفق للباحثين في هذا الموضوع.

- أن العادات الأسلوبية في القرآن لا تخلو من دلالة خاصة ميَّزت اختيار الأسلوب في القرآن، وهي محل تدبر وتأمل، ودافع للإيمان بإعجاز هذا القرآن من جميع الوجوه.

- أن الأسلوب شامل للحروف والألفاظ والتراكيب، وكل حرف في القرآن فله معنى.

- أن عادات القرآن من جملة العلوم المضافة إلى القرآن.

- عادات القرآن من أهم دلالات الترجيح بين المعاني عند المفسرين.
- عادات القرآن تحمي المفسر من القول على الله بلا علم.
- إيجاب العلماء تنزيل معاني القرآن على المعهود من عرفه وعادته.
- من عادات القرآن: اختيار الحرف واللفظ المناسب للسياق، نيابة بعض الحروف أو الألفاظ عن بعض، التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، الحذف والذكر، والإضمار والإظهار، والإيجاز والإطناب، اقتران بعض الألفاظ أو الآيات الكونية أو الأحكام ببعض، ربط القصص بما يناسبها، وقصرها على المقصود، مع تكرار بعضها، خطاب الأنبياء بأسماءهم ونبينا ﷺ بوصفه، وعموم الخطاب، والانتقال بين الأساليب، وغيرها كثير كما جاء تفصيل ذلك في ثنايا البحث.
- زادت قناعتي بأن علوم القرآن لا تنفد، وأن نعم الله تعالى عامة على عباده، فقام العلماء السابقون بخدمة كتاب الله بكل ما يستطيعون، وتركوا الكثير لمن بعدهم، فنحمد الله تعالى على ما يسر، ونسأله دوام التوفيق والسداد.
- لا بُدَّ لاستخراج عادات القرآن من الاستقراء الكامل لكتاب الله، بتأمل وتدبر، مع استجماع شروط المفسر لئلا يحصل الخطأ والزلل.
- ولا أدعي في جمعي هذا أني أحطت بجميع عادات القرآن؛ لأن البحث يعتمد على الاستقراء، الذي يصعب معه الاستقصاء، ولكن حسبي أن بذلت غاية وسعي، ونهاية جهدي، والله الموفق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

❑ المقترحات والتوصيات:

ـ ضرورة التوسع في جمع عادات القرآن المتنوعة في موسوعات علمية من خلال مشاريع بحثية.

ـ العناية بعادات القرآن ضمن تدريس تفسير كتاب الله تعالى وعلومه، وبيان أهمية الرجوع إليها عند الاختلاف في معنى اللفظ اللغوي.

ـ تأصيل المنهج الصحيح لاستخراج هذه العادات، والحكم عليها، من خلال الندوات والمؤتمرات العلمية.

ـ من الموضوعات التي لا زالت بحاجة إلى بحث:

١ ـ خروج اللفظ عن مقتضى الظاهر وتحته عادات كثيرة.

٢ ـ دراسة الاقتران في القرآن وفيه فروع كثيرة.

٣ ـ التقديم والتأخير من أجل الفاصلة القرآنية.

٤ ـ الدقة في ألفاظ القرآن الكريم.

٥ ـ دراسة عادات القرآن اللغوية، والفقهية، والعقدية، والتربوية، والدعوية، وغيرها.

٦ ـ دراسة أساليب الالتفات في القرآن وإظهار إعجازه وبلاغته وأسراره من خلالها.

وفي الختام أكرر حمدي وشكري لله تعالى على ما يسر وأعان على إتمام هذا البحث وأنا في أتم الصحة والعافية، كما أكرر شكري لمشرِفَيّ الأفاضل، ولكل من أفادني وكان سبباً في تيسير بحثي، كما أعترف أن هذا جهد بشري، وهو عرضة للنقص والخطأ، والكمال لله وحده.

وكما قال الأول: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

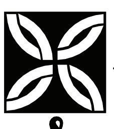
ولكن حسبي أني بذلت الوسع في إعطاء البحث حقه من الاهتمام والجدية.

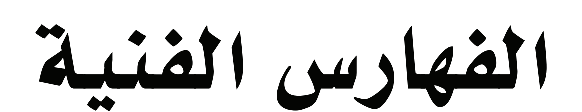
وأستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، وأستغفر الله من أقوالي التي لا توافقها أعمالي، وأستغفر الله من كل خطرة دعتني إلى التصنع والتزين في بحثي، وأرجو الله تعالى لمن طالع بحثي أن يُكرَمَ بالرحمة والمغفرة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً، وأن لا يبخل عليَّ بتوجيه أو تنبيه، وتقويم أو تصويب، وله مني الشكر والدعاء.

أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم،

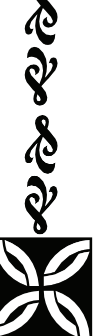
مكتوباً له القبول في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.







الفهارس الفنية



فهرس الآيات

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾	٢	
﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾	٣	
﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾	١٢	
﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾	١٢	
﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾	١٨	
﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾	٢١	
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾	٢٥	
﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾	٢٦	
﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾	٢٦	
﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾	٢٧	
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾	٣١	
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾	٣٣	
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾	٣٤	
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾	٣٨	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾	٤١	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾	٤١	
﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾	٤٢	
﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾	٤٨	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾	٥١	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ﴾	٥٧	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾	٦٧	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾	٦٧	
﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾	٦٨	
﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ﴾	٧٠	
﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾	٧٢	
﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾	٧٥	
﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾	٨٥	

سورة الأعراف

سورة يونس

سورة الرعد

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾	٢١	
﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾	٢٢	
﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾	٢٤	
﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾	٣٠	
﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾	٣١	
﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾	٣٣	
﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾	٣٤	
﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾	٣٥	
﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾	٤٣	

سورة إبراهيم

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾	٤	
﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾	٥	
﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾	٢١	
﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾	٣٨	

سورة الحجر

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾	١٣	
﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾	١٦	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾	٧٨	
﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾	٧٩	
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾	٨٠	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾	٩٠	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾	٩٠	
﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾	٩١	
﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾	٩٦	
﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾	٩٧	
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾	٩٨	
﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾	١٠١	
﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾	١٢٥	
﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾	١٢١، ١٢٢	

سورة الإسراء

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾	١	
﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾	٧	
﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾	٩	

سورة مريم

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾	١٢٣	
﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾	١٢٧	
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾	١٣٢	
سورة الأنبياء		
﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾	١	
﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾	١٣	
﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾	١٧	
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾	٢٥	
﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾	٢٦	
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾	٣٣	
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾	٣٤، ٣٥	
﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾	٣٧	
﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾	٤٥	
﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾	٤٧	
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾	٤٨	
﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾	٥٧	
﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾	٦٩	
﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾	٧٧	
﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾	٧٨	
﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾	٧٩	
﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾	٧٩	
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾	٨٣	

سورة الحج

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾	٤١	
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾	٤٦	
﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦)﴾	٥٦	
﴿ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ (٦٠)﴾	٦٠	
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٦١)﴾	٦١	
﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (٧٢)﴾	٧٢	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ (٧٣)﴾	٧٣	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾	٧٧	
﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾	٧٨	

سورة المؤمنون

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١)﴾	١	
﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ (١٤)﴾	١٤	
﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾	٢٧	
﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾	٣٣	
﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)﴾	٣٦	
﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (٤٥)﴾	٤٥	
﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ (٤٦)﴾	٤٦	

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

كمال قدرة الله سبحانه، والحث على التفكر في مخلوقاته.

قال الزركشي: «الالتفات من الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾»(١).

قال أبو السعود: «والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر»(٢).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وعناية المفسرين بها كبيرة، ولما تأملت فيها تبين لي ما يلي:

١ ـ أن أغلب الانتقالات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم يكون عائداً على الله تعالى.

٢ ـ وكذا أغلب ورود الالتفات من أسلوب الغيبة إلى أسلوب التكلم في الآيات الدالة على كمال قدرة الله جل وعلا وتصريفه لهذا الكون، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

٣ ـ أن في هذا الالتفات تخصيصاً للمذكور بأسلوب التكلم بعد الغيبة بمزية تتضمن التعظيم والتشريف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

فقد ذكر الله ﷻ الرسول ﷺ بأسلوب الغيبة فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ثم أعقب الغيبة بأسلوب المتكلم فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ فالتعريف بالإضافة في قوله: ﴿رَسُولِنَا﴾ لقصد تعظيم شأنه ﷺ، فهي إضافة تشريف وتكريم.

٤ ـ وفي هذا الالتفات إظهار العناية بالملتَفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ [فاطر: ٢٧].

---

(١) البرهان ٣/ ٣١٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٧.

قال أبو السعود: «﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة»(١).

٥ ـ في هذا الالتفات تفنن في الأسلوب، وهو من إعجاز القرآن البياني، لمن فهم اللغة وتأمل في القرآن، ويظهر ذلك جلياً إذا تكررت ضمائر الغيبة ثم جاء بعدها ضمير التكلم، كما في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

جاءت ضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ﴿وَهَدَىٰهُ﴾، في سياق الحديث عن إبراهيم ﷺ، ثم انتقل السياق إلى ضمير التكلم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: وآتاه.

قال ابن عاشور: «وضمير ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم تفنناً في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة»(٢)، والله تعالى أعلم.

المطلب الرابع

انتقال الكلام من التكلم إلى الغيبة

والمراد به: أن يكون السياق جارياً على أسلوب التكلم، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهذا الأسلوب هو أكثر أنواع الالتفات وجوداً في كتاب الله تعالى(٣)، ولذلك أولاه المفسرون اهتماماً في دراسة مواضعه وبيان فوائده.

قال الزركشي: «الالتفات من التكلم إلى الغيبة، ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم، وقصده من السامع حضر أو غاب، وأنه في كلامه ليس ممن يتلوّن ويتوجّه، فيكون في المضمر ونحوه ذا لَوْنَين، وأراد بالانتقال إلى

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٥٠. (٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٣١٧.

(٣) ينظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ١٩٠ وما بعدها، فقد أوصل الأمثلة إلى أكثر من ١٣٥ موضعاً.

الغيبة الإبقاء على المخاطب من قرعه في الوجه بسهام الهجر، فالغيبة أروح له وأبقى على ماء وجهه أن يفوت»(١).

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

فالالتفات في هذه الآية في انتقال الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وفي قوله: ﴿عَبْدِنَا﴾ إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فالآية بدأت بضمير المتكلم ليثبت مصدر هذا المنزل، ثم جاءت كلمة ﴿عَبْدِنَا﴾ لتبين صفة النبي ﷺ، وتؤكد عبوديته التامة لربه جل وعلا، ثم تلتفت الآية إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لتزيد الأمر تعظيماً، وتوضح أن صاحب هذا الضمير السابق هو الله ذو الألوهية والعبودية على الخلق أجمعين.

وفي هذا الالتفات إدخال الروعة وتربية المهابة، والإيذان بكمال سخافة عقولهم، حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال ما لا أحقر منه، وتأكيد عجزهم عن المعنى الملتفت إليه(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ إلى قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فانتقل الكلام من أسلوب التكلم في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فآمنوا بالله وبي، استمراراً على أسلوب التكلم، وفي الالتفات إلى ضمير الغيبة فائدتان:

إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

والثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق

(١) البرهان ٣/ ٣١٦، ٣١٧.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ١/ ٦٥، ٦٦.

الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص(١).

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ»(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

في هذه الآية الالتفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

قال الطبري: «والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه»(٣).

وقال ابن الجوزي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من ناسخ ومنسوخ»(٤).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»(٥).

وكان مقتضى السياق أن يكون: ونحن أعلم بما ننزل.

ولكن في هذا الالتفات: توبيخ الكفار، وبيان الحكمة من النسخ في كتاب الله تعالى.

قال البيضاوي: «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم»(٦).

وقال أبو السعود: «وفي الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم

(١) ينظر: البرهان ٣/ ٣١٧.
(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٤١.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٧، وينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩١.
(٤) زاد المسير ٤/ ٤٩١.
(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٣.
(٦) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٠.

الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض»[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾، أسلوب تكلم، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، ثم عاد والتفت إلى التكلم فقال: ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أَوَوْا إلى الكهف، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شك فيه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ يقول: إن الفتية الذين أَوَوْا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل»[٢].

وقال السمين: «قوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، فيه التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة إذ لو جاء على نَسَقِ الكلام لقيل: إنهم فتيةٌ آمنوا بنا، وقوله: ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ﴾ ﴿وَرَبَطْنَا﴾ التفاتٌ من هذه الغَيْبَة إلى التكلم أيضاً»[٣].

وفي هذا الالتفات إلى لفظ الربوبية بيان عناية الله تعالى بهم، ورعايته وتوفيقه لهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤١، وينظر: روح المعاني ١٤/ ٢٣١.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.
(٣) الدر المصون ١٠/ ٢٥.

في هذه الآية يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم، ﴿شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ للقليل من أعمالهم[1].

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية»[2].

قال ابن عاشور: «ووقع الالتفات من التكلم في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ رجوعاً إلى سياق الغيبة من قوله: ﴿يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليوفي الله الذين يتلون كتابه»[3].

وفي هذا الالتفات بيان الوفاء الكامل في ثوابهم من الله تعالى، وأن جزاءهم مضاعف فضلاً من الله ومنّة.

ـ وقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه].

ففي هذه الآيات التفات من أسلوب التكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾؛ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها[4].

وفي هذا الالتفات بيان عظمة الله تعالى ومجده.

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٠/٤٦٣، تفسير ابن كثير ٦/٥٤٥.
(٢) ٢٦/٢١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/٣٠٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/٢٧٢.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟.

قلت: غير واحدة، منها: عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة.

ومنها: أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة.

ومنها: أنه قال أولاً: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنَّىٰ بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين»[(١)].

وقال الرازي: «فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور.

أحدها: أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة.

وثانيها: أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد، فتضاعفت الفخامة من طريقين.

وثالثها: يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام، والملائكة النازلين معه»[(٢)].

وقال ابن جزي: «وبدأ السورة بلفظ المتكلم في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾، ثم رجع إلى الغيبة في قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية، وذلك هو الالتفات»[(٣)].

وقال البقاعي: «والالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ ليدل على ما اقتضته النون من العظمة مقدماً ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوّين المُعْتَنى بتذكرتهم وهداية من أريد منهم»[(٤)].

ـ وقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدُخان].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥.
(٣) التسهيل ٢/ ١٦٧.
(٤) نظم الدرر ٥/ ٩.

أقسم جلّ ثناؤه بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلة مباركة؛ أي: كثيرة الخير والبركة، يُفْصَل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، فأنزل الله تعالى أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، وهذا الأمر الحكيم أمر صادر من عند الله جل وعلا بنون العظمة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[(١)].

وقد جرى الكلام في بداية هذه السورة على أسلوب التكلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ ﴿عِندِنَا﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يكون: رحمة منا، ولكن في هذا الانتقال إشعار بعناية الله بمن أنزل عليهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ولما ذكر الرحمة أظهر اسم الرب؛ لأنه يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية.

قال البيضاوي: «﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة بهم، ووضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك فإنه أعظم أنواع التربية»[(٢)].

وقال الزركشي: «ومن الالتفات قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ عدل عن قوله: رحمة منا، إلى قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعبده»[(٣)].

وقال أبو السعود: «ووضع الرب موضع الضمير الإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية مقتضياتها وإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٢/٧، تفسير السعدي ٧٧١.
(٢) تفسير البيضاوي ١٥٨/٥.
(٣) البرهان ٣١٦/٣.
(٤) تفسير أبي السعود ٥٩/٨.

في هاتين الآيتين تحول من التكلم في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

قال القزويني: «مثال الالتفات من التكلم إلى الغيبة قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾»[(١)].

وكان مقتضى السياق أن يكون: فصل لنا، وفي عدول الضمير للغائب الحث على الصلاة؛ فذكر بأنها لربه الذي رباه ورعاه زيادة في الترغيب فهو المستحق لإخلاص العبادة له.

قال الرازي: «قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قوله: فصل لله؛ لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه»[(٢)].

وقال الزركشي: «حيث لم يقل: لنا، تحريضاً على فعل الصلاة لحق الربوبية»[(٣)].

وفيه هذا الأسلوب ترغيب النبي ﷺ بفعل ما أمره الله به على الوجه الأكمل، وفيه الإشارة إلى تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يرُبُّه ويرْأَف به[(٤)].

قال ابن عاشور: «والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، دون: فصل لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة؛ لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه»[(٥)].

وأمثلة هذا النوع كثيرة، وهي دالة على أهميته، ومن الحِكَم فيه:

١ ـ أن الالتفات من التكلم إلى الغيبة فيه نوع من البيان تظهر فيه روعة الأسلوب وجمال الألفاظ، مما ينشط الذهن ويدفع الملل.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ٧٥. (٢) تفسير الرازي ٣٢/ ١٢٣.
(٣) البرهان ٣/ ٣١٧.
(٤) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٢٤٧، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.

٢ ـ أن أسلوب التكلم عائد إلى الله تعالى غالباً، كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾، وغيرها.

٣ ـ أن الانتقال من التكلم إلى الغيبة زيادة في المعنى من ناحيتين:

الأولى: من أسلوب التكلم المتضمن للعظمة والفخامة.

والثانية: من أسلوب الغيبة المتضمن غالباً وصفاً أو أكثر للملتفت إليه.

كما قال تعالى في سورة طه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه] ثم التفت لبيان زيادة عظمة المنزل: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ٤].

٤ ـ أن الغرض من الالتفات من أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة يختلف حسب اختلاف السياق.

فقد يكون للتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية لتوبيخ الكفار المنكرين للنسخ، والمكذبين لرسول الله ﷺ.

وقد يكون لبيان العناية بالملتفَت إليه، كما في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدُخان] لما فيه من الإشعار بأن ربوبيته تقتضي رحمته وأنه رحيم بعباده.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر]؛ لأن لفظ الرب يفيد كمال التربية ويبشر بتحقيق الوعد الجميل في المستقبل في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر]، وفيه تشريف النبي ﷺ.

ومن تأمل في كل موضع وجد حِكَماً أكثر، وفوائد أدق، والله تعالى أعلم.

المطلب الخامس

انتقال الكلام من الخطاب إلى الغيبة

والمراد به: كون السياق جارياً على أسلوب الخطاب، ثم ينتقل إلى أسلوب الغيبة، وهو كثير في كتاب الله تعالى(١).

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، فلم يأت على سياق الكلام: غير الذين غضبت عليهم؛ كما في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وذلك أن النعمة موضع خير وقرب من الله، فكان إسناده إليه بتاء المخاطب أبلغ، بخلاف الغضب، وهذا من أدب القرآن الذي علمنا عليه.

قال ابن الأثير: «لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً»(٢).

وقال الزركشي: «ثم التفت إلى الغيبة بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقل: الذين غضبت كما قال أنعمت عليهم»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة].

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، البرهان ٣/٣١٨.
(٢) المثل السائر ٢/٥.
(٣) البرهان ٣/٣٢٢.

يمتن تعالى على بني إسرائيل في هذه الآية أن أرسل لهم كليمَه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، جاءت الآية بخطاب بني إسرائيل في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول(١).

قال ابن عاشور: «﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، وإبعاد لهم عن مقام الحضور، فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد.

وقد حَسُن الالتفات لأنه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية وهو غرض جديد، فإنه لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم من أنبيائهم وجه الخطاب إليهم، ولما أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي ﷺ صار الخطاب جارياً مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة»(٢).

وقال أبو السعود: «﴿وَقَالُوا۟﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم»(٣).

وقال الألوسي: «فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عن مخاطبتهم وإبعاداً لهم عن عز الحضور»(٤).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٣٢٣، تفسير السعدي ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٥٩٩ بتصرف.
(٣) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٧.
(٤) روح المعاني ١/ ٣١٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

بيَّن تعالى أن الذي له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، المستحق إخلاص الحمد له بآلائه، هو الله الذي في السماوات، وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون، فجاء سياق الكلام على أسلوب الخطاب، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، وهذا إخبار من الله تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات(١).

ففي الآية انتقال من أسلوب الخطاب في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾، إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾.

وفي الانتقال إلى الغيبة: إعراض عنهم لقبح أفعالهم.

قال أبو السعود: «والالتفات للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً، وتعدد جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم»(٢).

وضمائر الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، عائدة إلى المشركين الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية قبلها.

قال ابن عاشور: «ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصاً على ذلك، وإعراضاً عن خطابهم، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات لأن الالتفات يُحَسِّنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/٢٦١، تفسير ابن كثير ٣/٢٤٠، تفسير السعدي ٢٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/١٠٩، وينظر: روح المعاني ٧/٩١.
(٣) التحرير والتنوير ٧/١٣٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس].

ففي هذه الآية التفات من أسلوب الخطاب الذي يعم جميع السامعين في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾، وقوله: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، إلى أسلوب الغيبة حتى يبين ما يخص الكافرين[(١)] في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، وقوله: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾، وقوله: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾[(٢)].

قال المبرد: «والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب، قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾»[(٣)].

وكان مقتضى السياق أن يكون: وجرين بكم، وفرحتم، وجاءكم، ولكن جاء العدول من خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم، لتعجبِّه من فعلهم وكفرهم.

قال الزركشي: «إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة»[(٤)].

وفي نقل الكلام من الخطاب إلى الغيبة: معنى التشهير بهم، ورواية قصتهم لغيرهم؛ لأن في حكاية هذه الأفعال العجيبة عظة وعبرة، والإنسان لا يستعظم فعل نفسه غالباً، ولكن يستعظم فعل غيره، والله أعلم.

وفيه لطيفة أخرى: وهي أنهم كانوا في مقام الخطاب في الفلك كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، فهم في مقام الشهود والحضور، ولما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب، فناسب حكاية هذه الحال بأسلوب الغيبة، ورُوعي تصوير حالهم في جميع الألفاظ، والله أعلم[(٥)].

---

(١) ينظر: البرهان ٣/٣١٨.
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.
(٣) الكامل في اللغة والأدب ٣/١٧. (٤) البرهان ٣/٣١٨.
(٥) ينظر: البرهان ٣/٣١٨، الإتقان ٢/١٨٦.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء].

فهذه الآية جرت على أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، ﴿رَبُّكُمْ﴾، ﴿فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، والمراد بالأمة الواحدة هنا: أن دين الأنبياء دين واحد، وملتهم ملة واحدة[(١)].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هذه ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٢)].

وفي هذا الالتفات إلى أسلوب الغيبة: حكاية وضعهم إلى قوم آخرين؛ لأنه جدير بأن يحذَّر منه، وليكون أعظم في النفوس.

وفيه تقبيح فعلهم، وبيان عظيم جرمهم فيما ارتكبوه من تفريق دين الله ومفارقة الجماعة.

قال الزمخشري: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حُرِف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويُقَبِّح عندها فعلهم وقوله لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»[(٣)].

وقال البيضاوي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم»[(٤)].

وقال الزركشي: «﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ والأصل: فقطعتم، عطفاً على ما قبله لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة، فقيل: إنه سبحانه نعى عليهم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٤٧٩، تفسير البغوي ٥/ ٤٢٠، تفسير السعدي ٥٣٠.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٣.
(٣) الكشاف ٣/ ١٣٤.
(٤) تفسير البيضاوي ٤/ ١٠٧.

ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ووبخهم عليه قائلاً: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله»[(١)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون].

ففيها الالتفات من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾؛ ـ أي: وإنَّ دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وهو الإسلام، وأنا ربكم فاتقوني بامتثال أوامري واجتناب زواجري ـ إلى أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

كان الخطاب للأنبياء بأن دينهم واحد، فقبلها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]، ثم انتقل الكلام إلى أممهم فبين أنهم تفرقوا واختلفوا.

قال ابن عطية: «قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأممهم داخلون بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ ومعنى الأمة هنا: الملة والشريعة، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ يريد الأمم؛ أي: افترقوا»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم].

بيَّن تعالى في هذه الآية أن من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا يزيد عند الله، بل يمحقه ويبطله، وإنما الثواب عند الله في الزكاة ابتغاء مرضاة الله وطلباً لثوابه، فهذا هو الذي يقبله الله ويضاعفه لكم أضعافاً كثيرة[(٣)].

وكان الكلام فيه جارياً على أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم

---

(١) البرهان ٣/٣١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٤/١٧٨.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٦/٣١٨.

مِّن زَكَوٰةٍ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

وفي هذا الالتفات التنبيه باسم الإشارة الذي هو في معنى ضمير الغائب على ارتفاع منزلتهم عند الله.

قال الزمخشري: «﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون»(١).

وقال البيضاوي: «والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال فمن فعل ذلك: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾»(٢).

وقال أبو السعود: «وفي تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى»(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات].

في هذه الآية خطاب الله تعالى للمؤمنين: أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، ويكره إليكم الكفر والذنوب كلها، ثم جاء اسم الإشارة على معنى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾، أي: من سبق ذكرهم هم المهتدون للصراط المستقيم(٤).

وقد جاء الانتقال من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾، ثـــم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٧، وينظر: البحر المحيط ٧/ ١٧٠.
(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٣٧. (٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٦٢.
(٤) ينظر: تفسير البغوي ٧/ ٣٣٩، تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٢، تفسير السعدي ٨٠٠.

انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

قال أبو حيان: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة»[(١)].

وقال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾؛ أي: السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق، والالتفات إلى الغيبة كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]»[(٢)].

ففي هذا الانتقال باسم الإشارة للبعيد ـ الذي هو في قوه ضمير الغيبة ـ لتشريفهم، وبيان علو منزلتهم، كما هو في الآية التي قبله.

وصفوة القول أن أمثلة هذا الأسلوب كثيرة في كتاب الله تعالى، ومن أسراره:

١ ـ أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة من الأساليب اللغوية التي تدل على العناية باختيار اللفظ ودقة العبارة، وربط اللفظ بالمعنى.

قال ابن قتيبة: «ومنه ـ أي: باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ـ أن تخاطب الشاهد بشيءٍ، ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الرُّوم]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧]»[(٣)].

٢ ـ من فوائد انتقال الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة: الإعراض عن المخاطب في أغلب المواضع.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١١٠، الدر المصون ١٣/ ١٥٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ١٢٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن ١٧٧، وينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤.

كما في قوله تعالى: ﴿...أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء] ونحوها.

٣ ـ ومن حكم الانتقال من أسلوب الخطاب إلى أسلوب الغيبة كذلك: التفخيم والتشريف.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء].

فقد جاء الالتفات في هذه الآية من الخطاب في قوله: ﴿جَاءُوكَ﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، ولم يأت: واستغفرت لهم؛ تفخيماً لشأن الرسول ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره.

ومن المعلوم أن الاسم الظاهر من قبيل الغيب ما لم يدخل عليه ما يوجب الخطاب(١).

قال العكبري: «ولم يقل: فاستغفرت لهم؛ لأنه رجع من الخطاب إلى الغيبة لما في الاسم الظاهر من الدلالة على أنه الرسول»(٢).

وقال الرازي: «إنما قال: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل: واستغفرت لهم، إجلالاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا جاؤوه فقد

---

(١) الكليات ٢٤١.

(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩.

جاؤوا من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه»[(١)].

وقال أبو حيان: «والتفت في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يجئ على ضمير الخطاب في: ﴿جَآءُوكَ﴾ تفخيماً لشأن الرسول، وتعظيماً لاستغفاره»[(٢)].

وكذا أفاد الالتفات التفخيم في قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الرُّوم: ٣٩].

ومثله كذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

إلى غير ذلك من الفوائد واللطائف التي أشار إليها العلماء حول هذا الأسلوب القرآني العربي البليغ، والله تعالى أعلم.

المطلب السادس

انتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب

والمراد به: أن يأتي السياق على أسلوب الغيبة، ثم ينتقل إلى أسلوب الخطاب، وهو كثير في كتاب الله تعالى، وأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب من أول المواضع التي بيّن فيها المفسرون ما يتعلق بالالتفات[(٣)]، وأظهروا ما في هذا الأسلوب من حِكَم وأسرار[(٤)].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ١٣٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٢٩٥.
(٣) لوقوع شاهده في أول سورة الفاتحة.
(٤) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٤، البرهان ٣/ ٣٢٢، تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

فابتدأت هذه السورة بالحمد والثناء والتمجيد لله تعالى بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

قال ابن فارس: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ معناه: فأعِنّا على عبادتك»[(١)].

ولو جرى على أسلوب الغيبة كما هو السياق لكان: إياه نعبد.

قال النحاس: «وقال: إياك، ولم يقل: إياه؛ لأن المعنى: قل يا محمد إياك نعبد على أن العرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب»[(٢)].

وقال أبو حيان: «﴿إِيَّاكَ﴾ التفات؛ لأنه انتقال من الغيبة، إذ لو جرى على نسق واحد لكان: إياه»[(٣)].

وفي هذا الأسلوب تدرُّج في الثناء فانتقل من الحمد إلى الثناء إلى التمجيد، والعبد إذا وصف الله بهذه الأوصاف قرب منه، وإذا قرب منه ناداه.

قال ابن جزي: «ذكر الله تعالى في أول هذه السورة على طريق الغيبة ثم على الخطاب في: إياك نعبد وما بعده، وذلك يسمى الالتفات، وفيه: إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه؛ فصار من أهل الحضور فناداه»[(٤)].

وقال أبو السعود: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلوين للنظم من باب إلى باب، جار على نهج البلاغة في افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب»[(٥)].

وقال ابن عاشور: «والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ إلى أسلوب

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١٣٤.
(٢) معاني القرآن ١/ ٦٥.
(٣) البحر المحيط ١/ ١٤١، وينظر: الدر المصون ١/ ٣٥.
(٤) التسهيل ١/ ٦٤.
(٥) تفسير أبي السعود ١/ ١٦.

طريق الخطاب ابتداء من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البديع عند العرب، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتاً»(١).

وفوائد هذا الأسلوب كثيرة(٢)، ومنها:

١ ـ دلالة اختصاص العبادة والاستعانة واستحقاقها لله جل وعلا، وتقديم الضمير دليل على المبالغة في ذلك.

٢ ـ وكذلك فإن أسلوب الخطاب أخص من أسلوب الغيبة، فاستعمل الأسلوب الأخص في ذكر الفعل الأخص(٣).

قال الألوسي: «سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة، وهي: التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فقيل: لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص، والترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، وكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيب حضوراً»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة].

محل الالتفات في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فقد جاءت بأسلوب الخطاب، وما قبلها كان بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾، وكان مقتضى السياق أن يكون: فإن تابوا فهو خير لهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٢.
(٢) ينظر: الكشاف ١/ ٥٦، الإتقان ٢/ ١٨٧.
(٣) الإكسير في علم التفسير ١٧٧.
(٤) روح المعاني ١/ ٨٩.

وفي هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب معنى التهديد والتخويف[(١)].

قال أبو السعود: «﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الشرك والغدر، التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد»[(٢)].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران].

في هذه الآية بيَّن تعالى بَعد مَكْرِ الذين كفروا من بني إسرائيل لقتل عيسى عليه السلام أنه مَكَرَ بهم وهو خير الماكرين، فمكر الله بهم، إذ قال الله لعيسى: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إليَّ ببدنك وروحك، ومخلصك من الذين كفروا بك، وجاعل الذين اتبعوك ظاهرين على الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، ثم إليّ مصيركم جميعاً يوم الحساب، فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام[(٣)].

قال الطبري: «ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتلَ عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم»[(٤)].

ففي هذه الآية الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

قال أبو حيان: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ هذا إخبار بالحشر والبعث، وهذا عندي من الالتفات، فلو جاء على نمط السابق لكان التركيب: ثم إليّ مرجعهم، ولكنه التفت على سبيل الخطاب للجميع، ليكون الإخبار أبلغ في التهديد، وأشد زجراً لمن يزدجر»[(٥)].

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٢٧٠، روح المعاني ١٠/ ٤٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٢.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي ٤/ ١٠٠، تفسير السعدي ٥٣، التفسير الميسر ٥٧.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥.
(٥) البحر المحيط ٢/ ٤٩٨ بتصرف، وينظر: الدر المصون ٣/ ٤٢١.

ففي هذه الآية معنى البشارة والنّذارة، وجاءت بأسلوب الالتفات ليكون أبلغ في التأثير، وليعم بالخطاب الجميع.

قال البقاعي: «ولما كان البعث عاماً دل عليه بالالتفات إلى الخطاب فقال تكميلاً لما بشر به من النصرة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: المؤمن والكافر في الآخرة»[1].

وقال أبو السعود: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: رجوعكم بالبعث، وثم: للتراخي، وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد، والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب في ضمن الالتفات فإنه أبلغ في التبشير والإنذار»[2].

ويفيد الالتفات إلى أسلوب الخطاب: العناية والاهتمام.

قال الألوسي: «﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم بعد يوم القيامة ورجوعكم، وفيه التفات للدلالة على شدة إرادة إيصال الثواب والعقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم].

لما قرَّر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علوّاً كبيراً ـ ففي هذه الآيات بيان جرأة الكفار بقولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾؛ أي: لقد جئتم ـ أيها القائلون ـ بهذه المقالة شيئاً عظيماً منكراً[4].

فقد جاء الالتفات من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾، إلى

---

(١) نظم الدر ٢/ ٩٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٤٤.
(٣) روح المعاني ٣/ ١٨٤.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٥٧، مفردات ألفاظ القرآن ٦٩، تفسير ابن كثير ٥/ ٢٦٥.

أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿جِئۡتُمۡ﴾، وفي هذا الالتفات إلى الخطاب معنى التوبيخ على وجه شديد الصراحة؛ لأن من فُتِن في دينه فزعم اتخاذ الرحمٰن ولداً، يُستَنكر منه هذا القول الآثم، ويستحقُّ التوبيخ، وتوبيخُ الحاضر أشد نكاية من توبيخ الغائب، فهذا ـ والله أعلم ـ من أسرار الالتفات في هذه الآية الكريمة(١).

قال أبو السعود: «﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩﴾ رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»(٢).

وقال ابن عاشور: «والخطاب في: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ﴾، للذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾، فهو التفات لقصدِ إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد»(٣).

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾ [عبس].

ذَكَر المفسرون(٤) أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طَمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، ودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعَبَس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه بوجهه وبدنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾؟ أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه(٥).

---

(١) ينظر: الكشاف ٣/ ٤٥، تفسير البيضاوي ٤/ ٣٥، البحر المحيط ٦/ ٢٠٥، روح المعاني ١٦/ ١٣٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٨٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٠.
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٠٥٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٩، تفسير السعدي ٩١٠.
(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢١٧، والحاكم ٢/ ٥١٤ (٣٨٩٦)، وقال: صحيح على شرط =

قال الشوكاني: «أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية قصة ابن أم مكتوم»[(١)].

والالتفات في هذه الآية من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، وفيه الإكرام والإجلال واللطف برسول الله ﷺ من المواجهة بالعتاب، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، وفيه الإقبال عليه ﷺ تأنيساً له بعد الإعراض[(٢)].

قال أبو حيان: «وجاء بضمير الغائب في: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ إجلالاً له عليه الصلاة والسلام، ولطفاً به أن يخاطبه؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى»[(٣)].

وقال القرطبي: «ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً له، ولم يقل: عبست وتوليت، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له»[(٤)].

وقال البقاعي: «ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال، وكان طول الإعراض موجباً للانقباض، أقبل عليه ﷺ فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وإن اجتهدت في ذلك فإن ذوات الصدور لا يعلمها إلا الله تعالى»[(٥)].

ورأى الزمخشري، وابن عطية: أن العتاب هنا بأسلوب الخطاب زيادةٌ في الإنكار.

قال الزمخشري: «وفي الإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه

= الشيخين ولم يخرجاه، والترمذي ٥/ ٤٣٢ (٣٣٣١)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة عبس، وقال: هذا حيث غريب، والواحدي ٣٧٩، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه ابن حبان ٢/ ٢٩٣ (٥٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٢٦ (٢٦٥١).

(١) فتح القدير ٥/ ٥٣٩.
(٢) ينظر: روح المعاني ٣٠/ ٣٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٣.
(٥) نظم الدرر ٨/ ٣٢٤.

بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة»[(١)].

وقال ابن عطية: «وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض»[(٢)].

والذي عليه الأكثر: أن في أسلوب الغيبة إكرام للنبي ﷺ.

قال أبو حيان: «ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً»[(٣)].

وقال ابن جزي: «قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العَتَب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشري: في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار، وقال غيرهما: هو إكرام للنبي ﷺ، وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب، وهذا أحسن»[(٤)].

وهذا هو الأقرب والله أعلم.

وبهذا يتبين أن أمثلة هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى كثيرة، وعناية المفسرين فيه كبيرة، وانتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب له معان وأغراض كثيرة، ومنها:

١ ـ التهديد والتخويف، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٥]، والالتفات في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾[(٥)].

٢ ـ التوبيخ والتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٠٢.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٤) التسهيل ٣/ ٢٨٢، وينظر: تفسير القاسمي ٩/ ٤٠٥.
(٥) ينظر: روح المعاني ١٤/ ١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالالتفات في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾(١).

وقوله تعال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل]، فالالتفات في قوله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾(٢).

٣ ـ ومن ذلك الامتنان على العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة]، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، والغرض الامتنان(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور].

فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فتشريع هذه الأحكام فضلٌ من الله تعالى، وأسلوب الخطاب لغرض الامتنان أبلغ.

قال أبو السعود: «التفات إلى خطاب الراجين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان»(٤).

إلى غير ذلك من الأغراض والفوائد لمن تأمل فيها، وهي سِرٌّ من أسرار الإعجاز البلاغي في كتاب الله جل وعلا، والله تعالى أعلم.

❑ وختاماً:

فإن من عادات القرآن: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب، ولكلِّ أسلوب من أساليب القرآن حِكَم وفوائد، عرَفَها من عرَفَها، وجَهِلَها من جَهِلَها، وخلاصة الكلام:

١ ـ أن عادة القرآن في الانتقال من أسلوب إلى آخر هي عادة العرب في

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٣/ ٢٨٨.
(٢) ينظر: تفسير الخازن ٤/ ٩٥.
(٣) ينظر: الدر المصون ١٢/ ٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٩.

شعرهم ونثرهم[١].

قال النسفي: «والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة، والعلماء النحارير، وقليل ما هم»[٢].

فالقرآن نزل بلغة العرب وأساليبهم، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، فصار مرجعاً لهم في أساليبهم، مما جعل العلماء يربطون استدلالهم كثيراً بآيات القرآن لهذا الأسلوب.

٢ ـ رفع السآمة والملل من الاستمرار على أسلوب واحد، متكلم أو مخاطب أو غائب، وبالانتقال تستريح النفوس ويتجدد نشاطها، فيَحسُن الانتقال من أحدها إلى الآخر؛ لأن الكلام المتوالي على نسق واحد غير مُسْتَطَاب.

٣ ـ أن الانتقال الذي هو محل الدراسة هو الانتقال اللفظي لا المعنوي، فيكون المنتَقَل إليه هو في نفس الأمر الملتَفَت عنه[٣].

٤ ـ تنوُّع الأغراض والفوائد من الالتفات في الأساليب على حسب السياق، وهي أكثر من أن تحصر في جزء من بحث، والجامع لها مراعاة المخاطب من حيث الرقَّة أو الشدة.

٥ ـ انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر يحث على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّر الأسلوب يدعو للتفكير في السبب.

٦ ـ أن انتقال الأساليب في القرآن لا يتوقف على الضمائر، بل يتعدى للأفعال والأعداد، وغيرها، ولكن باب الضمائر هو أشهرها.

ولذلك اختلفت عبارات العلماء في تحديد هذا المصطلح.

فمنهم من أطلق عليه: الترك والرجوع[٤]، ومنهم من ذكره في باب:

---

(١) عَدَّهُ ابن فارس في فقه اللغة: من سنن العرب في حقائق الكلام ١٤٩.
(٢) تفسير النسفي ١/٧، ٨.
(٣) ينظر: البرهان ٣/٣١٤.
(٤) كأبي عبيدة معْمَر بن المثنى في كتابه: مجاز القرآن ١/١٢، ولكنه لم يذكر شيئاً عن =

مخالفة ظاهر اللفظ معناه[١]، وعدُّوه من مجاز القرآن، ومنهم من قال: تحويل الخطاب[٢]، والاصطلاح الذي عليه الجمهور: الالتفات، وقد أفرده المتأخرون بمبحث مستقل، وتتابع العلماء على التأليف فيه واستفادة بعضهم من بعض وتوسع بعضهم في الموضوع، وهو حقيق بالبحث والاستنباط أكثر، والله تعالى أعلم.

= الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير التكلم في القرآن الكريم أو العكس، ولم يشر إلى أي سر من أسرار الالتفات في أي نوعٍ من أنواعه، ومع ذلك فإنه يعتبر من أوائل من تكلم عن أسلوب الالتفات في كتابٍ مُؤَلف، واستفاد منه من بعده.
وسماه المبرد تركاً حيث قال: «والعربُ تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب»، الكامل في اللغة ٣/ ١٧.

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٧٧، فقد أشار إليه في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه.
(٢) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة ١٦٣، ١٦٤.

الخَاتِمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد عشت مع هذا البحث فترة من عمري، أقلب فيها كتب التفسير، وأهل اللغة؛ من المتقدمين والمتأخرين، لأستخرج شيئاً من أسرار القرآن العظيم وكنوزه، من خلال جمع عاداته الأسلوبية، وتحقيقها بدراسة الأمثلة التطبيقية من آيات القرآن، فزادت معرفتي لأهمية هذا الموضوع وحاجته إلى وقت أطول، ومشروع أكبر، وظهر لي عدة نتائج أثناء البحث، أبرزها ما يلي:

- ظهور عناية العلماء قديماً وحديثاً بعادات القرآن، على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يعبر عنه بذكر الأمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعنَون بالحدود والتعريفات، ولم يظهر هذا المصطلح إلا في القرن السادس الهجري.

- أن عادات القرآن ليست محصورة على أساليبه، بل عاداته متنوعة لا يمكن حصرها، ومن ذلك: عادات القرآن الشرعية، واللغوية، والفقهية، والعقدية، وغيرها مما يفتح الأفق للباحثين في هذا الموضوع.

- أن العادات الأسلوبية في القرآن لا تخلو من دلالة خاصة ميَّزت اختيار الأسلوب في القرآن، وهي محل تدبر وتأمل، ودافع للإيمان بإعجاز هذا القرآن من جميع الوجوه.

- أن الأسلوب شامل للحروف والألفاظ والتراكيب، وكل حرف في القرآن فله معنى.

- أن عادات القرآن من جملة العلوم المضافة إلى القرآن.

- عادات القرآن من أهم دلالات الترجيح بين المعاني عند المفسرين.
- عادات القرآن تحمي المفسر من القول على الله بلا علم.
- إيجاب العلماء تنزيل معاني القرآن على المعهود من عرفه وعادته.
- من عادات القرآن: اختيار الحرف واللفظ المناسب للسياق، نيابة بعض الحروف أو الألفاظ عن بعض، التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، الحذف والذكر، والإضمار والإظهار، والإيجاز والإطناب، اقتران بعض الألفاظ أو الآيات الكونية أو الأحكام ببعض، ربط القصص بما يناسبها، وقصرها على المقصود، مع تكرار بعضها، خطاب الأنبياء بأسماءهم ونبينا ﷺ بوصفه، وعموم الخطاب، والانتقال بين الأساليب، وغيرها كثير كما جاء تفصيل ذلك في ثنايا البحث.
- زادت قناعتي بأن علوم القرآن لا تنفد، وأن نعم الله تعالى عامة على عباده، فقام العلماء السابقون بخدمة كتاب الله بكل ما يستطيعون، وتركوا الكثير لمن بعدهم، فنحمد الله تعالى على ما يسر، ونسأله دوام التوفيق والسداد.
- لا بُدَّ لاستخراج عادات القرآن من الاستقراء الكامل لكتاب الله، بتأمل وتدبر، مع استجماع شروط المفسر لئلا يحصل الخطأ والزلل.
- ولا أدعي في جمعي هذا أني أحطت بجميع عادات القرآن؛ لأن البحث يعتمد على الاستقراء، الذي يصعب معه الاستقصاء، ولكن حسبي أن بذلت غاية وسعي، ونهاية جهدي، والله الموفق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

❐ المقترحات والتوصيات:

ـ ضرورة التوسع في جمع عادات القرآن المتنوعة في موسوعات علمية من خلال مشاريع بحثية.

ـ العناية بعادات القرآن ضمن تدريس تفسير كتاب الله تعالى وعلومه، وبيان أهمية الرجوع إليها عند الاختلاف في معنى اللفظ اللغوي.

ـ تأصيل المنهج الصحيح لاستخراج هذه العادات، والحكم عليها، من خلال الندوات والمؤتمرات العلمية.

ـ من الموضوعات التي لا زالت بحاجة إلى بحث:

١ ـ خروج اللفظ عن مقتضى الظاهر وتحته عادات كثيرة.

٢ ـ دراسة الاقتران في القرآن وفيه فروع كثيرة.

٣ ـ التقديم والتأخير من أجل الفاصلة القرآنية.

٤ ـ الدقة في ألفاظ القرآن الكريم.

٥ ـ دراسة عادات القرآن اللغوية، والفقهية، والعقدية، والتربوية، والدعوية، وغيرها.

٦ ـ دراسة أساليب الالتفات في القرآن وإظهار إعجازه وبلاغته وأسراره من خلالها.

وفي الختام أكرر حمدي وشكري لله تعالى على ما يسر وأعان على إتمام هذا البحث وأنا في أتم الصحة والعافية، كما أكرر شكري لمشرِفَيّ الأفاضل، ولكل من أفادني وكان سبباً في تيسير بحثي، كما أعترف أن هذا جهد بشري، وهو عرضة للنقص والخطأ، والكمال لله وحده.

وكما قال الأول: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

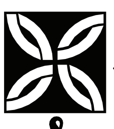
ولكن حسبي أني بذلت الوسع في إعطاء البحث حقه من الاهتمام والجدية.

وأستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، وأستغفر الله من أقوالي التي لا توافقها أعمالي، وأستغفر الله من كل خطرة دعتني إلى التصنع والتزين في بحثي، وأرجو الله تعالى لمن طالع بحثي أن يُكرَمَ بالرحمة والمغفرة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً، وأن لا يبخل عليَّ بتوجيه أو تنبيه، وتقويم أو تصويب، وله مني الشكر والدعاء.

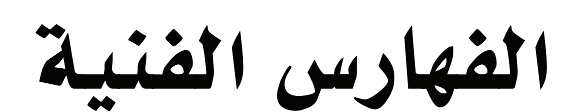
أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم،

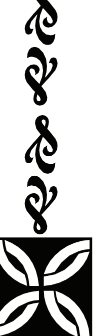
مكتوباً له القبول في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.





الفهارس الفنية





فهرس الآيات

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾	٢٢٠	
﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾	٢٢٠	
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَاءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾	٢٢٢	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾	٢٢٢	
﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾	٢٢٣	
﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾	٢٢٤	
﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾	٢٢٦	
﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾	٢٢٧	
﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾	٢٣٥	
﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾	٢٣٦	
﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾	٢٣٨	
﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾	٢٤٠	
﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾	٢٤٣	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾	٢٤٣	
﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾	٢٤٤	
﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾	٢٥٠	
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٢٥١	
﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾	٢٥٣	
﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾	٢٥٣	

سورة المائدة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾	٢	
﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾	٣	
﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾	١٢	
﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾	١٢	
﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾	١٨	
﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾	٢١	
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾	٢٥	
﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾	٢٦	
﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾	٢٦	
﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾	٢٧	
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾	٣١	
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾	٣٣	
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾	٣٤	
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾	٣٨	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾	٨٩	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾	٩٠	
﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾	٩٣	
﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾	١١٠	
﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾	١١٦	
﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾	١١٧	

سورة الأنعام

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾	٣	
﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾	٢٣	
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧	
﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾	٣٠	
﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾	٣٠	
﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾	٣٢	
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾	٣٣	

سورة الأعراف

طرف الآية	رقمها	الصفحة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾	١٧٩	
﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾	١٨٠	
﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾	١٨٩	
﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾	١٩٩	
﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾	٢٠٠	
﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾	٢٠٤	

سورة الأنفال

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾	٣	
﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾	١٢	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾	٢٠	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾	٢٤	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧	
﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾	٣٢	
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾	٣٣	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾	٦٤	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾	٦٥	

سورة التوبة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢	
﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٣	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾	٨٨	
﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ﴾	٩٢	
﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾	٩٢	
﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾	١٠٤	
﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾	١١٢	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾	١١١	
﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾	١١٧	
﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾	١١٨	
﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾	١١٨	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾	١١٩	
﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾	١٢٤	
﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾	١٢٥	
﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾	١٢٧	
﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾	١٢٨	
﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾	١٢٩	

سورة يونس

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾	١	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾	١١٢	
﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾	١١٥	
﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾	١١٦	
﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾	١٢٠	
﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾	١٢٣	
سورة يوسف		
﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾	٣	
﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾	٤	
﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾	١٠	
﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾	١٥	
﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾	١٨	
﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾	٢٣	
﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾	٢٣	
﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾	٢٤	
﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾	٢٩	
﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	
﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾	٤٤	
﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾	٥١	

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾	٧٨	
﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾	٧٩	
﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾	٨٠	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾	٩٠	
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾	٩٠	
﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾	٩١	
﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾	٩٦	
﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾	٩٧	
﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾	٩٨	
﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾	١٠١	
﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾	١٢٥	
﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾	١٢١، ١٢٢	

سورة الإسراء

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾	١	
﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾	٧	
﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾	٩	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾	١٢	
﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾	٢٥	
﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾	٤١	
﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾	٤٢	
﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾	٥١	
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾	٦٠	
﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾	٦٥	
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾	٦٨	
﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾	٧٣	
﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾	٨٨، ٨٩	
﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾	٨٩	
﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾	٩١	
سورة طه		
﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾	١، ٢	
﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾	٩	
﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾	١١	
﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾	١٢	
﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾	١٧	
﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾	١٨	
﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾	١٩	
﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾	٢٠	
﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾	٢٩	
﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	
﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾	٣٨	

طرف الآية	رقمها	الصفحة

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾	١٢٣	
﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾	١٢٧	
﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾	١٣٢	
سورة الأنبياء		
﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾	١	
﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾	١٣	
﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾	١٧	
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾	٢٥	
﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾	٢٦	
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾	٣٣	
﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾	٣٤، ٣٥	
﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾	٣٧	
﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾	٤٥	
﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾	٤٧	
﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾	٤٨	
﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾	٥٧	
﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾	٦٩	
﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾	٧٧	
﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾	٧٨	
﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾	٧٩	
﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾	٧٩	
﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾	٨٣	

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾	٤١	
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾	٤٦	
﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾	٥٦	
﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾	٦٠	
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾	٦١	
﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾	٧٢	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾	٧٣	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾	٧٧	
﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾	٧٨	

سورة المؤمنون

طرف الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾	١	
﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾	١٤	
﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾	٢٧	
﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	٣٣	
﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾	٣٦	
﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾	٤٥	
﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾	٤٦	

سورة الشعراء

سورة العنكبوت

سورة سبأ

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الأعلام

فهرس العادات القرآنية

العادة القرآنية | الصفحة

العادة القرآنية | الصفحة

فهرس الكلمات اللغوية

- الإطنَاب
- الإيالة
- الإيجاز
- الترف
- التكرار
- الجَنَفُ
- السَّغب
- العام
- العَوْد
- الفَاصِلة
- المُتَهَضَّمُ
- الهامدة
- الوَعْظ
- أَمِروا
- بَجَسَ
- بَحَثَ
- تذييل
- خسر
- دآدئه
- سَكَتَ
- سَكَن
- صوف
- ضَمَر
- ظَهَر
- فَجَرَ
- فذلكة
- لَوْطة
- مهْيَع
- نَصَب
- وَضَح
- وَهَنَ

فهرس الأبيات الشعرية

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ **إبراز المعاني من حرز المعاني في القراءات السبع**: لعبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، نشر شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
٢ ـ **الإبهاج في شرح المنهاج**: لعلي بن عبد الكافي السبكي، وولده عبد الوهاب، مكتبة دار الباز، دار الكتب العلمية.
٣ ـ **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**: لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.
٤ ـ **إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: د. عبد الكريم بن علي النملة، دار العاصمة ط١، ١٤١٧هـ.
٥ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمٰن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٦ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: للإمام علي بن محمد الآمدي، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٨٧هـ.
٧ ـ **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام**: لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، نشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٨٧هـ.
٨ ـ **أحكام القرآن**: لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ضبط نصه وخرج آياته: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية.
٩ ـ **أحكام القرآن**: لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
١٠ ـ **أحكام القرآن**: لأبي الحسن علي بن محمد الطبري الشافعي، المعروف بالكيا الهراسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١١ ـ **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار االمعرفة، بيروت.

١٢ ـ **آداب المشي إلى الصلاة مع شرحه**: للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الناشر: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الرياض المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣ ـ **أدب الكاتب**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الدينوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٩٦٣م.

١٤ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**: للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٥ ـ **أسباب النزول**: للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٢هـ.

١٦ ـ **أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**: لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٧ ـ **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**: لحسن طبل، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨ ـ **أسماء الله الحسنى**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم، تحقيق: يوسف علي بديوي، وأيمن عبد الرزاق الشوَّا، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ط٣، ١٤٢١هـ.

١٩ ـ **الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**: لزين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٠هـ.

٢٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ.

٢١ ـ **الأصول الثلاثة**: لمحمد بن عبد الوهاب، شعبة توعية الجاليات، الزلفي، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٢ ـ **الأصول في النحو**: لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تحقيق: د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

٢٣ ـ **أصول الفقه الإسلامي**: للدكتور: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٤ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٤١٥هـ.
٢٥ ـ **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**: تأليف د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٢٣هـ.
٢٦ ـ **إعجاز القرآن**: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، علَّق عليه: أبو عبد الرحمٰن صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.
٢٧ ـ **إعراب القرآن الكريم وبيانه**: لمحيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، ط٦، ١٤١٩هـ.
٢٨ ـ **إعراب القرآن**: لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٤٠٥هـ.
٢٩ ـ **إعراب القرآن المنسوب**: لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط١، ٢٠٠١م.
٣٠ ـ **إعراب القرآن وعلل القراءات المسمى: كشف المشكلات وإيضاح المعضلات**: لنور الدين أبي الحسن علي بن الحسين الباقولي، تحقيق: د. عبد القادر عبد الرحمٰن السعدي، دار عمار، ط١، ١٤٢١هـ.
٣١ ـ **الأعلام (قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين)**: لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٣٢ ـ **الاقتضاب في شرح أدب الكتاب**: لأبي محمد عبد الله بن محمد البطليوسي، تحقيق: مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣٣ ـ **الإكسير في علم التفسير في أصول وقواعد التفسير**: لسليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.
٣٤ ـ **ألفية ابن مالك في النحو والصرف**: لمحمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، مطبعة النهضة الوطنية، نشر: دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٠٩هـ.
٣٥ ـ **الأمثال السائرة من شعر المتنبي**: للصاحب بن عباد، تحقيق: جميل عبد الله عويضة، ط، ١٤٣٠هـ.
٣٦ ـ **الأنساب**: للإمام أبي سعيد عبد الكريم بن منصور التميمي السمعاني، تعليق: عبد الله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ.
٣٧ ـ **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**: لجمال الدين عبد الله الأنصاري، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٨ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: للخطيب القزويني، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، دار الكتب العلمية.

٣٩ ـ **البحر المحيط**: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ.

٤٠ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، دار الكتبي.

٤١ ـ **بدائع الفوائد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وعادل عبد الحميد العدوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٢ ـ **البداية والنهاية**: للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٣ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: للقاضي محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٤ ـ **البرهان في أصول الفقه**: لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤٥ ـ **البرهان في علوم القرآن**: لمحمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

٤٦ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت.

٤٧ ـ **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**: لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ.

٤٨ ـ **البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني**: لـ د. فضل حسن عباس، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤٢٩هـ.

٤٩ ـ **البيان والتبيين**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٥٠ ـ **التأسيس في أصول الفقه على ضوء الكتاب والسُّنَّة**: لأبي إسلام مصطفى بن محمد بن سلامة، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ط٣، ١٤١٥هـ.

٥١ ـ **تأويل مشكل القرآن**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، علَّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٥٢ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، نشر: دار الهداية.
٥٣ ـ **تاريخ الأمم والرسل والملوك**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
٥٤ ـ **تاريخ بغداد**: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
٥٥ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ.
٥٦ ـ **التبيان في إعراب القرآن**: لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ.
٥٧ ـ **تذكرة الحفاظ**: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
٥٨ ـ **تراجم لتسعة من الأعلام**: د. محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ.
٥٩ ـ **التحرير والتحبير**: لمحمد بن محمد بن أمير الحاج الحنبلي، دراسة وتحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
٦٠ ـ **التحرير والتنوير**: للإمام الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
٦١ ـ **التسهيل لعلوم التنزيل**: للإمام ابن جزي الكلبي، ضبط: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
٦٢ ـ **التعريفات**: للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.
٦٣ ـ **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد عبد الرحمٰن موسى القزقي، المكتب الإسلامي دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ.
٦٤ ـ **تفسير ابن أبي حاتم**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي تحقيق: أسعد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
٦٥ ـ **تفسير أبي السعود المسمى**: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمٰن، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

٦٦ ـ **تفسير أسماء الله الحسنى**: للشيخ عبد الرحمٰن السعدي، دراسة وتحقيق: عبيد بن علي العبيد، نشر في: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٢ السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

٦٧ ـ **تفسير البغوي المسمى**: معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ.

٦٨ ـ **تفسير البيضاوي**: لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي الشافعي، دار الفكر، بيروت لبنان.

٦٩ ـ **تفسير الثعالبي**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي، دار الأعلمية، بيروت.

٧٠ ـ **تفسير الجلالين تصنيف**: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، عناية: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ.

٧١ ـ **تفسير الرازي، المسمى مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ.

٧٢ ـ **تفسير السعدي المسمى: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، في سبع مجلدات، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤٠٧هـ.

٧٣ ـ **تفسير السمرقندي المسمى: بحر العلوم**: لنصر بن محمد أبو الليث السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.

٧٤ ـ **تفسير السمعاني**: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٧٥ ـ **تفسير الطبري المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ.

٧٦ ـ **تفسير**: العز بن عبد السلام الدمشقي الشافعي، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٧٧ ـ **تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل**: لمحمد جمال الدين القاسمي، ضبطه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٧٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للإمام المحدث ابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ط٢، ١٤٢٠هـ.

٧٩ ـ **تفسير القرآن الكريم (الفاتحة، البقرة)**: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٨٠ ـ **تفسير القرآن الكريم (جزء عم)**: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٨١ ـ **تفسير القرطبي المسمى: الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ثمان مجلدات، دار الشعب، القاهرة.

٨٢ ـ **التفسير القيم لابن القيم**: جمع: كحمد أويس الندوي: ، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٨٣ ـ **التفسير الميسر**: إعداد نخبة من العلماء بإشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٨هـ.

٨٤ ـ **تفسير النسفي المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل**: لأبي البركات عبد الله النسفي، دار الفكر.

٨٥ ـ **التفسير والمفسرون**: لـ د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، ط٦، ١٤١٦هـ.

٨٦ ـ **التقرير والتحبير في شرح التحرير**: لمحمد بن محمد بن محمد بن أمير حاج، مؤسسة قرطبة.

٨٧ ـ **التمهيد في أصول الفقه**: لأبي الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن، تحقيق: د. مفيد أبو عمشة، د. محمد إبراهيم، دار المدني، نشر جامعة أم القرى ط١، ١٤٠٦هـ.

٨٨ ـ **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٨٩ ـ **التيسير فى القراءات السبع**: لأبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٩٠ ـ **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**: للخطابي، بيان إعجاز القرآن، والرماني، النكت في إعجاز القرآن، والجرجاني، الرسالة الشافية، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، ط٣ دار المعرف بمصر.

٩١ ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٤هـ.

٩٢ ـ **جامع المسائل**: لأبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد عزير شمس، وإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ.

٩٣ ـ **الجدول في إعراب القرآن**: لمحمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد مؤسسة الإيمان، دمشق، ط٤، ١٤١٨هـ.

٩٤ ـ **الجرح والتعديل**: لعبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٢٧١هـ.

٩٥ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن القيم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٩٦ ـ **الجنى الداني في حروف المعاني**: للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ.

٩٧ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**: لعبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي، تحقيق: مير محمد كراتشي، ١٣٣٢هـ.

٩٨ ـ **الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون في المعاني والبيان والبديع**: لعبد الرحمٰن بن سيدي محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري، وشرحه حلية اللب المصون على الجوهر المكنون: لأحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، طبعة عيسى البابي الحلبي، مايو ١٨٨٢م.

٩٩ ـ **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**: لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

١٠٠ ـ **حاشية مقدمة التفسير**: لعبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم الحنبلي، ط٢، ١٤١٠هـ.

١٠١ ـ **الحجة في القراءات السبع**: للإمام ابن خالويه، تحقيق وشرح: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٧هـ.

١٠٢ ـ **حجة القراءات**: لأبي زرعة عبد الرحمٰن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٤، ١٤٠٤هـ، بيروت مؤسسة الرسالة.

١٠٣ ـ **حلية الأولياء**: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

١٠٤ ـ **الحيوان**: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت لبنان، سنة ١٤١٦هـ.

١٠٥ ـ **الخصائص**: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.

١٠٦ ـ **خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه**: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط١، ١٤٠٠هـ.

١٠٧ ـ **دراسات في علوم القرآن الكريم**: أ.د فهد بن عبد الرحمٰن بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، ط٩، ١٤٢١هـ.

١٠٨ ـ **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**: لمحمد بن عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ.

١٠٩ ـ **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**: لأحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد بن محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

١١٠ ـ **الدر المنثور**: لجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، ثمان مجلدات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

١١١ ـ **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**: جمع عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم الحنبلي، ط٦، ١٤١٧هـ.

١١٢ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لأبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني، مراقبة: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف، الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١١٣ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**: للشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عناية: عمر عبد السلام السلامي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.

١١٤ ـ **دلائل الإعجاز**: لعبد القاهر الجرجاني تعليق: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١١٥ ـ **دلائل النبوة**: للبيهقى، تحقيق: د. عبد المعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ.

١١٦ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**: ، دار بيروت، ١٤٠٢هـ.

١١٧ ـ **ديوان أبي الطيب المتنبي**: ، شرحه وكتب هوامشه: مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١٨ ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب، دار المؤيد، دار المعرفة، بيروت.

١١٩ ـ **الرد على البكري**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ.

١٢٠ ـ **الرد على المنطقيين**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار المعرفة، بيروت.

١٢١ ـ **رصف المباني في شرح حروف المعاني**: لأحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أ.د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ.

١٢٢ ـ **روح المعاني**: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت.

١٢٣ ـ **روضات الجنات في أحوال العلماء**: والسادات لمحمد باقر الموسوي، الطبعة الثانية.

١٢٤ ـ **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**: لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، مكتبة المعارف، الرياض.

١٢٥ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: للإمام أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، عناية: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ.

١٢٦ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٤، ١٤٠٧هـ.

١٢٧ ـ **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي**: لمحمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي أبو منصور، تحقيق: د. محمد جبر الألفي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، ١٣٩٩م.

١٢٨ ـ **الزهد**: لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٩ ـ **سر صناعة الإعراب**: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د.حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٥.

١٣٠ ـ **سنن ابن ماجه**: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

١٣١ ـ **سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي**: دار الحديث، ط١، ١٣٨٨هـ.

١٣٢ ـ **سنن الترمذي المسمى الجامع الصحيح**: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٣٤ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لعبد الحي بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ.

١٣٥ ـ **شرح ابن عقيل عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني على ألفية ابن مالك**: دار الفكر، ١٤١٤هـ.

١٣٦ ـ **شرح الرضي**: لكافية ابن الحاجب، تحقيق: د. حسن بن محمد الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ.

١٣٧ ـ **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**: لعبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

١٣٨ ـ **شرح صحيح البخاري**: لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٣٩ ـ **شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٣٩٢م.

١٤٠ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط٦، ١٤١٤هـ.

١٤١ ـ **شرح الكوكب المنير المسمى: مختصر التحرير**: للعلامة محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار، تحقيق: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ.

١٤٢ ـ **شرح مختصر روضة الناظر**: لنجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ.

١٤٣ ـ **شرح المفصل**: لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي، عالم الكتب، بيروت.

١٤٤ ـ **شعب الإيمان**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

١٤٥ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: للقاضي عياض، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، مكتبة البابي الحلبي، ١٩٧٧م.

١٤٦ ـ **الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي حياته وآثاره**: لسعود بن صالح السيف، دار العاصمة، ط١، ١٤١٥هـ.

١٤٧ ـ **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تعليق: أحمد حسن، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٨هـ.

١٤٨ ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٩هـ.

١٤٩ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٥٠ ـ **صحيح البخاري**: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٥١ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: لمحمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٥٢ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط١، ١٤١٧هـ.

١٥٣ ـ **صحيح سنن الترمذي**: لمحمد ناصر الدين الألباني، تعليق: زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٥٤ ـ **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٥ ـ **الصحيح المسند من أسباب النزول**: لأبي عبد الرحمٰن مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

١٥٦ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣، ١٤١٨هـ.

١٥٧ ـ **ضياء السالك إلى أوضح المسالك**: لمحمد عبد العزيز النجار، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع مكتبة المغني، الرياض.

١٥٨ ـ **الطب النبوي**: لأبي بكر محمد بن ابن قيم الجوزي، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٠هـ.

١٥٩ ـ **طبقات الحفاظ**: لأبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١٦٠ ـ **طبقات الحنابلة**: للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت، توزيع دار المؤيد، الرياض.
١٦١ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**: لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٦٢ ـ **طبقات فحول الشعراء**: لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
١٦٣ ـ **طبقات المفسرين**: للإمام جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية.
١٦٤ ـ **طبقات المفسرين**: لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية.
١٦٥ ـ **طبقات المفسرين**: لأحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ.
١٦٦ ـ **الطراز لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز**: ليحيى بن حمزة العلوي اليمني، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد الهنداوي، الجيزة، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.
١٦٧ ـ **العبر في خبر من غبر**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م.
١٦٨ ـ **العدة في أصول الفقه**: للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين ابن الفراء البغدادي الحنبلي، تحقيق: د. أحمد بن علي سير المباركي، ط٣، ١٤١٤هـ.
١٦٩ ـ **العرف وأثره في الشريعة والقانون**: للشيخ أحمد بن سير المباركي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.
١٧٠ ـ **العين**: لأبي عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧١ ـ **غاية النهاية في طبقات القراء**: لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٠هـ.
١٧٢ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.
١٧٣ ـ **غريب الحديث**: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٧٤ ـ **غريب القرآن**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٧٥ ـ **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**: لأبي بكر محمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، سوريا، ط١، ١٤١٦هـ.

١٧٦ ـ **الفاصلة في القرآن**: لمحمد الحسناوي، دار عمار، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٧٧ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، تعليق: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، مصورة عن الطبعة السلفية.

١٧٨ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**: للإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبط: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

١٧٩ ـ **الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم**: لـ د. محمد بن عبد الرحمٰن الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض السعودية، ١٤١٤هـ.

١٨٠ ـ **الفروق في اللغة**: لأبي هلال العسكري، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٧هـ.

١٨١ ـ **الفصول في الأصول**: لأحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: د. عجيل جاسم النشمي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية دولة الكويت ط١، ١٤٠٥هـ.

١٨٢ ـ **فضائل القرآن**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهبي سليمان غاوجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

١٨٣ ـ **فقه اللغة**: لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: د. جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ.

١٨٤ ـ **فقه اللغة وأسرار العربية**: لأبي منصور الثعالبي، ضبط وفهرسة: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٨٥ ـ **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**: لعبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: حسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

١٨٦ ـ **فوات الوفيات**: لمحمد شاكر أحمد الكتبي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

١٨٧ ـ **القاموس المحيط**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨٨ ـ **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ**: لعبد الرحمٰن بن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٥هـ.

١٨٩ ـ **قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية**: د. حسين بن علي الحربي، دار القاسم ط١، ١٤١٧هـ.

١٩٠ ـ **قواعد التفسير جمعاً ودراسة**: ، للدكتور: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩١ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن**: للشيخ: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٣هـ.

١٩٢ ـ **القول المفيد على كتاب التوحيد**: لفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط٣، ١٤١٩هـ.

١٩٣ ـ **الكامل في اللغة والأدب**: لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ.

١٩٤ ـ **الكتاب كتاب سيبويه**: لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٩٥ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: لمحمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.

١٩٦ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تعليق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ.

١٩٧ ـ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**: لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، دار الشريف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٩٨ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٨هـ.

١٩٩ ـ **الكشف والبيان**: لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٠٠ ـ **كليات الألفاظ في التفسير دراسة نظرية تطبيقية**: لبريك بن سعيد القرني، ط١، ١٤٢٦هـ.

٢٠١ ـ **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**: لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ.
٢٠٢ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: لعلي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
٢٠٣ ـ **لسان العرب**: لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٧٤هـ.
٢٠٤ ـ **اللباب في علل البناء والإعراب**: لأبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: غازي مختار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.
٢٠٥ ـ **اللباب في علوم الكتاب**: لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.
٢٠٦ ـ **اللمحة شرح الملحة**: لمحمد بن الحسن الصايغ، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ.
٢٠٧ ـ **ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن**: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، عناية: د. محمد رضوان، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ.
٢٠٨ ـ **مباحث علوم القرآن لمناع القطان**: ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٣، ١٤١١هـ.
٢٠٩ ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.
٢١٠ ـ **مجاز القرآن**: لأبي عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مطبعة دار السعادة، مصر، ط١، ١٩٥٥م.
٢١١ ـ **مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة**: العدد (٣) السنة (٦) محرم ١٣٩٤هـ.
٢١٢ ـ **مجموع رسائل ابن عابدين**: لمحمد أمين أفندي الشهير بابن عابدين، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.
٢١٣ ـ **مجمع الزوائد**: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
٢١٤ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**: أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

٢١٥ ـ **مجموع فتاوى ورسائل**: فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان.

٢١٦ ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات**: لابن جني، تحقيق: علي النجدي ناصف، د. عبد الحليم النجار، د. عبد الفتاح شلبي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٢١٧ ـ **المحرر في علوم القرآن**: د. مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، ط٢، ١٤٢٩هـ.

٢١٨ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ.

٢١٩ ـ **المحصول في علم أصول الفقه**: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٢٠ ـ **المحلى شرح المجلى**: لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٢١ ـ **محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه**: للأستاذ مسعود الندوي، تعليق: عبد العليم البستوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤٢٠هـ.

٢٢٢ ـ **المخصص**: لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٢٣ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

٢٢٤ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.

٢٢٥ ـ **مستدرك الحاكم**: لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٢٢٦ ـ **المستصفى في علم الأصول**: لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٢٧ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل ضمن الموسوعة الحديثية المحققة**: بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٢٢٨ ـ **مسند البزار**: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمٰن زين الله، وعادل سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٢٩ ـ **المسودة في أصول الفقه**: لآل تيمية مجد الدين عبد السلام بن تيمية، وعبد الحليم بن تيمية، وأحمد بن تيمية، تحقيق: د. أحمد بن إبراهيم الذروي، دار ابن حزم ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٣٠ ـ **مشكاة المصابيح**: لمحمد بن عبد الله التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢٣١ ـ **مشكل إعراب القرآن**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٣٢ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**: للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٣٣ ـ **مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٣٤ ـ **مصنف عبد الرزاق**: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٢٣٥ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

٢٣٦ ـ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد**: للشيخ: حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٣٧ ـ **معاني القرآن**: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار السرور، ١٩٥٥م.

٢٣٨ ـ **معاني القرآن**: لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د. فائز فارس، ، الكويت، ط٢، ١٤٠١هـ.

٢٣٩ ـ **معاني القرآن الكريم**: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٤٠ ـ **معاني القرآن وإعرابه**: لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٤١ ـ **المعتمد في أصول الفقه**: لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب المعتزلي، دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٣هـ.
٢٤٢ ـ **المعجم الأوسط**: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٢٤٣ ـ **معجم البلدان**: لياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت.
٢٤٤ ـ **المعجم الكبير**: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤م.
٢٤٥ ـ **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**: لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٤٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: وضع: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ١٩٨٢م.
٢٤٧ ـ **معجم مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، ١٤٢٠هـ.
٢٤٨ ـ **المعجم الوسيط**: لـ د.إبراهيم أنيس ورفاقه، القاهرة، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٢٤٩ ـ **معرفة السنن والآثار**: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٠ ـ **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصر**: للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: أبي عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.
٢٥١ ـ **المُغْرب في ترتيب المُعْرب**: لأبي الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م.
٢٥٢ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**: لجمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط١، ١٤١٩هـ.
٢٥٣ ـ **مفاح دار السعادة**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٤ ـ **مفتاح العلوم لأبي يعقوب**: يوسف بن محمد السكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٥٥ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٣هـ.

٢٥٦ ـ **مقدمة في أصول التفسير**: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ـ.

٢٥٧ ـ **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**: لبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح، تحقيق: د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٥٨ ـ **المكي والمدني في القرآن الكريم من أول القرآن إلى نهاية سورة الإسراء**: لعبد الرزاق حسين أحمد، دار ابن عفان، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٥٩ ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٦٠ ـ **الملل والنحل**: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٢٦١ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**: للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر.

٢٦٢ ـ **منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**: لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامع الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ.

٢٦٣ ـ **الموافقات**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، ضبط: مشهور سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٦٤ ـ **الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة**: د. ناصر بن عبد الله القفاري، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٦٥ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة بإشراف ومراجعة**: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤٢٠هـ.

٢٦٦ ـ **موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب**: لابن هشام، تأليف: خالد بن عبد الله الأزهري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٦٧ ـ **ميزان الاعتدال**: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي بن محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م.

٢٦٨ ـ **ناظمة الزهر**: للشاطبي مع شرح المخللاتي لأبي عيد رضوان بن محمد، تحقيق: عبد الرازق بن علي بن إبراهيم موسى، طبع مكتبة الرشيد، المدينة المنورة.

٢٦٩ ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢٧٠ ـ **النشر في القراءات العشر**: لشمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

٢٧١ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٧٢ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: لأحمد بن محمد التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٢٧٣ ـ **النكت والعيون تفسير الماوردي**: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية.

٢٧٤ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٧٥ ـ **نهاية السول شرح منهاج الوصول**: لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٧٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت ـ.

٢٧٧ ـ **نهاية الوصول في دراية الأصول**: لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الهندي، تحقيق: د. صالح بن سليمان اليوسف، د. سعد ين سالم السويح، مكتبة نزار مصطفى الباز ط٢، ١٤١٩هـ.

٢٧٨ ـ **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه**: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ.د الشاهد البوشيخي، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٩هـ.

٢٧٩ ـ **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**: لإسماعيل باشا البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف بإسلامبول بتركيا، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٥م.

٢٨٠ ـ **الواضح في أصول الفقه**: لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٨١ ـ **الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية**: لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد البورنو أبي الحارث الغَزِّي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٨٢ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن حمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٢٨٣ ـ **ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن**: لأبي عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب، تحقيق: محمد يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٣هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

ملخص الرسالة

١ ـ عنوان الرسالة:

عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية
رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

٢ ـ أعدها: راشد بن حمود بن راشد الثنيان:

٣ ـ أشرف عليها الدكتور: محمد بن سريع السريع:

الأستاذ المشارك بقسم القرآن في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

٤ ـ المشرف المساعد الدكتور: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر:

الأستاذ المشارك بقسم البلاغة في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

٥ ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تظهر أهمية الموضوع في أمور، منها:

١ ـ أن الاطلاع على عادات القرآن ودراستها يفتح للمطلع آفاقاً كثيرة للفهم والتدبر والتفكر، ويعين على معرفة ما في القرآن من معان وأسرار.

٢ ـ أن البحث في هذا الموضوع يعين المفسر على تفسير القرآن، ويختصر عليه جهداً ووقتاً، وذلك من خلال فهم عاداته في أساليبه.

٣ ـ أن العلم بعادات مطردة في القرآن يعد من أوجه الترجيح عند

اختلاف المفسرين، مما يعطي أهمية كبرى لدراسة هذه العادات.

٤ ـ أنه يجمع شتات ما تفرق من هذه العادات المهمة المنثورة في كتب التفسير وغيرها؛ فالبحث فيها يلم المتفرق ويتناولها بالبحث والاستقراء والبيان.

٥ ـ أنه موضوع يتناول جانباً مهماً من جوانب علوم القرآن، ولم أطلع على من أفرده بالتأليف.

٦ ـ هدف الرسالة:

استقراء عادات القرآن الكريم الأسلوبية ودراستها، وإبراز جهود العلماء في بيانها.

٧ ـ خطة البحث في الرسالة:

ـ **المقدمة وفيها:** أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وهدف البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج البحث.

ـ **التمهيد وفيه:** ـ بيان مصطلح (عادات القرآن الكريم) إفراداً وتركيباً.

ـ ظهور مصطلح (عادات القرآن الكريم) وعناية العلماء به.

ـ منزلة عادات القرآن في التفسير.

الباب الأول: عادات القرآن في حروفه وألفاظه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في الحروف، وفيه:

المبحث الأول: اختيار الحروف.

المبحث الثاني: نيابة بعض الحروف عن بعض.

المبحث الثالث: التأكيد ببعض الحروف أو حذفها.

الفصل الثاني: عادات القرآن في الألفاظ، وفيه:

المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب.

المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص.

المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض.

الباب الثاني: عادات القرآن في الحذف والإضمار والإيجاز وضدها، وفيه:

الفصل الأول: عادة القرآن في الحذف والذكر، وفيه:

المبحث الأول: حذف المبتدأ أو الخبر.

المبحث الثاني: حذف الفعل أو المفعول به.

المبحث الثالث: حذف الصفة أو الموصوف.

المبحث الرابع: حذف المضاف أو المضاف إليه.

المبحث الخامس: حذف جواب الشرط والقسم.

الفصل الثاني: عادة القرآن في الإضمار والإظهار والإيجاز والإطناب.

المبحث الأول: كون الإضمار يقوم مقام الإظهار.

المبحث الثاني: إيجاز الحذف والقصر.

المبحث الثالث: الإطناب.

الباب الثالث: عادات القرآن الكريم في تراكيبه، وفيه:

الفصل الأول: عادات القرآن في قرن بعض الألفاظ ببعض، وفيه:

المبحث الأول: قرن بعض الأسماء ببعض.

المبحث الثاني: قرن بعض الآيات الكونية ببعض.

المبحث الثالث: قرن بعض الأحكام ببعض.

المبحث الرابع: قرن الترغيب بالترهيب.

المبحث الخامس: ما يضاف إلى الله تعالى من الخير والشر.

الفصل الثاني: عادات القرآن في قصصه، وفيه:

المبحث الأول: ربط القصة بما يناسبها.

المبحث الثاني: التنويع في عرض القصص.

الفصل الثالث: عادات القرآن في خطاباته، وفيه:

المبحث الأول: خطاب القرآن للأنبياء.

المبحث الثاني: خطاب القرآن للناس.

المبحث الثالث: انتقال الكلام من أسلوب إلى أسلوب.

ـ **الخاتمة**: وفيها نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

ـ **الفهارس الفنية للبحث**.

٨ ـ نتائج البحث وتوصياته:

• ظهور عناية العلماء قديماً وحديثاً بعادات القرآن، على اختلاف عباراتهم في تحديد هذا المصطلح؛ إذ بعضهم يعبر عنه بذكر الأمثلة عليه، كما هي عادة السلف الأوائل؛ حيث لم يكونوا يُعْنَون بالحدود والتعريفات، ولم يظهر هذا المصطلح إلا في القرن السادس الهجري.

• أن عادات القرآن ليست محصورة على أساليبه، بل عاداته متنوعة لا يمكن حصرها، ومن ذلك: عادات القرآن الشرعية، واللغوية، والفقهية، والعقدية، والاجتماعية وغيرها مما يفتح الأفق للباحثين في هذا الموضوع.

• أن العادات الأسلوبية في القرآن لا تخلو من دلالة خاصة ميَّزت اختيار الأسلوب في القرآن، وهي محل تدبر وتأمل، ودافع للإيمان بإعجاز هذا القرآن من جميع الوجوه.

• أن الأسلوب شامل للحروف والألفاظ والتراكيب، وكل حرف في القرآن فلمعنى.

• أن عادات القرآن من جملة العلوم المضافة إلى القرآن.

• عادات القرآن من أهم دلالات الترجيح بين المعاني عند المفسرين.

• عادات القرآن تحمي المفسر من القول على الله بلا علم.

• إيجاب العلماء تنزيل معاني القرآن على المعهود من عرفه وعادته.

• من عادات القرآن: اختيار الحرف واللفظ المناسب للسياق، نيابة بعض الحروف أو الألفاظ عن بعض، التأكيد ببعض الحروف أو حذفها، استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص، الحذف والذكر، والإضمار والإظهار، والإيجاز والإطناب، اقتران بعض الألفاظ أو الآيات الكونية أو الأحكام ببعض، ربط القصص بما يناسبها، وقصرها على المقصود، مع تكرار بعضها،

خطاب الأنبياء بأسماءهم ونبينا ﷺ بوصفه، عموم الخطاب، والانتقال بين الأساليب، وغيرها كثير كما جاء تفصيل ذلك في ثنايا البحث.

• زادت قناعتي بأن علوم القرآن لا تنفد، وأن نعم الله تعالى عامة على عباده، فقام العلماء السابقون بخدمة كتاب الله بكل ما يستطيعون، وتركوا الكثير لمن بعدهم، فكم ترك الأول للآخر، فنحمد الله تعالى على ما يسر، ونسأله دوام التوفيق والسداد.

• لا بُدَّ لاستخراج عادات القرآن من الاستقراء الكامل لكتاب الله، بتأمل والتدبر، مع استجماع شروط المفسر لئلا يحصل الخطأ والزلل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Message Digest

1- Title:

Stylistic habits of the Quran An Empirical Study

A letter of introduction for doctoral

2- prepared by: Rashid bin Hamoud bin Rashid al-thunyan.

3- supervised by: Dr Mohammed bin suriya al-suriya.

Associate Professor, Department of the Koran in the Faculty of Theology at the University of Imam Muhammad bin Saud Islamic University

4- Assistant Supervisor: Dr Abdul Mohsen bin Abdul Aziz, al-askar.

Associate Professor, Department of Rhetoric in the Faculty of Arabic Language at the University of Imam Muhammad bin Saud Islamic University

5- importance of the subject and the reasons for his choice:

Show the importance of the subject in, inter alia:

1- The Holy See at the habits and study opens up prospects for the beginning of many to understand and study and ponder, and help to find out what in the Koran of meanings and secrets.

2- The research in this topic appointed interpreter to interpret the Koran, and it would reduce the time and effort, and that by understanding the habits methods.

3- steady habits that science in the Quran is one of the aspects of weighting the different commentators, which gives great importance to study these habits.

4- it combines the separate pieces of these habits are important in the books strewn interpretation, etc.; quest movie where sporadic and dealt with research and extrapolation, and the statement.

5- It is the subject of dealing with an important aspect of Quranic sciences, was briefed on the authorship of Oferdh.

6- the goal of the message:

Extrapolation of the stylistic habits of the Koran and study, and to highlight the efforts of scientists in a statement.

7- the research plan in the letter:

- Provided, which included: the importance of the topic and the reasons for his choice, and the objective of research, and previous studies, and research plan, and research methodology.

- Boot it: - A term (customs Qur'an) individually and complex.

- The emergence of the term (habits of the Holy Quran) and attention by scientists.

- The status of the Koran in the habits of interpretation.

Part I: Quran habits in his words and letters, in which:

Chapter I: habits of the Koran in letters, in which:

Section I: The choice of alphabet.

Section II: On behalf of some of the letters for some.

The third topic: the emphasis of some characters or deleted.

Chapter II: The habits of words in the Koran, in which:

The first topic: Choose the appropriate word.

The second topic: the use of certain words of special meaning.

Section III: On behalf of some words for some.

Part II: habits of the Koran in the deletion and the mental and brevity, and against, and in which:

Chapter I: usually the Koran in the deletion and male, in which:

Section I: Debutante or delete the news.

Section Two: the act or delete the object.

Section III: Delete the character or described.

Section IV: delete added or added to it.

Section V: delete condition and answer section.

Chapter II: Usually the Koran in the mental and Manifesting, concise and verbose.

The first topic: the fact that the mental act as the rollup.

Section II: deletion of brevity and minors.

Section III: redundancy.

Part III: Habits Koran in his compositions, in which:

Chapter I: habits of the Koran in some words some of the century, in which:

The first topic: a century some of the names of some.

Section II: A Century of some cosmic some verses.

Section III: A Century of some provisions of some.

Section IV: A Century carrot intimidation.

Section V: What is added to the God of good and evil.

Chapter II: The habits of the Koran in his stories, in which:

Section I: Linking the story appropriately.

Section II: diversification in the presentation of stories.

Chapter III: The habits of the Koran in his speeches, in which:

Section I: Koran to the letter of the Prophets.

Second topic: the Koran to the letter to the people.

Section III: transition to speak of a method to method.

- Conclusion: The results of the research, and recommendations of the researcher.

- Technical indexes to search.

8- search results and recommendations:

• the emergence of attention of scientists, past and present habits of the Koran, the difference in phrases such term is defined; as expressed in the remembrance of some examples of it, as is usually the first advances; where they were not mean the limits and definitions, this term did not appear only in the sixth century AH.

• that the customs of the Koran is not limited to the methods, but not a variety of habits that can be identified, including: habits Quran legal, linguistic and theological, and Streptococcus, and social and other, which opens the horizon for researchers in this subject.

• stylistic habits in the Koran is not without its special significance

characterized by the choice of method in the Qur'an, is the subject of reflection and meditation, and defended the faith that the Koran miraculously in all respects.

• that a comprehensive method of the letters and words and structures, and every character in the Quran Vlmany.

• that the customs of the Koran, among other science added to the Koran.

• Quran habits of the most important implications of weighting between the meanings when commentators.

• habits that protect the interpreter of the Koran say about Allaah without knowledge.

• obligatory scientists download the usual meanings of the Qur'an who knew him and his habit.

• habits of the Koran: the character selection and wording appropriate to the context, on behalf of some of the letters or words for some, to emphasize some of the letters or deleted, the use of certain words of special meaning, deletions and male, and the mental and Manifesting, brevity and redundancy, coupling some of the words or verses cosmic or provisions to some, link the stories, including matching, and limited to the destination, with the frequency of each letter of their names and the prophets of our Prophet peace be upon him as, the general discourse, and the transition between styles, and many others as stated in detail in the folds of the research.

• increased my conviction that science Koran does not run out, and yes, God generally slaves, so the scientists ex-service book is all they could, and left a lot to those who came after them, how to leave the first time, Venhamd God Almighty for all pleased, and we ask time success.

• Do not need to extract the habits of the Quran full induction of the book of God, contemplation and reflection, with catchment conditions interpreter so as not to get the error and fault.

Blessings and peace upon our Prophet Muhammad and his family and companions.